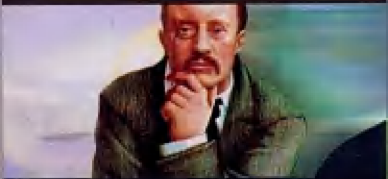
تصحيح
أفكار
ومعتقدات

4



ماذا تعرف عن

عقل الإنسان؟

تعريفه
ماهيته
حدود عمله





سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

تصحيح
أفكار
ومعتقدات

4

ماذا تعرف عن

عقل الإنسان؟

تعريفه

ماهيته

حدود عمله

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

2003

عنوان المؤلف
دمشق - سورية
ص ب 5425
هاتف 2710925 11 963+

الطبعة الأولى
2000 نسخة

العمليات الفنية
الأوائل للنشر والتوزيع
والخدمات الطباعيـة
تلفاكس: 2248255 11 963+

عقل الإنسان ؟

تعريفـه
ماهيتـه
حدود عمله

■ تجدون كل المعلومات المتعلقة بسلسلة مؤلفات المفكر سليم الجابي على العنوان الإلكتروني التالي على شبكة الإنترنت :

http://www.saleemaljabi.com

■ يتلقى المؤلف برحابة صدر كل الإنتقادات و الأراء و الاستفسارات على البريد الإلكتروني :

saleem@saleemaljabi.com

ماذا تعرف عن

عقل الإنسان ؟

تعريفه
ماهيته
حدود عمله

صدر للمؤلف

- السلسلة العامة:

القراءة المعاصرة تحت المجهر
نظرية جذور الأخلاق
القضاء و القدر نظرية كونية ثابتة
النظرية القرانية حول خلق العالم
الرأي في المرأة والحرية و التراث
فن الاختزال القرانى [المقطعات القرانية]
هل مات المسيح على الصليب ؟
الله جل جلاله [وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه]
نشوء الإنسان وتطوره
منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره

- سلسلة باب العبادات:

الصوم في الإسلام

- سلسلة باب التفسير

في ظلال دلالات سورة الكهف
في ظلال دلالات سورة الإسراء
في ظلال دلالات سورة هود

- سلسلة تصحيح أفكار ومعتقدات

مثنى وثلاث ورباع
الجن حقيقة أم خيال ؟
هل كان محمد [ص] شهوانيا
العقل تعريفه - ماهيته - حدود عمله

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا تعرفُ عن عقل الإنسان؟
تعريفه، حدود عمله، ماهيّته
عوامله المساعدة

مُقدِّمة البحث:

لا يختلف اثنان من النّاس في أنَّ الإنسان يختلف عن بقيّة الكائنات الحيَّة فيما جهَّزه خالقه به بجهاز العقل الذي إذا استعان به هذا الإنسان يُقدِمُ أو يُحجمُ عن أن يفعل ما يريد فعله أو ما يُطلبُ منه أنْ يفعله بحرّيةٍ تامَّةٍ وبإرادةٍ وتصميم ظاهرَيْن. على حين أنَّ بقيَّة الكائنات الحيَّة لا تتَّصف بهذه الصّفات التي نسبناها لهذا الكائن الإنسان. ولذلك يُطلقُ المفكِّرون على بقيَّة الكائنات الحيّة مُصطلح (الغريزيَّة)، دلالةً على أنَّ كُلَّ كائنٍ حيٍّ منها يتصرَّف في حياته على نمطٍ واحدٍ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ. **علماً بأنّ هناك من الفلاسفة والعلماء مَنْ يرون أنّ الإنسان يُمثِّل درجة تطوُرٍ عن الحيوانات**

التّدينيّة. وهو موضوع لا يمتُّ إلى بحثنا هذا الذي نبحثه في هذا الكتاب بصلةٍ مباشرة. فالإنسان الحاليّ هو إنسانٌ عاقلٌ وكفى، سواء أكان هذا الإنسان غير عاقلٍ قبل أنْ يصل إلى مرحلة تطوُّره الحاضرة أم كان غير ذلك؟ فأنا حدَّدتُ عناوين ما أردتُ بحثه في مؤلَّفي هذا، ولا تشملُ تلك العناوين هذه النّظريّة التي أشرتُ إليها، ومن باب أنَّ بحثي انحصر في موضوع ما يحمله هذا الإنسان من عقلٍ يتحلَّى به ويمتاز به عمّا سواه من الكائنات. وسواء أكان هذا الإنسان يُمثِّل درجة تطوُّرٍ عن كائنٍ قبله أو كان مخلوقاً على الشّكل الذي هو عليه منذ الابتداء.

هذا وإنَّ الذي دفعني إلى كتابة هذا الكتاب ما ألاحظه من بُعْد هذا الإنسان عن استعماله لجوهرة عقله استعمالاً موضوعيّاً وبإيجابيّة. ذلك أنَّ كُلَّ مَنْ يستعمل شيئاً من الأشياء بدون أنْ تكون له إحاطةٌ بعلم هذا الشّيء بشكلٍ علميٍّ وموضوعيّ فإنَّه يستعمل هذا الشّيء على صورةٍ تتنافى وحقيقة ذاك الشّيء والغاية التي صُنع من أجل تأديتها. وأضرب للقارئ مثالاً على ذلك لتوضيح ما قلتُ: فالطّفل الذي تُعطيه جوهرة تراه يلعب بها أحياناً فيضرب بها الحائط وكأنَّها كرةٌ بين يدَيْه. أو يقذف بها برجله ليلاحق بريقها. يفعل هذا لأنَّه لا يعلم حقيقة هذه الجوهرة التي هي بين يدَيْه ولا يعلم المقصد من استعمالها. ولنضرب للقارئ مثالاً آخر توضيحاً لما ذكرتُهُ له: فلنفرض أنَّ هذا الطّفل يقف وحده في مكان ما واقتربتْ منه أفعى فظنَّها حبلٌ للّعب من حبال اللّعب التي يلعب بها الأطفال لجهله بحقيقة الأفعى وحقيقة لدغة سُمّها. فيقبلُ عليها هذا الطّفل للإمساك بها فتلدغه ويموت إذا

لم يقم أهله بإسعافه ومعالجته. فمن خلال هذَيْن المثالَيْن فقد عاد القارئ يُدرك أهمّية العناوين التي حدَّدتُ بحثها في العنوان، ولأقوم ببحثها في هذا الكتاب بشكلٍ علميٍّ عسى أنْ يُساعده ذلك على استعمال عقله بشكلٍ علميٍّ وموضوعيٍّ وإيجابيٍّ.

وتتجلَّى أهمّية هذا البحث من جهة وجود كثرةٍ من الأسئلة يطرحها الباحث، وقد يعجز الإنسان العاديّ عن إيجاد أجوبةٍ علميّة ومُقنعة عنها. وأطرح على مسامع القارئ نماذج من تلك الأسئلة لتتبيَّن له أهمّية ما أقبلتُ على بحثه في هذا الكتاب: فالسّؤال الأوّل البسيط الذي يخطر للمرء بالبداهة: ما هي ماهية العقل؟ وأين يقع عقل الإنسان؟ أيقع داخل جمجمته أم يقع خارجها؟ ويسأل هل أنَّ هذا العقل يموت بموت صاحبه أم أنَّ عقل الإنسان خالدٌ خلود نفسه؟ فإنْ كان خالداً فما هي معالم وأدلَّة ذلك؟ أمّا إذا كان العقل يفنى بفناء هذا الجسد فكيف بإمكان هذه النّفس أنْ تستقلَّ وتعمل بعد موت صاحبها بدون هداية العقل؟ أم أنَّ للنّفس وسيلةً أخرى تستعين بها بعد موت صاحبها وبعد أنْ انتقلت من عالم المادّة إلى عالم البرزخ الذي دخلتْهُ؟ فهذه أسئلةٌ تخطر على بال الإنسان العاديّ، ولا يجد لها أجوبةً علميّةً مُقنعة. فيستمرّ في حياته وصدره مفعمٌ بالشّكوك والاستفهامات التي تقضّ مضاجعه طيلة حياته التي يحياها في عالمنا المادّي الذي أتينا إليه بدون إرادتنا، ونُغادره بطريق الوفاة وبدون رغبة منّا أيضاً، وهل ترضى نفس امرئ دخول عالمٍ غامضٍ وهو لا يدري عنه شيئاً؟

أمّا إذا كان هـذا الإنسـان مُفكِّراً وباحثـاً فـلا يقـف تفكيـره وبحثـه عنـد حدود الإجابة عن الأسئلة التي طرحـها الإنسـان العـاديّ. بـل يطـرح أسـئلةً أدقّ وأبعد مدى. فهو يسأل: هل يكفي عقل الإنسان صاحبه للوصـول إلـى معرفةٍ كاملةٍ لهذا الكون من حوله؟ أم أنَّ العقل وحده لا يفيد صاحبه ليصـل به إلى المعرفة الكاملة. ويعود حينذاك ليسأل: وما هي الوسائل التـي تسـاعد عقلـه علـى بلـوغ المعرفـة الكاملـة؟ ويبـدأ حينئـذٍ يتـأكَّد مـن مصداقيّـة تلـك الوسائل المساعدة إنْ هو أحاط بها علمـاً. ومـن ثـمّ يبـدأ ينظـر إلـى مـا حولـه بالاستعانة بتلك الوسائل التي اكتشف أهمّيتها فيبحث كُلَّ شيء بذاك المنظـار الذي بات موجوداً بين يدَيْه ليزداد علماً ومعرفـةً لـهذا الكـون الـذي وُلـد فيـه غير مختار وبلا مشيئة.

فإذا كان هذا الإنسان من نوع الفلاسفة ويحمل لياقتهم فإنَّه يطرح على نفسه أسئلةً أبعـد مـدى ممّـا طرحنـاه مـن أسـئلةٍ حتّـى الآن علـى ألسـنة هذَيْـن القسمَيْن من النّاس اللّذَيْن أتينا على ذكرهما. فيسأل الفيلسوف نفسه: وهل أنَّ الإنسان مادّة وحسب أم أنَّه من جسدٍ وروح. وما هي أدلّة ذلـك؟ كذلـك يسأل هذا الفيلسوف نفسه: هل يفنى هذا الإنسان عند موته أم أنَّه ينتقل إلـى عالمٍ جديدٍ. وما هي أدلّة ذلك؟ كذلك يسأل هذا الفيلسوف نفسه: هـل أنـا مخلوق. وما هي حقيقة خالقي إنْ وُجد؟ ولماذا خلقني في هذا العـالم؟ فـإنْ كنتُ غير مخلوقٍ وثمرة تطوُّرٍ طويلٍ فما هو أصل وجودي في هـذا الكـون؟ وأمثال هذه الأسئلة التي لا يتجرّأ على طرحها إنسانٌ عاديّ.

وعندما يُطالع القارئ عشرات هذه الأسئلة المطروحة تأخذ الدّهشة منه مأخذاً ويقول في حديث نفسه: ومن أين سيستقي كاتبنا أجوبته عنها جميعها؟ وما مدى صحّة ما سيدلي به في هذا الكتاب من معلومات؟ فهذا سؤالٌ جوهريٌّ يسأله القارئ وهو محقٌّ فيه ويسأله ليطمئنّ إلى ما سيقرأه ويطالعه في هذا الكتاب.

فإنْ استفسر القارئ عن المصادر التي سأستعين بها في بحثي هذا بدافع ما حدَّث به نفسه فأقول له: يا قارئي العزيز كُنْ مُطمئناً إلى ما سأبحثه في هذا الكتاب؛ لأنَّني لن أنهج نهج الكُتَّاب الذين أخذوا بأقوال الفلاسفة أو غيرهم من كُتَّاب أمَّتنا القدماء هذا من جهة. ولن أسير في بحثي هذا على شاكلة الكُتَّاب الذين اعتمدوا في كتاباتهم وبحثهم لهذا الموضوع وغيره على قيل وقال. ذلك لأنَّ بَحْثَ العقل قديماً بَحَثَهُ مختلف المفكِّرين من أمثال الخوارج والمعتزلة وغيرهم وفي وقتٍ لم تكن حقائق العلم الحديث قد ظهرت إلى الوجود. لذلك جاء بحثهم لموضوع عقل الإنسان ارتجاليّاً وغير كامل. فهم انطلقوا ولا شكَّ من دلالة كلمة عقل، لكنْ؛ من غير دراسة موضوعيّة لهذه الكلمة (عقل). وإنَّ الكاتب المعاصر لنا إذا حاول مناقشة أفكار أولئك الأقدمين يجد مجالاً رحباً يزيد الطّين بِلّة ولا يفيد إلا الطّعن والتّسفيه لأولئك الذين بذلوا جهوداً مضنيةً وبنيّةٍ حسنة ومن دون أنْ تتوفَّر لهم المعطيات العلميّة التي توفَّرت للكاتب المعاصر.

لذلك فإنَّني - يا قارئي العزيز - سأبحث موضوع (عقل الإنسان) معتمداً فيه على مراجع علميّة وعلى ما أتت به تلك المراجع العلميّة من حقائق

ثابتة. وسأناقش الأمور بمنطق المحاكمات العقليّة المجرّدة غير المقلّدة، وسيكون بحثي هذا موضوعيّاً ومستعيناً بتوجيهات ما تضمّنه هذا القرآن العظيم من توجيهات على هذا الصّعيد وبشكلٍ منهجيّ.

علماً بأنّي قسّمتُ موضوع هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب. بحثتُ في الباب الأوّل منها تعريف كلمة (العقل) وعلى حسب ما أورده معجم مقاييس اللّغة ومعجم محيط المحيط. وناقشتُ تعريف المعجمَيْن المشار إليهما بشكلٍ موضوعيّ. ومن ثمّ بحثتُ وعلى ضوء ذلك صلة عقل الإنسان بدماغه بشكلٍ علميّ، وانتقلتُ بعد ذلك فبحثتُ صلة عقل الإنسان بكيانه النّفسيّ. وأعطيتُ هناك فكرةً موجزة، ولكنْ؛ بصورة علميّة عن هذا الكيان النّفسيّ الذي هو لهذا الإنسان. كما وضّحتُ بعده اللّحمة الكائنة ما بين عقل الإنسان ونفسه. وحاولتُ بعد ذلك توضيح علاقة الفكر بالعقل. وألقيتُ ضوءاً على مفهوم (الوعي) وصلة الوعي بالعقل. وأثبتُّ بعد ذلك كيف يكون العقل وسيلة تطوير الكيان النّفسي عند الإنسان. وخلصتُ من ذلك كُلِّه إلى طرح المفهوم الحقيقيّ لجوهرة (العقل). ومن ثمّ نبّهتُ إلى أنَّ سلامة عقل الإنسان ترتبط بسلامة جسده. وأنهيتُ بذلك الباب الأوّل من هذا الكتاب.

وانتقلتُ بعد ذلك إلى الباب الثّاني من هذا الكتاب وهو الباب الذي خصّصتُهُ للكلام عن العوامل التي تساعد عقل الإنسان على عمله وكيفيّة خضوع ذلك كُلِّه لقانون الاحتياج العام. ولذلك أعطيتُ القارئ الكريم بادئ ذي بدء عن هذا القانون الطّبيعيّ الذي أسميتُهُ (قانون الاحتياج العام)

ومن ثمّ بدأتُ بدايةً بالكلام عن العوامل التي تساعد حواس الإنسان الخمس على عملها. فتكلّمتُ عن كُلٍّ واحدة منها بشكل مستقلّ. فلمّا فرغتُ من ذلك توجّهتُ لبحث العوامل التي تساعد عقل الإنسان على عمله. فابتدأتُ بالكلام عن العامل الذي يساعد عقل الإنسان ليعمل على صعيد الزّمن الماضي. وأتبعتُ ذلك بالكلام عن العامل المساعد الذي يساعد عقل الإنسان ليعمل على صعيد الزّمن الحاضر. وأتبعتُهُ بالكلام عن العامل الذي يساعد عقل الإنسان ليعمل على صعيد الزّمن المستقبل. ولم أنس أنْ أُقدِّم أمثلةً تشرح جميع ما تكلّمتُ عنه وبشكلٍ علميّ. وبذلك أنهيتُ مضامين الباب الثّاني من هذا الكتاب.

وقد خصّصتُ الباب الثّالث من هذا الكتاب للكلام عن (الوحي السّماويّ) ودوره الطّويل الذي رافق نشأة الإنسان على سطح هذه الكرة الأرضيّة، وكيف أنّه لولا (الوحي السّماويّ) لكان هذا الإنسان ما يزال يمضي فترة عصوره الحجريّة حتّى الآن. وأرى أنَّ لهذا البحث الذي تضمّنه هذا الباب الثّالث من هذا الكتاب أهمّيّةً قصوى ينبغي على القارئ الكريم إعطاءها منزلتها التي أغفلها جميع الذين ابتلوا بعقلٍ تقليديٍّ في هذه الأمّة بعيداً عن البحث والاستقصاء. فوضّحتُ للقارئ في هذا الباب حدود عمل عقل الإنسان، تلك الحدود التي لا يستطيع العقل تجاوزها. كما وضّحتُ رابطة جدليّة علاقة الأرض بالسّماء. وبعد ذلك تكلّمتُ عن محاولات اكتشاف وجود خالق لهذا الكون من حولنا، وكيف أنَّ تلك المحاولات لم تتجاوز حدود القول باحتمال وجوده سبحانه وتعالى. وأخيراً بيّنتُ حقيقة

وجود قانون طبيعيّ أشار إليه القرآن الكريم وهو أنَّ كُلَّ شيء في هذا الوجود استند خلقه إلى نظام الزّوجيّة من فصيلته نفسها. وكيف أنَّ السّماء تُكمل وجود الأرض على الصّعيد المادّي، وكيف أنَّ العقل والوحي السّماوي يدخل في هذا النّظام. وبدون استعانة عقل الإنسان بما يحمله إليه وحي السّماء يظلّ يدور في دوّامة العالم المادّي وفي نطاق إعطاء آراء الاحتمال فيما يتعلّق بعالم ما بعد هذا العالم المادّي. وأنهيتُ الكتاب بخاتمة تساعد القارئ على أخذ فكرة ولو ملخَّصةٍ عن جميع ما تضمَّنه هذا الكتاب.

وأسأل اللّه تعالى أنْ يوفّقني فيما أقبلتُ على كتابته؛ إنَّه نعم المولى ونِعمَ المجيب، وهو الهادي، وهو المعين، وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

سليم الجابي

الباب الأوّل:

الفصل الأوّل:

تعريف العقل من الوجهة اللّغويّة

إنّنا نحن العرب عندما نستعمل هذه الكلمة (العقل) لنستدلّ به على تمييز الإنسان عن الحيوان، فإنّنا نستعملها من واقع لُغة الضّادّ التي نتكلّمها بالوراثة، وهي هذه اللّغة الشّريفة التي أنزل اللّه تعالى بها كتابه العزيز الذي تحدّى به الجنّ والإنس من النّاس. وما عرفنا عربيّاً في تاريخ هذه الأمّة أنّه قد استعمل للتّمييز ما بين الإنسان وما بين الحيوان غير هذه الكلمة (العقل) التي نسعى الآن لمعرفة حقيقة دلالتها اللّغويّة. لذلك نتساءل أوّل ما نتساءل: بماذا عَرَّفَ أجدادنا العرب الأقدمون كلمة (العقل) هذه؟ فإنْ نحن راجعنا معاجم اللّغة العربيّة. ومعجم مقاييس اللّغة بالذّات الذي يُعطيك مؤلّفه أصل وضع الكلمة. نلاحظه وقد كَتَبَ يقول:

« العين والقاف واللام أصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ مطرد يـدلّ علـى حُبسـةٍ فـي الشّيء ، أو ما يقارب الحُبسة . من ذلك (العقل) وهو الحابس عن ذميم القول والفعل . قال الخليل : العقل نقيض الجهل ، فيقال عقلَ يعقلُ عقلاً إذا عـرَف ما كان يجهله قبل . أو انزجر عمّا كان يفعله . وجمعه عقول . ورجـلٌ عـاقلٌ وقوم عقلاء وعاقلون . ورجلٌ عقول إذا كان حَسَنَ الفَهْم وافر العقـل . ومـا له معقول ، أي ما له عقل ، ويُقال في المثل "ربّ أبلـهَ عقـول" . . ومـن البـاب المعقل والعقل وهو الحصن وجمعه عقول . . ومن الباب العقل وهـي الدّيـة . حيث يقال : عقلـتُ القتيـل أعقلـه عقـلاً إذا أدّيـتُ دِيتَه . وقـال الأصمعـي : كلّمتُ أبا يوسف القاضي في معنى عقلتُ القتيل أعطيتُ ديته وذلك بحضرة الخليفة الرّشيد فلم يفرّق بين عقَلته وعقلـتُ عنـه حتّى فهّمتُه . . والعاقلـة : القوم تُقسّم عليهم الدّية في أموالهم إذا كان قتيل خطأ . . وتـأوّلوا قـول أبـي بكر لمّا منعت العربُ الزّكاةَ : "واللّه لو منعوني عِقالاً ممّا أدّوه إلى رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وسلّم لقاتلتُـهُم عليـه" فقـالوا : أراد بـه صدقـة عامـة . وقـالوا أيضاً : إنّما أراد بالعقال الشّيء التّافـه الحقير فضـرب العقـال الـذي يُعقـلُ بـه البعير لذلك مثلاً . قال الأصمعـي : عقـلَ الظّبـيُ يعقـل عقـولاً إذا امتنـع فـي الجبل . . ويُقال : اعتقل شاته : إذا وضع رِجلها بـين فخـذه وسـاقه فحلبـها ، ويقال : اعتُقِل لسان فـلان : إذا احتبـس عـن الكـلام . . فأمّا قولـهم : فلانـة عقيلة قومها فهي كريمتهم وخيارهم . . . ».

وأورد معجم (محيط المحيط) عن صاحب التّعريفات قولـه وهـو يُعـرّف (العقل) ، قال :

« العقل جوهرٌ مجرّدٌ عن المادّة في ذاتهِ، مقارنٌ لها في فِعلِه، وهي النّفس النّاطقة التي يُشير إليها كُلّ أحدٍ بقوله ـ أنا ـ. فصريحٌ بأنَّ القوّة العاقلة أمرٌ مُغايرٌ للنّفس النّاطقة، وإنَّ الفاعل هو النّفس. وإنَّ العقل آلة للنّفس بمنزلة السكّين بالنّسبة إلى الذي يقطع شيئاً ما. ».

وألخّص للقارئ ما ذهب إليه مُؤلّف معجم المقاييس من معنى لكلمة العقل: فهو نبَّه أذهاننا إلى أنَّ هذه الأحرف الثّلاثة (العين والقاف واللام) أصلٌ واحدٌ ويدلّ على حبسة في الشّيء، وعليه فإنَّ عقل الإنسان يحبسه عن ذميم القول والفعل ويستعمل نقيض الجهل ويستعار لدلالات أخرى.

وألخّص للقارئ أيضاً ما ذهب إليه صاحب التّعريفات وهو يُعرِّف العقل بأسلوب الملاحظة العلميّة فهو قد لاحظ بما يتعلّق بالعقل الملاحظات التّالية:

1 ـ أنَّ العقل جوهرٌ مجرّدٌ عن المادّة في ذاته؛ أي أنَّ العقل ليس هو بشيءٍ مادّي.

2 ـ وأنَّ العقل مقارنٌ للنّفس النّاطقة التي نُعبِّر عنها بقولنا "أنا". فهو استعمل للعقل اسم فاعل (مقارن) وقصد بذلك أنَّ هذا الجوهر المُسمَّى "العقل" يُلازم النّفس النّاطقة ولا يتركها بحالٍ من الأحوال فهو مشدودٌ إليها.

3 ـ وقد خلص من هاتَيْن الملاحظتَيْن إلى أنَّ القوّة العاقلة ليست هي النّفس النّاطقة، وأنَّ العقل تابعٌ للنّفس البشريّة، وأنَّ العقل ليس هو الفاعل فيها.

ى صاحب التّعريفات ملاحظاته هذه، فشرح مهمّة العقل نسبة إلى النّفس النّاطقة فوضّح بأنَّ العقل هو أشبه بالآلة بالنّسبة إلى النّفس النّاطقة. وضرب لنا مثال السّكّين التي يستعملها اللّحّام لتقطيع ما بين يدَيْه من لحم. فإنْ شاء قطعها إرباً صغيرةً أو شاء قطعها قطعاً كبيرة. وهنا التقى رأي صاحب التّعريفات مع قول معجم المقاييس وهو أنَّ العقل هو كيانٌ غير مادّي يحبس صاحبه عن ذميم القول والفعل. فَمَنْ لا يحبسه عقله عن ذميم القول وذميم الفعل يَنظر إليه عقلاء النّاس على أنَّه رجل جاهلٌ.

وبعد أنْ لخّصتُ للقارئ ما أورده مُؤلِّف (معجم مقاييس اللّغة) ومُؤلِّف معجم (محيط المحيط)، أناقش تلك الآراء التي استخلصناها من أقوالهما على ضوء مُعطيات العلم الحديث المعاصر. ومُبيِّناً نواحي الاتِّفاق ونواحي الاختلاف في نظرة كُلِّ طرفٍ من هذَيْن الطّرَفَيْن حول مفهوم (العقل). ومن منُطلق أنَّ القارئ الكريم وبعد اطِّلاعه على تلك الآراء يتشوّق لمعرفة ما أضافته حقائق العلم الحديث على هذا الموروث من المفاهيم وما أيَّدته حقائق العلم الحديث منها، وما أجرته من تبديل جذريّ فيها. هذا إذا كان هذا القارئ مثقّفاً يتابع ما يطلع عليه العلم الحديث من حقائق علميّة وهو يدعو ربَّه في الوقت نفسه (ربّي زدني علماً).

أولاً ـ حقيقة رأي معجم المقاييس:

فصاحب معجم المقاييس ذهب إلى القول بأنَّ العقل يساعد صاحبه، إنْ هو استعمله، على حبس نفسه عن أنْ تُصاب نفسه بالجهالة فترتكب

بنتيجة ذلـك ذميم الأقـوال وذميـم الأفعـال أيضـاً. والحقيقـة هـي أنَّ القـرآن الكريم قد أورد كلمة العقل بالمعنى الذي أورده صاحب معجم مقاييس اللّغة فإنْ راجع القارئ الآيات 168 ـ 171 من سورة البقرة فسيلاحظ كيف أنَّ اللّـه ـ عزَّ وجلَّ ـ قد استعمل كلمة (العقل) في هذه الآيـات الكريمـة بـالمعنى الـذي أشار إليه معجم المقاييس وهو ضرورة اسـتعمال الإنسـان عقلـه ليحبسـه عـن ذميم الأقوال والأفعال. فاللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

فالخطاب في هاتَيْن الآيتَيْن مُوجَّه إلى النّاس بصورة عامّة، ولـيس إلـى المسلمين بصورة خاصّة. وإنَّ الله تعالى ينصح النّاس فـي هـذه الآيـة الكريمـة على مستوى القول والفعل وهو؛ **أوّلاً**: أنْ يأكلوا ممّا فـي الأرض كـلّ شـيءٍ أحلّه اللّه تعالى لهم وكان طيّباً غير خبيث، فالخبيث عكـس الطّيّـب (محيط المحيط). **ثانياً**: وأنْ يقولـوا مـا يتوصّلـون إليـه بأسـلوب علمـيّ مبتعديـن فـي ذلك عـن السّوء والفحشـاء. ونلاحـظ من ذلـك هـو أنَّ اللّـه تعـالى يوصـي الإنسان أنْ يحبس نفسه ويتقيّد بهاتَيْن النّصيحتَيْـن ليُسـمّى عـاقلاً، وليصـون بذلك نفسه مـن اتّبـاع خطـوات الشّيطان. فلمّـا فـرغ اللّـه تعـالى من إسـداء النّصيحتَيْن المشار إليهما في الآية المذكـورة أضـاف تعـالى وهـو يُوضِّـحُ حـال النّاس الذين لا يحبسون أنفسهم بهاتَيْن النّصيحتَيْن وقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ومن خلال هاتَيْن الآيتَيْن الكريمتَيْن فقد صورَّ اللّه تعالى أحوال النّاس الذين لم يحبسوا أنفسهم بالنّصيحتَيْن المذكورتَيْن مبيّناً نتائج أفعالهم فَصورَّ حالهم تصويراً فنّياً مبيّناً وما يؤول إليه حالهم الذي يؤولون إليه نتيجة عدم تقيّدهم بالموعظتَيْن المذكورتَيْن. فاختصر تعالى ذلك بثلاثة كلمات هي ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾. وأدخلهم بذلك فيمَنْ يجهلون ولا يعقلون.

فهذا مثالٌ قرآنيٌّ وضَّح لنا كيفيّة استعمال القرآن الكريم كلمة (العقل) بالمعنى الذي ذهب إليه مؤلِّف معجم (مقاييس اللّغة) وهو المعنى الأصلي لكلمة (العقل). وبعد أنْ أحطنا علماً بالمعنى الذي طرحه(معجم المقاييس) وضربنا لتأييده مثالاً قرآنيّاً ننتقل خطوةً أخرى لمناقشة النّقاط التي طرحها صاحب التّعريفات الذي اتّفق مع رأي (معجم المقاييس) في مفهوم (العقل)، وزاد عليه بنوداً أخرى تستدعي من جانبنا مناقشتها بأسلوبٍ علميٍّ وموضوعيٍّ لتثقيف كُلِّ فردٍ من شعبنا بثقافة ما توصَّلنا إليه.

ثانياً ـ حقيقة رأي صاحب التّعريفات:

فننتقل إلى مناقشة تعريف كلمة (العقل) وعلى حسب ما عرَّفها بذلك صاحب التّعريفات ولتبيان مدى حقيقة تعريفه على ضوء مُعطيات العلم

الحديث. فنتناول بادئ ذي بدء قول صاحب التّعريفات بأنَّ (**العقل جوهرٌ مجرّدٌ عن المادّة في ذاته**)، ونتساءل عن مدى صحّته؟

فنقول: إنَّ علماء القرن التّاسع عشر طرحوا هذا السّؤال على أنفسهم وهو: هل أنَّ العقل مجرّدٌ عن المادّة أم أنَّه مادّة في ذاته؟ وقد أجابوا عن هذا السّؤال بلغة المادّة حيث ورد عن عالِم الأحياء (توماس هكسلي) Thomas H. Huxley =1= :

" أنَّ الأفكار التي أعبّر عنها بالنّطق وأفكارك فيما يتعلّق بها إنَّما هي عبارة عن تغيُّراتٍ جزئيّة"، وبذلك فقد صوَّر العالِم هكسلي أنَّ العقل ينبثق من المادّة. وقد راح يصف العلاقة بين العقل والجسد فأضاف و قال:

" يبدو أنَّ الوعي مُتّصلٌ بآليّات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم مثلما يُلازم صفير البخار حركة القاطرة دون أيّ تأثير على آليّتها".

ولقد أيَّد علماء أحياء آخرون رأي العالم هكسلي فيما ذهب إليه من نظريّة. وقلتُ (نظريّة) لأنَّ قوله هذا لم يستند فيه العالم (هكسلي) إلى حقيقةٍ علميّة. لكنّ أحداً من علماء القرن التّاسع عشر ما استطاع أنْ يُحدِّد بالضّبط كيفيّة انبثاق العقل من المادّة وبشكل علميّ. لذلك توقَّعوا أنْ يأتي المستقبل بالإجابة عن السّؤال المشار إليه. وهكذا انقضى القرن التّاسع عشر في أوربّة من دون أنْ يُثبت أحدٌ من علمائه صحّة هذه النّظريّة التي طرحها عالم الأحياء هكسلي الذي ذكرناه.

فلمّا أطلّ القرن العشرون برأسه على العالم الغربيّ ، وإذ يظهر علماء ينفون صحّة تلك النّظريّة التي سادت أفكار علماء القرن الذي سبقه . وقد سفّهوها بأسلوبٍ علميّ بما استجدَّ بين أيديهم من أبحاثٍ وحقائق علميّة . وعلى رأس هؤلاء الذي هو من علماء القرن العشرين عالم الأعصاب الحديثة (تشارلز شرنغتون) **Charles Sherrington** =2= هذا الذي عاد العلماء يَعُدُّونه مُؤسِّس هذا العلم الحديث . فالعالم شرنغتون انتهى من أبحاثه ليقول :

"وهكذا ظهر فرقٌ جذريٌّ بين الحياة والعقل . فالحياة هي مسألة كيمياء وفيزياء ، أمّا العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء" .

ووافقه عالم مبحث الأعصاب السّير (جون إكلس) **John Eccles** =3= استناداً إلى ما قام به من أبحاث . فهو قال :

" إنَّ التّجارب التي تنمّ عن الوعي تختلف في نوعها كُلَّ الاختلاف عمّا يحدث في آليّة الأعصاب ، ومع ذلك فإنَّ ما يحدث في آليّة الأعصاب شرطٌ ضروريٌّ للتّجربة ، وإنْ كان هذا شرطاً غير كاف " .

وقد مضت ثلاثة عقودٍ من الزّمان من بداية القرن العشرين ، وفي الثّلاثينيّات منه خاصّة ظهر عالم جديد هو العالم (ويلدر بنفليد) **wilder Penfield** =4= وقد أجرى هذا العالم مئات العمليّات الجراحيّة على أدمغة أناس وهم في حالة الوعي فاندمجت ـ نتيجةً لأبحاثه وجراحاته التي قام بها ـ مباحث الأعصاب الحديثة بعلم جراحتها ، وانتهى هذا العالم المذكور من

ذلـك فـي عـام 1975 م، إلـى نشـر كتابـه المُسـمَّى (لُغـز العقـل THE MYSTERY OF THE MIN) والـذي أثبـت فيـه أنَّ الكلمـات مـا هـي إلاّ أدوات تعبير عن الأفكار، ولكنَّها ليست الأفكار ذاتها، وبالتّـالي؛ فقـد بيَّـن هذا العالم بأنَّ عمل العقل ليس عملاً آلياً. وبذلـك يكـون هـذا العـالم ومـن خلال تجاربه العلميّة قد أثبت بُطلان نظريّة عالم الأحيـاء (تومـاس هكسـلي) التي طرحها حول عقل الإنسان في القرن التّاسـع عشـر. كذلـك مـا اسـتطاع بنفليد تحديد موقع العقل أو الإرادة في أيّ جزءٍ من مواقع الدّماغ. على حين تبيَّن له في الوقت نفسه بأنَّ الدّماغ هو مقـرّ الإحسـاس والذّاكـرة والعواطـف والقدرة على الحركة. ولقد انتهى من ذلك ليقول بأنَّ العقل البشريّ والإرادة البشـريّة لا توجـد لـهما فـي جسـد الإنسـان أعضـاء ومواقـع جسـديّة. وقـد يتساءل القارئ هنا عن دلالة اصطلاح (مواقـع الدّمـاغ) وعـن المقصـود بـها؟ وهو سؤالٌ علميٌّ ينبغي شرحه باختصار.

أقـول: إنَّ العـالم (بنفليـد) اكتشـف وبمحـض الصّدفة أنَّ تنبيـه منـاطق مُعيَّنة من دمـاغ الإنسـان بواسـطة مِجسٍّ كـهربائيّ تنبيـهاً خفيفـاً يُحـدِثُ هـذا التّنبيه عند المريض استرجاعاً فجائيّاً للذّاكرة. فأدهشه هذا الاكتشـاف. وقـد حاول أنْ يفعـل الفعـل نفسـه فـي دمـاغ امـرأةٍ مريضـةٍ بالنّسـيان، فقـد كـانت سمعت آلاتٍ موسيقيّةٍ تعزف لحناً من الألحـان ونسـيت ذلـك. فَنَبَّـه (بنفليـد) مركز الدّماغ نفسه بالمجسّ الكهربائيّ فعادت تلك المريضة تسـمع نفس ألحـان الآلة الموسيقيّة. فأعاد تجربته ثلاثين مرّة وكانت تسمع من جديد تلك الألحان ثلاثين مرّة أيضاً. وقد عمد العالم المذكور إلى إبلاغ المريض أحياناً أنَّـه سيُنبِّه

مركز دماغه، لكنّه كان لا يُقدم على فعل ذلك. وكانت النّتيجة من هذه التّجربة أنَّ المريض كان لا يتذكّر شيئاً.

وقد أجرى العالم المذكور تجارب مختلفة من نفس نوع التّجربة سابقة الذّكر لمعرفة مواقع العواطف والقدرة على الحركة وغيرها، فاكتشفها جميعها لكنّه عجز أنْ يجد في الدّماغ موقعاً لعقل الإنسان وموقعاً لإرادته الشّخصيّة. فاستنتج وكما سبق لنا أنْ ذكرنا بأنَّ العقل والإرادة لا موقع لهما في دماغ الإنسان إطلاقاً. وبالتّالي؛ فإنَّ العقل يسيطر على تلك المعلومات التي يوصلها إليه دماغ هذا الإنسان لكنّ الدّماغ لا يستطيع أنْ يتحكَّم في العقل ولا في إرادة الإنسان. وهنا أضاف العالم (بنفليد) يقول: (إنَّ العقل، لا الدّماغ، هو الذي يراقب ويُوجِّه في آنٍ واحد معاً).

كذلك أضاف يقول:

« إنَّ الدّماغ شبيه بالحاسبة الإلكترونيّة التي لابُدَّ أنْ تُبرمجها وتديرها قوّةٌ قادرة على الفهم المستقلّ».

وانتهى العالم بنفليد من ذلك كُلِّه، فحدَّد دور العقل وقال:

« إنَّ ما تعلَّمنا أنْ نُسمِّيه العقل يبدو أنَّه هو الذي يُركِّز الانتباه. ويعي ما يدور حوله، وهو الذي يستنبط ويتَّخذ القرارات الجديدة، وهو الذي يفهم ويتصرَّف كما لو كانت لهذا العقل طاقة خاصّة. وهو الذي يستطيع أنْ يتَّخذ القرارات ويُنفِّذها أيضاً مستعيناً بمختلف آليّات الدّماغ» فَعَلَّلَ هذا العالم من خلال أقواله هذه استحالة العثور على موقعٍ للعقل في أحد أجزاء

دماغ الإنسان، ومن باب أنَّ الذي يقوم ببرمجة الحاسبة الإلكترونيّة لا يُشكِّل في حقيقة أمره جزءاً منها، بل يكون هذا المُبرمِج خارجها. ومن ثمّ انتهى من جميع أقواله التي ذكرتها للجزم بحقيقةٍ تلاقى فيها مع ما عَرَّفَ به (صاحب التّعريفات) عقل الإنسان وهو:

« أنَّ العقل ربّما كان جوهراً ومختلفاً عن جسم الإنسان وأنَّ العقل والإرادة البشريّة حقيقتان غير ماديّتين فلا تخضعان للتّحلُّل بالموت الذي يطرأ على جسم الإنسان ودماغه ».

وعلى هذه الصّورة يكون العلم الحديث قد أثبت مصداقيّة قول صاحب التّعريفات: « العقل جوهرٌ مجرّد عن المادّة في ذاته ». وليس هذا وحسب، بل وأنَّ العقل مُقارنٌ للنّفس في فعله. وأنَّ القوّة العاقلة مغايرةً للنّفس النّاطقة.

وما دام العالم (بنفليد) قد أثبت أيضاً استقلال إرادة الإنسان وحرّيتها، يكون في واقع الأمر قد اتّفق مع تعريف صاحب التّعريفات بأنَّ الفاعل هو النّفس وأنَّ العقل بمثابة الآلة بين يدي نفس هذا الإنسان الذي يتصرَّف بإرادةٍ واستقلاليّة. وبذلك نكون قد أثبتنا بأسلوب علميّ مصداقيّة تعريف (صاحب التّعريفات) الذي عَرَّفَ به (العقل) قبل عدّة قرون من الزّمان تعريفاً أثبت العلم الحديث مصداقيّته.

الفصل الثّاني:

صلة العقل بدماغ الإنسان

وبعد أنْ اطّلعنا على ما عَرَّفَ به علماؤنا الأقدمون (العقل)، وكيف أنَّ العلم الحديث قد أثبت مصداقيّة ما كانوا قد عَرَّفوه به وهو:

أوّلاً ـ أنَّ العقل وإرادة الإنسان لا موقع لهما في دماغ الإنسان.

ثانياً ـ وأنَّ العقل ما هو بكيانٍ مادّي، بل هو جوهر يختلف في حقيقته عن جسم الإنسان.

ثالثاً ـ وأنَّ العقل خالدٌ خلود النّفس البشريّة. فلا يفنى العقل بفناء جسد الإنسان بعد موت صاحبه.

وما دام التّعريف الذي عَرَّف به علمائنا الأقدمون جوهرة (العقل) قد جاء مطابقاً لما توصَّل إليه العلم الحديث. فهنا يطرح علينا سؤالٌ نفسه وهذا السّؤال هو: ما دام العقل لا موقع له في دماغ الإنسان فما هي حقيقة صلة

العقل بدماغ الإنسان الموجود في جمجمته؟ وكيف تنتقل المعلومات التي تجمعها حواس الإنسان إلى هذا الدّماغ ومنه إلى عقل الإنسان الذي هو أشبه بحاسب إلكترونيٍّ ضخم عديم المثال؟ فالمطلوب من جانبنا أنْ تأتي إجابتنا عن هذا السّؤال إجابةً علميّة مقنعة ومقترنة بالتّجارب العلميّة أيضاً. وليس أنْ نجيب بقيل وقال.

وقبل أنْ أجيب عن هذا السّؤال بالمواصفات المطلوبة أرى أنْ أُحدِّث القارئ عن الدّماغ نفسه لأعطيه فكرةً تشريحيّةً عنه تُعينه في مجال إجابتي عن السّؤال المطلوب. فاعلم - يا عزيزي القارئ - أنَّ تجارب العلماء وأبحاثهم العلميّة ساعدتهم على رسم خرائط لقشرة الدّماغ، وتُبيِّن تلك الخرائط مواقع ووظائف كُلِّ منطقةٍ من مناطق الدّماغ. والمدهش في الأمر أنَّه تبيَّن لهم أنَّ ثلاثة أرباع قشرة الدّماغ ليست مختصّةً بأيّة وظيفةٍ مُحدّدةٍ، لكنَّها عُرفت بمناطق تداعي الأفكار. وبمقارنة قشرة دماغ الإنسان مع قشرة دماغ الحيوانات الفقاريّة الأخرى فقد تبيَّن للعلماء أنَّ قشرة هذه الفقاريّات تخلو من هذه المساحة القشريّة المذكورة. الأمر الذي يُفسِّر لماذا كانت الفقاريّات غريزيّة الطّباع على حين أنَّ الإنسان ليس كذلك، بل هو إراديٌّ ومقرّرٌ لما يُقدم عليه. فأنواع سلوك الثّدييات ثابتٌ ومُقرَّرٌ يتكرَّر دون تبديل فيه بسبب أنَّ مواقع تصرُّفاته ثابتة ومقرّرةٌ سلفاً ومُحدَّدة تتكرَّر دون تبديل وكأنَّها مطبوعة في دماغ هذا الحيوان الثّدييّ.

فهذا بما يتعلَّق بقشرة الدّماغ. أمّا ما يتعلَّق بالدّماغ نفسه فقد تبيَّن أنَّه مُؤلَّفٌ من فِصّيْن متشابهَيْن. وقد كشفت الأبحاث الحديثة وجود قُدرات

مختلفة تتمركز في كُلٍّ واحد من فصَّيْ الدّماغ. ففصّ الدّماغ الأيسر لوحظ بأنَّه مركز اللّغة ويتولّى إلى جانب ذلك إنتاج الأفكار وتحليلها. على حين أنَّ الفصّ الأيمن تتمركز فيه علاقات المكان وأبعاده وأشكال الأشياء والتّفكير الحدسيّ. والتّعرُّف على الوجوه وترتيب وضع الأجسام في المكان. ومن عجائب الدّماغ أنَّ الفصّ الأيمن منه يتحكَّم بالنّصف الأيسر من جسم الإنسان. على حين أنَّ الفصّ الأيسر من الدّماغ يتحكَّم بالنّصف الأيمن من جسم الإنسان. وتوضيحاً لهذه الحقيقة فإنْ أُصيبت قشرة الفصّ الأيمن بأذى فإنَّ العين اليسرى هي التي تفقد البصر، وليس العين اليمنى. فهناك - والحال هذه - مصالبةٌ عكسيّة غريبة توجد في فعّاليّات فصَّيْ الدّماغ. ثمّ إنَّه تبيَّن أنَّ الذين يستعملون يدهم اليمنى بكفاءة أكبر من اليد اليسرى فإنَّ ذلك يرجع إلى أنَّ فصّ دماغهم الأيسر هو النّصف الأقوى من دماغهم.

فمن خلال هذا التّلخيص يتبيَّن بوضوح أنَّ المهمّات والوظائف التي يقوم بها دماغ الإنسان يقوم بها نصفا الدّماغ بطرقٍ مختلفة. ويتعاونان أيضاً أحياناً عن طريق اتِّصالات كهربيّة عصبيّة تسير في الألياف العصبيّة التي ثبت أنَّ عددها يبلغ مائتي مليون ليف عصبيّ. وهنا سؤال وهو هل أنَّ وظائف الدّماغ تبدأ عملها منذ الولادة؟ فلقد تبيَّن أنَّها تبدأ عملها في السّنة الثّانية من العمر في أغلب الأحيان، وتكاد تكتمل في سنّ العاشرة من عمر هذا المولود في أغلب الأحيان أيضاً.

وبعد أنْ أعطيتُ القارئ فكرةً غير مُفصَّلة عن دماغ الإنسان أعود للكلام عن صلة العقل بهذا الدّماغ الإنساني. فاعلم يا عزيزي القارئ بأنه

قد ثبت علمياً بأنَّ الدّماغ هو خادمٌ أمينٌ للعقل. ذلك أنَّ الدّماغ يقوم بجمع المعلومات التي تصله عن طريق حواس جسم الإنسان ويُسلِّمها لهذا العقل على صورتها التي وصلته بطريق الحواس التي أوصلتها إليه. وهذه حقيقة بالإمكان التّعبير عنها بالقول إنَّ المعلومات التي تحصل عليها حواس الجسم تنتقل إلى الدّماغ فيقدِّمها هذا الدّماغ لقمةً سائغة للعقل؛ أي أنَّ عمليّة جمع المعلومات وتوصيلها تنتهي عند العتبة التي يستلم عقل الإنسان من الدّماغ هذه المعلومات. ومن ثمّ يقوم العقل الذي هو في حقيقته جوهرٌ غير مادّي وخارج جسم الإنسان والذي شبَّهناه بحاسب إلكترونيّ ضخم يستلم تلك المعلومات التي حملها إليه دماغ الإنسان.

الحواس الخمس تنقل المعلومات إلى الدَماغ:

وهنا يواجهنا بعد الذي بيَّنّاه سؤالان: **فالسّؤال الأوّل** هو كيف تنقل حواس الإنسان المعلومات إلى الدّماغ؟ **والسّؤال الثّاني** هو ما دور دماغ الإنسان الذي يقوم به بعد تسلُّمه المعلومات التي حملها إليه دماغ الإنسان؟ فهل يوصل دماغ هذا الإنسان هذه المعلومات بكاملها إلى عقل الإنسان وتُصورٍّ الشّيء على حقيقته أم أنَّ الدّماغ يُطوِّرها ويحاكمها، ومن ثمّ يوصلها إلى العقل؟ أم أنَّ العقل نفسه يُطوِّر هذه المعلومات ويعطيها صورتها الحقيقيّة؟

وللإجابة عن السّؤال الأوّل أقول: إنَّ جسد الإنسان قد جهَّزه خالقه بالحواس الخمس التي هي السّمع والبصر والشّمّ واللّمس والذّائقة. فهذه الحواس هي وسيلة اتِّصال الإنسان بعالمه الخارج عنه. وهي وسيلة نقل

المعلومات التي تحصل عليها الحواس إلى دماغ الإنسان عن طريق الألياف العصبيّة . فإنْ حذفنا أيّة حاسّة من تلك الحواس الخمس نكون قد حذفنا عن دماغ الإنسان تلك المعلومات التي تنقلها تلك الحاسّة المحذوفة إليه .

وعلى سبيل المثال فإنَّ الأعمى يحرمه عمى بصره عن مشاهدة الأشكال وألوانها وأبعادها . أمّا الإنسان الذي تكون حاسّة بصره سليمة فإنّه إذا نظر إلى شجرة مُعرَّضة لأشعّة الشّمس مثلاً فإنَّ أشعّة الشّمس المنعكسة من الشّجرة تدخل في بؤبؤ عينَيْه وتمرّ من خلال عدسة العين صورة مقلوبةً ومُصغَّرةً للشّجرة التي ينظر إليها من كانت عيناه سليمتَيْن ، فتنطبع هذه الصّورة المقلوبة على شبكيّة عينَيْه ، وحينذاك تُحدث تلك الصّورة تغيُّرات فيزيائيّة وكيميائيّة في شبكيّة العين وعلى شاكلة آلة التّصوير التي تُحدث تلك التّغيُّرات الفيزيائية والكيميائية لتلك الصّور في الفيلم الموجود في آلة التّصوير . فماذا يحدث عندئذ لشبكيّة العين بعد أنْ تنطبع عليها صورة الشّجرة التي أمامها ؟

ألا إنه قد تبيَّن لعلماء تشريح جسم الإنسان أنَّ شبكيّة عين الإنسان عبارة عن صفحة مستقبلات شديدة التّراصّ وقد قدَّرها العلماء بعشرة ملايين مخروط ومائة مليون قضيب . فإذا لامستها أشعّة الشّمس وهي حاملةً صورة شجرة على سبيل المثال تبدأ شبكيّة العين بإرسال نبضات إلى العصب البصريّ تحمل إليه ما وصلها من مُؤثِّرات ، وهذا العصب البصريّ ينقلها بدوره إلى موقع الإبصار في قشرة الدّماغ . فالعصب البصريّ إذن هو ناقل المعلومات من شبكيّة العين إلى موقع الإبصار في دماغ الإنسان .

ثمّ إنَّ من المعلوم أنَّ لكُلٍّ شيء من أشياء هذا العالم المادّي شكله وأبعاده وألوانه. فإنْ استطعنا تفسير تأثير شكل الشّيء وأبعاده في شبكيّة العين تفسيراً فيزيائيّاً وكيماويّاً فإنَّه يعسر علينا تفسير نقل ألوان هذا الشّيء بنفس الطّريقة. ذلك أنَّ من المعروف تشريحيّاً أنَّ لون دماغ الإنسان رماديّ. فإنْ نقل العصب البصريّ إليه لون الشّجرة الأخضر فينبغي حينئذٍ أنْ يتبدَّل لون الدّماغ في موقع الإبصار إلى لونٍ أخضر. لكنّ التّجارب العلميّة التي أجراها عالم الأحياء (جون إكلس) الذي سبق لنا أنْ ذكرناه لم تُثبت حدوث مثل هذا التّبدُّل اللّوني في موقع قشرة الدّماغ. كذلك فإنَّ العصب البصريّ إذا نقل الضّوء إلى موقع الإبصار في الدّماغ فكان من المعقول أنْ يضيء موقع الإبصار في الدّماغ. لكنَّ تجارب العالم المذكور قد أثبتت أنَّ دماغ الإنسان وهو مغلق معزولٌ تماماً عن أيّ ضوء كان لا يُؤثِّر عليه وصول ضوء الأشياء ولا يلمع ولا يضيء. وهنا كان من العسير على العلم الحديث تفسير كيفيّة وصول معلومات الألوان والأبعاد والأشكال إلى الدّماغ وبتفسيرٍ فيزيائيٍّ وكيميائيّ. لذلك نلاحظ عالم الأحياء (جون إكلس) يعترف بهذه الحقيقة ويقول هنا:

" أ لسنا كالأطفال عند نظرتنا إلى تجاربنا المتعلّقة بالحياة الواعية فلا نتريَّث إلاّ نادراً للتّفكير في أعجوبة التّجربة الواعية أو تقديرها؟ فالبصر مثلاً يعطينا في كُلٍّ لحظة صورة ثلاثيّة الأبعاد للعالم الخارج عنّا، ويُركِّب هذا البصر في تلك الصّور من سمات اللمعان والتّلوُّن ما لا وجود له إلاّ في الإبصار النّاشئ عن نشاط دماغ الإنسان. ونحن ندرك بالطّبع النّظائر المادّية

المتولّدة من الإدراك الحسّي كحدّة المصدر المشعّ والطّول الموجّه للإشعاع المنبعث عن الأشياء التي ننظر إليها. ومع ذلك؛ فإنّ عمليّات الإدراك نفسها تنشأ بطريقة مجهولة تماماً عن المعلومات المنقولة بالرّموز من شبكيّة عين الإنسان إلى دماغ الإنسان." .

والمهمُّ في الأمر هو أنْ نعرف بأنّ عمليّة الإدراك الحسّي تتكوّن من مراحل:

فالمرحلة الأولى تبدأ من وجود المُنبِّه الأصلي لعضو الحسّ وهو أيّ شيءٍ من الأشياء.

وإنّ **المرحلة الثّانية** تُشكّل النّبضات العصبيّة التي تحدث في شبكيّة العين والتي تشبه رموز (مورس) في البرقيّات وهي النّبضات المُرسَلة إلى الدّماغ.

أمّا **المرحلة الثّالثة** التي يصعب تفسيرها بشكلٍ علميٍّ فهي نمط النّشاط العصبيّ المُثار في دماغ الإنسان بفعل ما وصله من نبضات عصبيّة نقلتها إليه الأعصاب. وإنّ الشّيء الذي لاحظه العالم (إكلس) هو اختلاف هذه المعلومات المنقولة بطريق الرّموز إلى الدّماغ عن عمليّة الحفز التي نشأت عنه. كما أنّ النّمط المكاني والزّماني للنّشاط العصبيّ الذي حمل تلك المعلومات إلى قشرة الدّماغ هو الآخر مختلف كُلّ الاختلاف عن حفزه الأصليّ. أي أنّ دماغ الإنسان يوصل المعلومات المرموزة التي وصلته ناقصةً إلى دماغ الإنسان، وأنّها تُجري في دماغ الإنسان ترجمة مزدوجة تُضخِّم

من أعجوبة الإدراك الحسّي. وقد استنتج العالم المذكور من خلال ذلك بأنَّ عالم الإحساس لا يكون مقصوراً على نبضات الشّبكيّة التي بالإمكان تفسيرها فيزيائيّاً وكيميائيّاً. وهكذا تشكّلت النّظرة العلميّة الحديثة التي اختلفت عن نظرة علماء القرن التّاسع عشر السّابقة في هذا المجال. فبفرض وجود كتاب وصمغ وورق وحبرٍ للكتابة التي من دونها لا يوجد كتاب، فإنَّ تحليل الصّمغ والورق والحبر لا يكفينا لفهم ما تضمَّنه الكتاب من معلومات. إذ أنَّ مضمون الكتاب يتجاوز عالم الفيزياء والكيمياء الذي يتعلّق بالمادّة فقط. وبالإمكان تلخيص جميع ما ذكرناه بالقول إنَّ مخطّط الطّاقة الذي مرّ بتلك المراحل الثّلاثة لا يُفسِّر إدراكنا لما رأيناه سطوعاً واتّجاهاً وبُعداً ولوناً ولا كيفيّة تحوُّل الصّورة في قاع مقلة العين إلى الشّيء الذي نظرنا إليه ولا إدراكنا أنَّ هذا هو الشّيء نفسه الذي نظرنا إليه. فمخطّط الطّاقة المؤلّف من مراحل ثلاثة يوصل دماغ الإنسان إلى عتبة عمليّة الإدراك، لكنّه لا يُعطينا فيزيائياً وكيميائيّاً أيّة إشارة أخرى غير ما وصل الدّماغ من نبضات. وعليه؛ فإنَّ ما وصل الدّماغ لا يُشكّل الإحساس بعينه، فالمادّة وحدها ـ والحال هذه ـ تعجز عن تفسير الإدراك الحسّي. وقد استنتج عالم الأحياء (شرنغتون) الذي سبق لنا أنْ ذكرناه أنَّ هذه الحقيقة التي توصّلنا إليها تثبت وجود عنصرَيْن أساسيَّيْن:

<u>فالعنصر الأول</u>: ماديّ وهو هذا الجسم الماديّ الذي يتمتّع به هذا الإنسان.

والعنصر الثّاني: هو عقل الإنسان المستقلّ عن المادّة في ماهيّته وعلى حسب ما أثبتنا ذلك من قبل.

وعليه؛ فالذي ثبت علميّاً هو أنَّ ما يصل إلى الدّماغ من مُؤثِّرات يقوم هذا الدّماغ بجمعها، لكنّه لا يلعب دوراً ما في عمليّة تحويلها إلى الإحساس الأصليّ، بل يوصل تلك المعلومات إلى عتبة العقل ويُقدِّمها لعقل الإنسان بأمانة تامّة وحسب. وأنَّ عمليّة تحويلها إلى حقيقتها الأصليّة هي عمليّةٌ يقوم بها عقل الإنسان نفسه. فقد ثبت للعلم الحديث أنَّ الإدراك الحسّيّ الذي يُدركه عقل الإنسان بما يتعلّق بأيّ شيءٍ من الأشياء هو حقيقةٌ ثابتة. وأنَّ هذا الإدراك يسمو على المادّة فلا تكون ماهيّته ماديّة ولا يدخل أصلاً في خواص المادّة. وليس في مقدور المادّة أنْ تقوم بتفسيره. وهذه الحقيقة دفعت عالم الأحياء (شرنغتون) ليكتب ويقول:

" إنَّ احتمال كون وجودنا مُؤلّفاً من عنصرَيْن جوهريَّيْن هو في تصوُّري أصحّ من أنْ نقول بأنَّ وجودنا مُؤلّفٌ من عنصر واحدٍ هي المادّة. "

ومن خلال اعترافه بهذه الحقيقة يكون العالم (شرنغتون) قد نقض النّظريّة المادّية التي هيمنت على عقول علماء القرن التّاسع عشر في أوربّة. فهذا هو جواب السّؤال الأوّل المطروح، وننتقل منه للإجابة عن السّؤال الثّاني.

وقد كان السّؤال الثّاني يدور حول دور دماغ الإنسان في تحويل المعلومات التي يمدّه دماغ الإنسان بها حول شيءٍ من الأشياء وتصله على

شكل رموزٍ هي أشبه برموز (مورس) في مجال البرقيّات. فماذا يفعل عقل الإنسان ليصل من خلال ما وصله من معلومات مُرمَّزة إلى إدراكٍ حقيقيّ؟

وللإجابة عن هذا السّؤال ينبغي على القارئ أنْ يعلم بأنَّ الحواس الخمس ليست موجودةً وحدها في ميدان عمليّة الإدراك الحسّيّ. بل هناك عوامل أخرى تعملُ إلى جانب ما تقوم به حواس الإنسان من مهمّات: فهناك الذّاكرة، ومَلَكَة الخيال الدّاخليّة، والعواطف التي يحسّ بها الإنسان، ومَلَكَة التّفكير التي سُلِّحَ بها هذا الإنسان والإحساس الفنّي وغيرهم. فهذه جميعها عوامل مساعدة لعقل الإنسان وهي في خدمته عند قيامه بتحويل ما وصله من رموز المعلومات إلى إدراكٍ حقيقيّ للأشياء المادّيّة. وهذه الحقيقة تدفعنا لنتناول الكلام عن قوّة الذّاكرة على سبيل المثال.

فالذّاكرة ـ وكما هو معروف ـ لا تُعَدُّ أحد الحواس الخمس. وإنَّ عمليّة التّذكُّر هي عمليّة زمن حاضر، فإذا تقدَّم الإنسان في السّنّ تضعف عنده قوّة التّذكُّر هذه، ويعود يشكو من نسيانه للأشياء. هذا؛ وإنَّ الأشياء التي نتذكَّرها هي في الواقع ليست حاضرة، بل تكون ماضية زمنيّاً. ومع ذلك؛ فإنَّ تلك المعلومات الماضية تعود تضع نفسها تحت تصرّف العقل بواسطة قوّة الذّاكرة. حتّى إنَّ العقل يستعين بقوّة تداعي الأفكار أيضا ليُقوِّي الذّاكرة التي تُحضر له أموراً ماضية. وهكذا تكون قوّة الذّاكرة عاملاً مساعداً للعقل ليتمّ عمليّة الإدراك الحسّي لشيء من الأشياء.

ونتناول مَلَكَة الخيال الدّاخليّة على سبيل المثال أيضاً. فعندما تنقل حاسّة الأذن معلومة سمعتها وهي قول أحدٍ إنَّه يوجد في هذا المكان جبل من

ذهب أو يوجد فيل كبير، فإنَّ هذه المعلومة لا تكفي عقل الإنسان ليُدرك حقيقة ما سمعته أذنه وما وصلته من معلومات عن طريق الرّموز التي حملها دماغ الإنسان إليه. بل تتدخَّلُ هنا مَلَكَة الخيال، وتحشر نفسها في هذا الموضوع، وتساعد عقل الإنسان على تخيُّل جبل الذّهب وحجمه وأبعاده أو على تخيُّل الفيل وحجمه وأبعاده. الأمر الذي يثبت بأنَّ مَلَكَة التّخيُّل تختلف عن قوّة الذّاكرة. وقِسْ على ذلك عمل بقيّة الحواس الدّاخليّة عند الإنسان. فهذه الحواس الدّاخليّة جميعها تساعد عقل الإنسان بالإضافة إلى ما تسلَّمه العقل من الدّماغ من معلومات مرموزة، تساعد عقل الإنسان على إتمام عمليّة الإدراك الحسّيّة المطلوبة.

وليس هذا وحسب، بل إنَّ العقل يستعين بقوّة التّفكير ليتمكَّن من إدراك عِللِ وجود الأشياء أيضاً. وهي خاصّيّة لا تتمتَّع بها عقول بقيّة الكائنات الحيّة. فبأسلوب الملاحظة العلميّة نلاحظ بأنَّ النّباتات تنمو وتتحرَّك، لكنّها لا تدري إلى أين تمضي، لذلك نقوم نحن بمساعدة هذه النّبتة على الوقوف بطريقةٍ سليمة وعلى الصّورة التي نريد. كذلك فإنَّ الحيوانات تنمو وتتحرَّك بفعل ما فيها من غرائز، لكنّها لا تُدرك بحواسّها ما تقوم بفعله. فقد لوحظ بأنَّ شمس الرّبيع الدّافئة تجعل الغُدد النّخاميّة عند العصفور تُفرزُ بعض الهرمونات التي تُحرِّك فيه نشاط بناء عشّ بأسلوب معيّن. وقد أجرى العلماء تجارب على العصافير، فحقنوها بهرمون (الأستروجين) الأنثويّ، وبعد حقن العصفورة بها بدأت تشرع في بناء الأعشاش في غير أوانها. وعليه؛ فإنَّ الكائنات الحيّة غير الإنسان مبرمجة بمواد تدفعها لتتصرَّف على

حسب ما هو معهودٌ ومعروف. لكنّ الإنسان نفسه يملك قوّة الفكر؛ وهي قوّة حسّيةٌ تساعد عقله على التّعرُّف على عِلَلِ الأشياء وعلى حِكمها.

وعليه؛ فإنَّ إدراك ماهيّة الأشياء هي إحدى الوظائف التي يقوم بها عقل الإنسان. على حين أنَّ المعلومات التي تجمعها حواس الإنسان الخمس لا تُؤدِّي هذه الوظيفة. فالحواس تجمع معلومات مُجرَّدة، أمّا عمليّة ربط هذه المعلومات المتعلِّقة بماهيّة شيء من الأشياء، فيقوم بها عقل الإنسان بمساعدة ما يساعده على أداء تلك العمليّة من مَلَكَات خارجة عن الحواس الخمس. وهذه الحقيقة يعترف بها عالم الفيزياء الفلكيّة (وليم كوفمان) **William Kaufman** =5= فيقول ما نصّه:

" من المستحيل عمليّاً أنْ نتصوَّر متّصل الزّمان والمكان ذا الأبعاد الأربعة. فالمكان الرّباعيّ الأبعاد لا يستطيع أنْ يحسّ به أو يتخيَّله حتّى علماء الفيزياء والرّياضيّات، ولكنْ؛ يمكن فهمه. والعقل في مجال العلوم يسمو على قيود الخيال وهو حاسّة داخليّة. فالعقل البشريّ إذاً ليس مُتميِّزاً من الخيال فحسب، بل هو قدرة إدراك تفوقه بكثير. ثمّ إنَّ العقلَ، وليس الحواس هو الذي يصنع العلم؛ لأنَّه وحده يستطيع أنْ يستكشف ماهيّة الأشياء وعللها. والعقل الذي يُطلق العامّة عليه أحياناً اسم (الفَهْم) **Understanding** وهي تسميةٌ مناسبة، لأنَّ طبيعة الأشياء تكمن (**stands under**) تحت صفاتها الظّاهريّة التي تفهمها الحواس. والفَهْم يستطيع كذلك أنْ ينفذ إلى العلّة التي يرتكز عليها الأثر الذي تُدركه الحواس. ومن هنا فإنَّ تسميةَ الفَهْم مُشتقَّة من قدرة العقل على معرفة ماهيّة الأشياء وعللها. ".

فمن خلال قول هذا العالم تتَّضح عمليّة العقل بالاستعانة بالخيال وغيره من الحواس الدّاخليّة وليؤدِّي مهمّة إدراك الأشياء من حولنا. وإنَّ هذه الحقيقة تؤكِّد قول مؤلِّف معجم مقاييس اللّغة من أنَّ العقل يحبس صاحبه عن ذميم القول والفعل. ذلك لأنَّ الإنسان إنْ حاول إدراك كُلِّ ما يُعرض عليه من أشياء وأمور يصل إلى إدراكٍ حقيقيٍّ لهذه الأشياء والأمور المعروضة عليه، فيحبس نفسه حينئذٍ عن الأخذ بها عن علم أو يُقدم على الأخذ بها عن علمٍ أيضاً. أمّا إذا لم يقم هذا الإنسان بما يوصله إلى إدراكٍ حقيقيٍّ للأمور والأشياء التي من حوله ويمضي حياته بعقلٍ تقليديٍّ يُقلِّد فيه ما وجد آباءه يفعلونه ومن غير محاكمة ما ورثه عن آبائه ينطبق عليه حينئذ قول ربّه عزَّ وجلَّ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بمعنى أنَّهم مقلّدون تقليداً أعمى لا دخل للعقل فيما يُقلِّدونه من قريبٍ ولا بعيد. ويحرمون أنفسهم من بركة قوّة الإرادة والتّصميم التي تُساعدهم إنْ هم استعملوا عقولهم على الإقدام أو على الإحجام بعد وصولهم إلى إدراكٍ حقيقيٍّ للأمور وحقائق الأشياء. وبألفاظٍ أخرى فإنَّ الإنسان التّقليديّ تُسيِّره مواقع دماغه ولا يُسيِّره عقله. ولذلك صحّ قول اللّه تعالى فيهم أيضاً: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾. أي أنَّ الأنعام تسير في حياتها سيراً غريزيّاً، وفقاً لما انطبع في دماغها من مواقع تحرِّكها تحريكاً غريزيّاً. على حين أنَّ هؤلاء النّاس المقلِّدون تقليداً أعمى مع أنَّهم يتميَّزون عن الأنعام بجوهرة عقولهم المنعم بها عليهم فإنَّهم لا يستعملونها استعمالا علميّاً صحيحاً، وتُسيِّرهم مواقع أدمغتهم بدون هدى من عقولهم. ومن هنا فقد عَدَّهم خالقهم من هذه الجهة أضلّ من الأنعام يقيناً.

الفصل الثّالث:

صلة عقل الإنسان بكيانه النّفسيّ

وبعد أنْ أعطيتُ القارئ فكرةً لا هي مختصرةً ولا هي مُطوّلةً عمّا عَرَّف علماؤنا الأقدمون به عقل الإنسان ومطابقته مع مكتشفات العلم الحديث. وأعطيتُهُ فكرةً لا هي مختصرةً ولا هي مُطوّلة عن حواسه الخمس وعن تركيب دماغه وكيفيّة جمع هذه الحواس الخمس للمعلومات عن الأشياء الخارجة عن جسم الإنسان والكيفيّة التي توصل بها الحواس هذه المعلومات إلى دماغ الإنسان. وبعد أنْ بيَّنتُ للقارئ بأنَّ دماغه يُسلِّم كيانه العقليّ تلك المعلومات التي توصلها إليه الحواس مرموزة وبأمانة تامّة. وكيف يستعين هذا العقل بحواسّ داخليّة عدّدتها له ليمكِّنه ذلك من إعادة صياغة هذه المعلومات التي وصلته من الدّماغ مرموزة فيزيائيّاً وكيماويّاً، ولإتمام عمليّة إدراكه للأشياء إدراكاً صحيحاً. فقد كان عليّ أنْ أوضِّح للقارئ مركز العقل بالنّسبة لنفس الإنسان وحقيقة صلة عقل هذا الإنسان بكيانه النّفسيّ.

فاعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ ما زوّدتُـكَ بـه مـن معلومـات علميّـة حتـى اللّحظة فقد يدفع ليختلط عليك موضـوع عقلـك وكيـانك النّفسـيّ فتظـنّ أنَّ العقل والنّفـس شـيء واحـد، فـلا تعـود تُفـرِّق مـا بـين قـواك العقليّـة وقـواك النّفسيّة. ألا فاعلم يا عزيزي بأنَّ كيانك النّفسيّ مستقلٌّ عن كيانك العقلـيّ. وأنَّ كيانك العقليّ هو بمثابة مقود السيّارة للسيّارة نفسها، فالعقل هـو صمّـام أمانٍ لتحرّكات نفس الإنسان. فإنْ فَقَدَ هذا الإنسان عقله يصبح مجنوناً وبلا عقل، ويعود تُحركه قواه النّفسيّة بلا هـدى ولا رشـاد. وبإمكـان القـارئ أنْ يـزور مشـفى المجـانين ويتـأكّد مـن هـذه الحقيقـة التـي بيّنتُـها لـه والتـي تثبـت استقلاليّة كيانه العقليّ عن استقلاليّة كيانه النّفسيّ كما تثبت له صحّة تعريف القدماء للعقل وما أتبعه من شرح وبيان.

فكرة موجزة عن كيان الإنسان النّفسيّ:

أقول: إنَّ كلامـي عـن كيـان الإنسـان النّفسـيّ لـن أُعطيـه صبغـة النّقـل الجـامد الـذي تعـارف النّـاس عليـه حتّـى اليـوم، بـل سـأعطي القـارئ فكـرةً مختصرةً عن كيانه النّفسيّ بنفس الأسـلوب العلمـيّ الـذي سـلكتُهُ فـي بيـاني السّابق.

فاعلم يا قارئي الكريم أنّه قد ثبت لعلماء العلوم الحديثة أنَّ الإنسـان لا يتألّف من هذا الجسد المادّي وحده، بـل هـو عبـارة عـن جسـدٍ وروح. فـهذه الحقيقة أعلنها عالم الأعصـاب وجراحتـها (جـون بنفليـد) الـذي ذكرتُـهُ لـك سابقاً وفي كتابه (لُغز العقل) **The mystery of the mind**. فالعالم المذكور أعلن في كتابه المشار إليه وقال:

" ياله من أمرٍ مثيرٍ إذاً أنْ نكتشف أنَّ العالِم يستطيع بدوره أنْ يؤمن عن حقٍّ بوجود الرّوح . " .

كذلك فإنَّ هناك عالم آخر هو (سير جون إكلس) المتخصِّص في مبحث الأعصاب والذي كلَّمتُكَ عنه من قبل أيضاً ، فقد عَدَّ هذا العالم العقل والإرادة قوتَّيْن غير مادّيتَيْن وقال بالحرف الواحد :

" إنَّ العقل والإرادة غير مادّيَّيْن ولا تخضعان بالموت للتّحلُّل الذي يطرأ على الجسم والدّماغ كليهما " .

وقد قصد من قوله هذا أنَّ العلم أثبت بأنَّ قوّتي العقل والإرادة خالدان . فإذا أضفنا ما كان قد أعلنه العالم (جون بنفليد) وهو أنَّه ثبت له علميّاً بأنَّ الإنسان مؤلَّفٌ من جسدٍ وروح . إلى جانب ما صرَّح به العالم (سير جون إكلس) بأنَّ العقل والإرادة خالدان . يعود من واجبنا الكلام عن روح الإنسان التي هي كيانه النّفسيّ في اجتهادي الشّخصيّ ، الكلام عن كيان الإنسان النّفسيّ بنفس الأسلوب العلمي . لذلك سأنتقل بك يا عزيزي القارئ في هذا البحث خطوة إثر خطوة لتُدرك من نفسك حقيقة كيانك النّفسيّ الذي سمَّاه (بنفلد) روحاً .

فالخطوة الأولى أُذكِّرك فيها بتركيب الذّرّة المادّية التي بتَّ تؤمن وفق معطيات العلم الحديث أنَّها ليست كياناً جامداً كما ظنَّها الأقدمون . بل ثبت بصورة علميّة بأنَّ الذّرّة مؤلَّفة من (روحٍ وجسد) إنْ جاز لنا هذا التّعبير . فالذّرّة المادّية مؤلَّفة من كيان مادّي تُمثِّله نواة الذّرّة وكيان قوى تُمثِّله

الكهارب التي تدور من حول هذه النّواة. وقد اعتمدت التّجارب الذّرّية التي تصلنا أخبارها على تفجير قوى الذّرّة وهي حقيقة باتت معروفةً لجميع النّاس.

واستناداً إلى هذه الخطوة الأولى التي ذكرناها نخطو **خطوةً ثانيةً** فنقول إنَّه ما دام قد ثبت علمياً ودينيّاً بأنَّ هذا الإنسان مُركَّبٌ من ذرّات هذا التّراب الذي يغطّي سطح كوكبنا الأرضيّ. فاستناداً إلى هذه الحقيقة فإنَّ هذا الإنسان مؤلَّفٌ في حقيقته ممّا تألَّفت منه ذرّة التّراب أي أنَّه مؤلَّفٌ من هذا الجسد المادّيّ ومن قوى الذّرّة المادّية نفسها.

فالذّرّة المادّية موجودةٌ ضمن هذه الأبعاد السّتّ وهي: فوق وتحت وأمام وخلف ويمين ويسار. فلمّا انقلبت هذه الذّرّة المادّية إلى خليّةٍ حيّةٍ وتشكَّل منها كيان هذا الكائن الذي سمَّيناه إنساناً. فقد عاد هذا الإنسان مؤلَّفاً من جسدٍ وروح وكمثل الذّرّة التي نشأ منها من نواة وكهارب، فهذا هو حال نفس الإنسان الخالدة. وما دام هذا الإنسان يحيا في نفس الجوّ الذي وُجدت فيه ذرّة التّراب، وهي هذه الأبعاد السّتّ التي هي أمام وخلف وأعلى وأسفل ويمين ويسار. فإنَّ هذا الكائن الإنسان بات يعيش هو أيضاً في نفس هذا الجوّ المؤلَّف من هذه الأبعاد السّتّ التي ذكرناها. وإنَّ ما يحمله من كيانٍ روحيّ نفسيّ عاد يتحرَّك في نفس هذه المجالات المذكورة. فالإنسان يُقدمُ على شيء أو يحجم ويتأخَّر عن فعل هذا الشّيء. وهو يقفز في الهواء إلى الأعلى أو يستكين إلى الأرض التي تحته. أو هو يتحرَّك يمنةً كما يتحرَّك يسرة. وبذلك فإنَّ الإنسان في هذه الأحوال قد جسَّد الجوّ الذي تحيا فيه الذّرّة المادّية.

وأخطو بك يا عزيزي القارئ **خطوة ثالثة** فأدفعك لتتساءل عن الأسباب المحرّكة لهذا الإنسان في الاتّجاهات السّتّ التي ذكرناها. فإنْ أنت تحرَّيتَ نفسك بنفسك في هذا المجال تلاحظ وبصورةٍ عفويّة أنَّ بداخلك قوى تدفعك للتّحرُّك ضمن تلك الاتّجاهات. وأذكّرك ببعضٍ من هذه المحرّكات الدّاخليّة. فافرض يا قارئي العزيز أنّك اقتنعت بفائدة الرّياضة البدنيّة، فإنَّ هذه القناعة تدفعك بصورة مباشرةٍ للقيام بالرّياضة المطلوبة. فتتحرّك يدفعك الأمل بالحصول على الفائدة الصّحّيّة. وإنَّ هذه القناعة وتلك التّحرّكات قامت على ركيزتَيْن أساسيَّتَيْن: فالرّكيزة الأولى هي محاكمة موضوع فوائد الرّياضة وتشكيل قناعة وإيمان بفائدتها، وهذه عمليّةٌ عقليّة. والرّكيزة الثّانية هي هذه القوّة الدّاخليّة التي تملكها للإقدام على الرّياضة أو الإحجام عنها. فباجتماع هذه القوّة المحرّكة والقناعة العقليّة، تدخل يا صاحبي في زمرة الرّياضيين.

وافرض فرضيّةً ثانية وهو أنّك سمعت بأنَّ المسؤولين في دولتك دعوك للتّبرُّع لإغاثة منكوبين على سبيل المثال فماذا يحدث؟ إنّك بنفس أسلوب الملاحظة العلميّة تحاكم هذا الطّلب محاكمة عقليّة، فإنْ أنت اقتنعت بأهمّيته تلاحظ أنَّ نفسك تدفعك فتعزم على القيام بالتّبرُّع بمقدار استطاعتك في هذا المجال. أو أنّك لم تقتنع فتلاحظ بأنَّ نفسك تدفعك لتُحجم عن الاستجابة للتّبرُّع بالمال أو بغيره. وإنَّ قناعتك هذه أو عدم قناعتك ترتكز أيضاً إلى ركيزتَيْن أساسيَّتَيْن. فالرّكيزة الأولى هي تَشَكُّل هذه القناعة أو عدم

تَشَكُّلها. والرّكيزة الثّانية هي هذه القوّة الدّاخليّة التي ساعدتك على الإقدام أو على الإحجام.

فإنْ أنت قستَ هذَيْن المثالَيْن على جميع ما تملكه من قوى داخليّة محرّكة كالشّهوات والميول والشّجاعة أو الجبن والكرم أو البخل والحبّ أو البغض وغيرها من المحرّكات الباطنيّة. فإنَّك ستلاحظ بأنَّ كُلَّ محرِّكٍ من هذه المحرّكات يستند إلى محرّكَيْن أساسيَّيْن هما القناعة والإقدام أو الإحجام. وقس على ذلك بقيّة المحرّكات التي تدفعك للقفز أو لتستكين إلى الأرض أو إلى الفراش. وإنَّ هذه المحرّكات هي التي تدفعك لتصبح في بيئتك يمينيّ النّزعة أو يساري النّزعة. وعليه: فأنت يا عزيزي القارئ تعيش وتتحرّك ضمن هذه الأبعاد السّتّ، وتدفعك إلى التّحرّك هاتان الرّكيزتان الأساسيّتان المذكورتان. وكُلُّ ما عدا ذلك فهو من قبيل التّوابع ليس إلاّ.

وأنتقل بك **خطوة رابعة** لأقول لك: إنَّك إنْ أنت أدركتَ حقائق هذه الخطوات السّابقة تكون يا عزيزي قد أدركت في الوقت نفسه أنَّ كيانك النّفسي مؤلَّفٌ في حقيقته من مجموعة قوى تدفعك لتحيى في أطر هذه الاتّجاهات السّتّ التي ذكرناها وهي نفس الاتّجاهات السّت التي تدور الذّرّة التّرابيّة في فلكها. وأكون وبهذا الأسلوب العلميّ القائم على الملاحظة والتّجربة والاستنتاج قد دفعتك لتستنتج ما ذكرتُهُ لك من أنَّ النّفس البشريّة هي مجموعة قوى داخليّة كان منشؤها كونها قد نشأت خليّتها الحيّة من تراب. واعلم يا قارئي العزيز أنَّ هذه القوى الدّاخليّة التي تُمثِّل كيانك النّفسيّ الباطني هي التي استعمل لها كتاب اللّه العزيز ومحمّدٌ رسول اللّه ﷺ

اسم (الفطرة البشريّة). وإنَّ هذه الفطرة البشريّة هي التي تُعطي جسمك حيويّته ونشاطه، وهي عبارة عن مجموعة قوى، وعلى حسب ما كنتُ قد ذكرتُهُ لك. والقوة في منظور العلم الحديث لا تفنى، بل تتحوّل وهذه حقيقة يدركها علماء الكيمياء. لذلك لا تستغرب إذا أثبت العلم الحديث بأنَّ روح الإنسان أو نفسه أو فطرته لا تفنى بفناء جسد الإنسان، بل هي خالدة إلى أبد الآبدين.

وقد قدَّم القرآن الكريم للإنسان دليلاً على خلود نفسه أو روحه أو فطرته البشريّة وذلك في الآية 42 من سورة الزّمر التي قال اللّه تعالى فيها: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فلاحظ كيف أنَّ اللّه تعالى أنهى هذه الآية الكريمة بقوله (لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فهو تعالى قد حثّنا من خلال هاتَيْن الكلمتَيْن على التّفكير فيما تضمّنته هذه الآية الكريمة من حقيقة ثابتة. فما هي هذه الحقيقة المشار إليها؟ إنَّ اللّه تعالى لفت أنظارنا إلى حالنا اليوميّ الذي يتكرّرُ طوال حياتنا وهو أنّنا نستلقي آخر النّهار على فراشنا، وننام، وتتوالى علينا في منامنا الأحلام. فالآية الأولى التي تبدو للمتفكّرين من هذه الحال هي أنَّ هذا قانون قد سنَّه اللّه الخالق لتجديد قوى الإنسان. والآية الثّانية التي تبدو للمتفكّرين هي ما يراه النّائم في منامه. والآية الثّالثة التي تبدو للمتفكّرين هي دلالة ما يراه النّائم على استمراريّة قوى الإنسان وخلودها بعد موت جسده. فقد ثبت علميّاً أنَّ العقل لا ينام، بل يستمرّ في عمله في حالة النّوم. وعلى قدر ما يكون

الإنسان عاقلاً في حالة يقظته يكون كذلك في حالة نومه. فهذه جميعها علامات وآياتٌ دالّة على مبدع عظيم (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ) وإنَّه لا يدرك هذه العلامات وتلك الآيات إلا (لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أي إلاّ القوم الذين يستعملون أداة تفكيرهم في النّظر في جميع هذه الأمور التي أشرنا إليها آنفا.

وهنا قد تسألني يا عزيزي القارئ: وكيف شَكَّل كُلُّ ذلك دليل خلود نفس الإنسان؟ فأقول: لاحظْ معي إنْ كنتَ مثقّفاً بعلم الرّياضيّات كيف أنَّ حالة النّفس البشريّة ترتبط بجسدها بمعادلة عكسيّة. فعلى قدر ما يكون الإنسان متعباً منهكاً يرى في نومه أحلاماً واضحة. وعلى قدر ما يكون غير مُنهك تخفّ رؤاه. وإنَّ هذه المعادلة العكسيّة إذا استبدلت طرفها بالصّفر والذي تُمثِّله حالة الموت فإنَّ النّتيجة تكون وصول نفس هذا الإنسان إلى ما لا نهاية وتنطلق من عقالها الذي كانت مسجونة فيه، وهو السّجن الذي يُمثِّله هذا الجسد التّرابيّ. فهذه الحقيقة التي توصّلنا إليها من خلال هذه المعادلة الرّياضيّة العلميّة تُفسِّر لنا قول اللّه تعالى الوارد في هذه الآية آنفة الذّكر: ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾؛ أي أنَّ النّفس البشريّة التي قضى اللّه تعالى عليها أنْ تموت يُمسكها خالقها فلا تعود بعد موت صاحبها إلى هذا الجسد التّرابيّ بشكلٍ من الأشكال. وأمّا النّفس البشريّة التي لم يقضِ اللّه تعالى عليها أنْ تموت يعيدها إلى جسدها عند يقظة صاحبها من منامه. وعلى هذه الصّورة وبأسلوب التّفكير والتّبصُّر في مضمون هذه الآية الكريمة نكون قد توصّلنا إلى ما توصّل إليه العلم الحديث

وهو أنَّ النّفس البشريّة لا تفنى بفناء جسدها بعد موت صاحبها، بل تظلّ خالدة إلى أبد الآبدين لكونها كيانٌ مؤلَّفٌ من مجموعة قوى غير مادّية.

ولا أدعك يا عزيزي تنفصم عن عقيدتك الدِّينيّة من خلال هذه المحاكمات العقليّة وتلك الاستنتاجات التي أتت بها الحقائق العلميّة ومضمون الآية التي أوردناها آنفاً، بل أدلّك على الآية القرآنيّة التي اختزلت جميع ما نبَّهتُك إليه من حقائق ثابتة وهي الآية السّابعة من سورة الشّمس وما بعدها والتي قال اللّه تعالى فيها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. فلاحظ يا عزيزي كيف أنَّ ربّك قد استهلّ هذه الآيات الكريمة بواو القسم. علماً بأنَّ اللّه تعالى إذا أقسم فإنَّه يُقدِّم ما خلق وأبدع شهادةً حيّةً على مصداقيّة ما ادَّعاه. فاللّه تعالى أقسم هنا بالنّفس البشريّة وحال تسويتها على واقع إنسانيّتها المعروف. وعليه؛ فكأنَّ اللّهّ تعالى قد قال من خلال قَسَمه هذا وبألفاظٍ أخرى: إنَّني أبدعتُ هذه النّفس البشريّة من تركيبة ذرّة هذا التّراب، وقد منحتها هذه القوى التي تحرّكها بجميع هذه الاتّجاهات السّتّ التي تتحرّك ضمنها ذرّة التّراب. فهذا هو التّفسير العلميّ لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾. ولمّا كان هذا الإبداع هو بحاجة لموجِّهٍ قائدٍ لتلك التّحرّكات. فقد أبدع اللّه تعالى عقل الإنسان ليقوم بهذه المهمّة التي عَبَّرَ تعالى عنها بصياغة بلاغيّة واضحة المعالم وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. أي قد فاز ونجح كُلُّ إنسانٍ يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً علميّاً في جميع تصرّفاته التي تحرّكه باتِّجاهها قواه النّفسيّة. وقد خاب وخسر كُلّ مَنْ يهمل

عقله فلا يستعمله استعمالاً صحيحاً وعلمياً في جميع تصرُّفاته التي تحرّكه باتّجاهها قواه النّفسيّة. فهذه حقائق كُنّا قد توصّلنا إليها بأسلوبٍ علميٍّ وها أنَّ هذه الآيات القرآنيّة قد أثبتت مصداقيّة ما توصّلنا إليه أيضاً. ومن هنا يتبيَّن لك يا عزيزي القارئ بأنَّ الحقائق العلميّة والحقائق القرآنيّة وجهان لعملةٍ واحدة. فالحقائق العلميّة تساعد على فهم الحقائق القرآنيّة يقيناً.

اللُّحمة التي تجمع العقل والنَّفس:

وبعد أنْ أخذ القارئ فكرةً عن عقل الإنسان ومهمّته وعن النّفس البشريّة وتكوينها العلميّ فقد كان من المناسب أنْ أبيّن للقارئ حقيقة اللّحمة الكائنة ما بين العقل وما بين هذه النّفس البشريّة فأقول: ما دامت الفطرة البشريّة لا وعي لها لكونها مجرّد قوى حقيقيّة فعّالة. وما دامت هذه الفطرة البشريّة تحمل قوى متضادّة ولم تكن هذه القوى ذات اتّجاهٍ واحد. أي أنَّ هذه الفطرة على حين أنَّها تتضمّن قوّة الشّجاعة فإنَّها تتضمّن قوّة مضادّة وهي قوّة الجبن والخوف. وعلى حين أنَّ هذه الفطرة تتضمّن قوّة الحبّ فهي تتضمّن قوّةً مضادّة له هي قوّة البغض. وعلى حين تتضمّن قوّة الكرم فإنَّها تتضمّن قوّةً مضادّة له هي قوّة البخل. وعلى حين تتضمّن هذه الفطرة البشريّة قوّة الرّحمة التي تعني إيصال الخير فإنَّها تتضمّن قوّة الظّلم وإيصال الشّرّ. وقس على ذلك بقيّة ما تتَّصف به الفطرة البشريّة من صفاتٍ تُمثّل ما تتضمّنه من قوى ذاتيّة. وهذه الحقيقة تعني بألفاظٍ أخرى أنَّ الفطرة البشريّة مؤلّفة من قوى متوازنة ومتضادّة في الوقت نفسه ومجرّدةٍ عن الوعي كما ذكرتُ سابقاً، وهنا بيت القصيد. فكيف أعطى الخالق هذه النّفس البشريّة

قوّة الوعي المطلوب والمحتاجة إليه ليُمكِّنها من استعمال قواها؟ وكالسّيّارة تصلح للاستعمال ولنقل الإنسان وأمتعته من مكان إلى مكان، لكنَّها لا تملك الوعي لتأدية هذه المهمّة. لذلك فقد أوجد الذين اخترعوا هذه السّيّارة لها مقوداً يُوجِّهها ويقودها على الدّروب التي تُؤدِّي إلى المكان الذي بإمكانها أنْ توصل ما أراد صاحبها أنْ توصله إليه من أشخاصٍ ومتاع.

فهذا المقود الذي زوَّد المخترعون به السّيّارة التي أبدعوها هو بمثابة العقل الذي زوَّد الخالق به النّفس البشريّة. وإنَّ قيام سائق السّيّارة بتوجيهها للوصول إلى غايتها هو بمثابة العامل الفكريّ عند هذا الإنسان. فبالفكر الذي هو آلة الوعي يحاكم الإنسان شيئاً ويُصمّمُ بنتيجة ذلك الإقدام على فعل هذا الشّيء أو الإحجام عن فعله. وبعد هذه المحاكمة التي أجراها والتّصميم الذي عزم عليه يقوم العقل بحبس هذا الإنسان عن ذميم القول الذي عزم أنْ يقوله وعن ذميم عمل المنكر الذي صمم أنْ يُقدِمَ عليه. وعلى هذه الصّورة نكون قد أخذنا بمعنى كلمة (العقل) وعلى حسب ما عَرَّفها به أجدادنا اللّغويّون وصَدَّقه في ذلك العلم الحديث. إلى جانب تعرُّضنا إلى ذكر الفكر وما يقوم به من محاكمات. وبهذه المناسبة كان من واجبنا إعطاء القارئ الكريم فكرةً واضحةً عن الفكر ومهمّة محاكمته للأمور وعن علاقته بعقل الإنسان.

الفصل الرّابع:

توضيح علاقة الفكر بالعقل

ألا فاعلم يا قارئي العزيز أنَّ وعي الإنسان لا يتحقَّق بواسطة عقل الإنسان وحده، بل يتحقَّق بمساعدة فكر الإنسان الذي يُنمِّي وعيه وإدراكه. وإنَّ هذه الحقيقة تتطلَّب من جانبنا فَهْمَ دلالة كلمة (فِكر). فقد ورد في معجم (مقاييس اللّغة): الفاء والكاف والرّاء تردّد القلب في الشّيء حيث يُقال: تفكّرَ إذا رَدَّدَ قلبه معتبراً. وورد في (محيط المحيط): فكَرَ وفكَّر في الشّيء أعمل نظره في هذا الشّيء وتأمّله. فالفكر تردُّد القلب بالنّظر والتّدبُّر في شيء من الأشياء بقصد طلب المعاني. وقيل هو ترتيب أمورٍ معلومةٍ للتّأدية إلى مجهول. أو إلى ترتيب أمورٍ في الذّهن يُتوصّلُ بها إلى مطلوب قد يكون علماً أو قد يكون ظنّاً. وقال في الكلّيات: الفكر حركة النّفس نحو المبادي والرّجوع عنها إلى المطالب. وقوّة الفكر عند الأطبّاء هي قوّةٌ تُدرَكُ بها المعاني الجزئيّة كصداقة زيد وعداوة عمرو، ومركزها البطن الأوسط من بطون الدّماغ بدليل أنَّ الإنسان إذا افتكر في أمرٍ ما ينصب رأسه مستوياً بخلاف ما إذا أراد أنْ يتخيّل شيئاً من صور المحسوسات فإنَّه يُطرقُ إلى

الأرض، وإذا أراد أنْ يتذكَّر شيئاً ممّا سبق وجوده في ذهنه يميل برأسه إلى الوراء، وبذلك استدلَّ هؤلاء على أنَّ قوّة التّخيُّل في مقدّم الدّماغ. وقوّة الذّكر في مؤخّره. وقوّة الفكر في الوسط. ويقال: لي في هذا الأمر فكر؛ أي لي في هذا الأمر رويّةٌ ونظر. كما يُقال: ما لي فيه فَكرٌ وفِكرٌ: أي مالي به من حاجة.

وبالإمكان تلخيص هذه الأقوال المعجميّة من خلال مثال، وهو أنَّ الإنسان إذا نظر إلى شجرة ما فماذا يحدث لدى هذا النّاظر إلى الشّجرة؟ فالذي يحدث هو أنَّ حواس الإنسان الخمس تكون قد جمعت المعلومات عن هذه الشّجرة: أطوالها وأحجامها وألوانها ونقلتها إلى الدّماغ بنبضاتٍ مرموزة هي من قبيل التّفاعلات الفيزيائيّة والكيميائيّة. فإذا تجمّعت هذه المعلومات المرموزة في الدّماغ يُقدِّمها للقوّة العاقلة عند الإنسان؛ أي يُقدِّمها إلى عقله الذي هو جوهرٌ غير مادّي كما سبق لنا أنْ توصّلنا إليه. فيقوم دماغ الإنسان بمحاولة وعي ما تُمثِّله تلك المعلومات التي وصلته كمعلومات مرموزة عن طريق الحواس الجسمانيّة. فماذا يعمل العقل للوصول إلى وعي المعلومة الأصليّة على حقيقتها؟ إنَّ العقل يستعين حينئذٍ بمساعدة الحواس الدّاخليّة التي سبق لنا أنْ تكلَّمنا عنها وضربنا عليها الأمثال. بالإضافة إلى أنَّ العقل يستعين أيضاً في تلك اللّحظات بالقوّة المفكِّرة لديه تلك القوّة التي أبدعها الخالق لتساعد العقل على وعي ما وصله من معلومات، وليتصرَّف صاحب هذا العقل وفق ما وعاه عقله فيحبس نفسه عن فعل شيء أو يُطلق لها العنان لفعله. أي أنَّ عقل هذا الإنسان ما إنْ يتسلَّم معلومات الدّماغ

المرموزة إلاّ ويبدأ بالتّفكُّر في أمرها وبتدبُّرها بقصد الفصل في حقيقتها. فهي كانت معلومات تكشف عن شيءٍ مجهولٍ عند العقل. فهي قد تكون معلومات ظنّيّة وقد تكون علماً. وهذه الحقيقة هي التي عَبَّرَ عنها صاحب الكلّيات فقال: إنَّ عمليّة الفكر هذه تُمثِّل حركة نفس الإنسان نحو تجميع المبادئ الأوّليّة التي تجمعها الحواس والرّجوع عنها بعد القيام بعمليّة التّفكُّر إلى المطالب التي طالب عقل الإنسان بوعيها والإحاطة بعلمها ومعرفتها. فهذه هي خلاصة ما أوردتُهُ للقارئ من معلومات أوردها أصحاب المعاجم حول كلمة الفكر وعمله.

وعلى هذه الصّورة بتَّ تدرك يا عزيزي القارئ بأنَّ وعي الإنسان يرتبط بصورة مباشرة بفكره وبصورةٍ غير مباشرة بعقله. فالمولود البشر يلد وهو يحمل دماغاً مُركَّباً على الصّورة التّشريحيّة التي سبق لنا أنْ تكلَّمنا عنها في حينه. وبذلك يملك دماغ مولود البشر ما لا يملكه دماغ مواليد بقيّة الكائنات الحيّة الغريزيّة لكون دماغ هذا المولود البشر مُزوَّداً بآلة الفكر، لذلك كان بإمكانه أنْ يفكِّر في موضوع كُلِّ شيءٍ يصادفه، فيحاكمه، ويتولّد عن تلك المحاكمة وعي ما حاكمه بما يتعلّق بالشّيء الذي صادفه. لذلك تلاحظ كيف أنَّ وعي المولود البشر يبدأ ينمو على حين أنَّ وعي المولود من بقيّة الكائنات الحيّة يقف عند حدود تصرّفاته الغريزيّة المطبوعة في دماغه لكون مواليد الحيوانات محرومة من آلة التّفكير ومن محاكمة الأشياء، فإن فكّر الحيوان فيظلّ تفكيره يدور في دائرة كُلِّ تصرّفٍ غريزي. أمّا المولود البشر فكلّما نما وعيه تكتمل معها تجهيزات دماغه وتميل تصرّفاته حينذاك لتصبح تصرّفاتِ إنسان عاقل.

فالعقلُ إذاً يكتمل عمله على قدر استعمال صاحبه لآلة التّفكير وعلى قدرِ محاكمته للأمور. أمّا الإنسان الذي لا يُفكّر في كُلّ شيء يعرُض له ولا يحاكمه محاكمةً قائمةً على منهجيّةٍ وأصول علميّة ويقلّد سواه تقليداً أعمى فيما يفعله، فإنَّ عمل عقل هذا المقلّد يجمد عند حدٍّ معيّنٍ فلا يعود ينمو وعيه للأمور التي تُطرح عليه أو يصادفها في حياته. من هنا يعود يبرز الفرق ما بين تصرّفات إنسانٍ عاقلٍ وما بين تصرّفات إنسانٍ يهملُ استعمال فكره وعقله وعوامله المساعدة له التي تساعده على وعي ما حوله وعياً نابعاً من حقيقة وواقع الأشياء التي هي في الطّبيعة.

فإنْ أنت عُدت إلى تجارب العلماء في هذا الشّأن تلاحظ كيف أنَّهم يحاولون الاستعانة بفكرهم ليعقلوا حقائق ما أجروا حوله من تجارب ولمعرفة حقيقته؛ حيث يقول عالم الفيزياء (كارل فون فايتز ساكر) Carl Von Weizsacker =6= ما ترجمته:

"إنَّ حرّية المرء عند قيامه بتجربة شرطٌ من شروط التّجربة. فأنا لا أستطيع أنْ أُجري التّجارب إلا حين لا يكون فيها فعلي وتفكيري محكومَيْن بالظّروف والحوافز والعادات، بل بحرّية اختياري."

فقد وضّح هذا العالم من خلال قوله هذا بأنَّ تجارب العلماء ترتبط بحرّية فعلهم وتفكيرهم، ولم يقل أنَّها ترتبط بحرّية فعلهم وعقلهم؛ لأنَّ العقل يستعين بالفكر أصلاً. فعمليّة التّفكير هي الأصل في عمليّة التّعقُّل.

فهذه الحقيقة التي أشار إليها هذا العالم الذي أوردنا قوله هذا هي ضرورة التّفكير بحرّيةٍ تامّة غير مقيّدةٍ بالظّروف والحوافز والعادات وقد نبَّهنا

إلى هذه الحقيقة كتاب الله العزيز بصورةٍ غير مباشرة حين قال الله تعالى في الآيات 11 وما بعدها من سورة المدّثّر :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ .

فقد لفت الله تعالى أنظارنا من خلال هذه الآيات الكريمة إلى مخاطر إهمال الإنسان استعمال قوّة الفكر عنده ونهاه عن الاتّصاف بصفة التّقليد الأعمى في تصرّفاته اليوميّة . وقد دلّت على هذه الحقيقة قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ فلاحظ يا عزيزي القارئ هذا التّسلسل في سرد الوقائع الذي يمرّ من خلالها الإنسان المقلّد الكافر بما أنزل الله تعالى لصالحه . فاللّه تعالى سرد تلك الوقائع بترتيب واقعيٍّ : فكّرَ . . قدّرَ . . نظرَ . . عبس وبسر . . أدبر واستكبر . أي أنَّ الإنسان يفكّر ، ثمّ يقدّر ، ثم يتّخذ القرار . فإن كان مهملاً عادة التّفكير في كُلِّ شيء من الأشياء ومقلّداً تقليداً أعمى في تصرّفاته فإنَّ عقل هذا المقلّد يتعطّل عن العمل ويقف نموّه فلا يعود باستطاعته تقدير الأمور على حقيقتها . ويعود مذموماً فيما يفكّر فيه ويقدّر (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) وهذه صيغة ذمّ . ولاحظ كيف أخّر اللّه تعالى قوله : ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ . فحرف (ثمّ) يفيد التّرتيب . بمعنى أنَّ عقل هذا الإنسان المقلّد إذا ترك

التّفكير ومحاكمة الأمور التي تواجهه يعجز يبتعد عن معرفة حقـائق الأشياء ولا يعود يتبيَّن حقائقها.

وأقدّم للقـارئ الكريـم مثـالاً آخـر لإثبـات مصداقيّـة مـا نبَّهتُـهُ إليـه ووضحتُهُ له آنفاً وهذا المثال تضمّنه قول اللّه عزَّ وجلَّ في الآية 46 من سـورة (سبأ) التي قال تعالى فيها:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ - قف - مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

فليلاحظ القارئ إشارة الوقف الواردة بعد قوله تعالى (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا). إذ إنَّ من خصوصيّـات هـذا القـرآن المجيـد أنّـه حـين يـورد إشـارة الوقـف فإنَّه يوردها ليدفع القارئ ليتوقّف عن التّلاوة ويتبصّر في دلالة ما حملته جملة ما قبل إشارة الوقف من دلالات هامّة. فمـا هـو هـذا الشّـيء الـهامّ الـوارد قبـل إشـارة الوقـف فـي هـذه الآيـة الكريمـة؟ وقـد وضّـح تعـالى ذلـك وقـال (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) فهذا الشّيء هو ضـرورة التّفكّـر فـي كُـلِّ مـا يصادفـه الإنسـان فـي حياته. بمعنى أنَّه سبحانه وتعالى قد دفع هـؤلاء الكفّـار ليتفكّـروا فـي أحـوال رسوله الكريم، وذلك بـدَل أنْ يقلّـد بعضـهم بعضـاً ويحكمـوا علـى رسـوله الكريم بالجنون. وهذا ما دفع اللّه - عزَّ وجلَّ - ليقول بعد إشارة الوقـف هـذه (مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ). والمعنـى أنَّكـم يـا مَـنْ كفـرتم برسـالة الإسـلام التـي جاءكم بها رسولنا الكريم إذا حـاولتُمْ استعمال قـوّة التّفكـير التـي سلّحتُكُم بها، وقمتُمْ بعمليّة فكرٍ بسيطة وقارنتُمْ ما بين أحوال المجانين ومـا بـين أحـوال هذا الرّسـول فـإنَّكم ستخرجون بنتيجـة عمليّـة التّفكـير هـذه إلـى أنَّ أحـوال وصفات شخصيّة هذا الرّسول لا تتطابق مع أحوال وصفات المجانين الفاقدين

لعقولهم. فمن خلال هذا المثال يكون اللّه - عزَّ وجلَّ - قد اتّهم هؤلاء الكفّار بجمود عقولهم وبِبُعدهم عن استعمال قوّة التّفكير الممنوحة لهم والتي وجب أنْ تساعد عقولهم على إصدار الأحكام السّديدة. وكأنَّه تعالى قد قال لهم بألفاظٍ أخرى: إنَّكم قومٌ يقلّد بعضكم بعضاً تقليداً أعمى لذلك تعطّلت عقولكم وجمدت، فلم تعُد تُعينكم على التّفكير ومحاكمة الأمور. فمن خلال هذا المثال يتبيَّن للقارئ الكريم بأنَّ القرآن الكريم يؤكّد ما ذكرتُهُ للقارئ من أنَّ الوعي الحقيقيّ يُولِّده التّفكير في كُلِّ شيء يُعرض على الإنسان وأنْ يكون استعمال قوّة التّفكير استعمالاً حرّاً مجرّداً عن قيود التّقاليد الموروثة وعلى حسب ما ذكره عالم الفيزياء (فون ساكر) آنف الذّكر.

وأضرب للقارئ الكريم مثالا ثالثاً من آيّات الذّكر الحكيم يؤكّد مصداقيّة جميع ما ذكرناه. فليراجع قول ربّه عزَّ وجلَّ الوارد في الآيات 175/ 176/ 177 من سورة الأعراف. فهو تعالى قال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾.

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ اللّه تعالى وبعد أنْ ضرب لنا مثلاً وبتصويرٍ فنّيٍّ رائع نابعٍ من واقع الحيوانات الثّديّة الغريزيّة الحيّة فقد أتى تعالى بعد ذلك بفاء الاستئناف وأمر رسوله وقال: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ موضّحاً الحكمة من إيراد كتاب اللّه العزيز لقصصِ الأوّلين، فاللّه تعالى قد شاء من وراء ذلك تقديم أمثلة من واقع حالهم الذي عاشوه ومن

تقلُّبات حياتهم لنعتبر بها ولنفهم ما انطوت عليه من حكم. ومنبِّهاً إيّانا من خلال هذا المثال الذي أورده بصيغة التّصوير الفنّي ينبِّهنا إلى الواقع الذي سنؤول إليه إنْ نحن أهملنا تفكيرنا وأعرضنا عن محاكمة كُلّ شيء يُعرض علينا. ومن ثمّ ذمّ اللّه تعالى كُلَّ إنسان لا يعتبر ولا يتّعظ بمضامين هذا القصصِ القرآنيّ وكيلاً يؤول حاله إلى نفس حال الذي شابه حال من دار حوله المثال المطروح في هذه الآية الكريمة وهنا قال: ﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعنى أنَّ أفراد القوم الذين كذّبوا بآياتنا لمجرّد تقليدهم بعضهم بعضا وبدون التّفكير فيما سمعوه من رسولنا ومن غير محاكمته فإنَّ حالهم سيسوء، لأنَّهم بفعلهم هذا سيبدأ دور انحطاطهم ويحرمون بذلك أنفسهم من الفوز والنّجاح في حياتهم. وقد أنهى اللّه تعالى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى (وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ) قال هذا من باب أنَّ الإنسان الذي يُهمل استعمال آلة التّفكير هذه التي تمنحه القدرة على محاكمة الأمور والوصول إلى الحقائق الثّابتة يعود يشابه الأنعام في تصرّفاته ويظلمُ نفسه ولا يزيد أو يؤخّر فيما أنزل اللّه تعالى من آياتٍ لصالح عباده الذين يلتزمون بوعظ ربّهم وبنُصحه وإرشاده.

فهذه أمثلةٌ قرآنيّة قدّمتُها للقارئ الكريم لإثبات مصداقيّة منزلة الفكر في نظر ربّه - عزَّ وجلَّ - وصلة القوّة المفكّرة بعقل الإنسان ومنزلته تجاهه كعاملٍ يساعد عقل الإنسان ويميِّزه عن بقيّة الحيوانات الثّدييّة. فهذه الأمثلة ضربتُهَا للقارئ بعد أنْ استدللتُ بقول عالم فيزياء مرموق. وما دام القارئ قد لاحظ إيرادي لكلمة الوعي مراراً وتكراراً فقد عاد من الواجب أنْ أوضّح له حقيقة الوعي وصلة الوعي بعقل الإنسان.

الفصل الخامس:

مفهوم الوعي وصلته بالعقل

فما هو مفهوم الوعي ؟ ورد في (معجم مقاييس اللّغة) الواو والعين والياء كلمةٌ تدلّ على ضمّ شيء. فأنت تقول وعيتُ العلم أعيه وعياً . وأوعيتُ المتاع في الوعاء أُوعيه . قال :

الخير يبقى وإنْ طال الزّمان به والشّرُّ أخبثُ ما أوعَيت من زاد

ويقولون : لا وَعيَ عن كذا . وورد في (محيط المحيط) وعى فلانٌ الشّيء والحديث يعيه وعياً حفظه وتدبَّره وقبله وجمعه وحواه . وفي سورة الانشقاق : ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ؛ أي أنَّ اللّه تعالى أعلم بما يضمرونه في قلوبهم من التّكذيب . وتقول وعى الزّاد والمتاع جعله في الوعاء وجمعه فيه . الواعي اسم فاعل والواعية مؤنّثه ، وإنَّ واعي اليتيم حافظه . والوعاء بالكسر الظّرف يوعى فيه الشّيء ، وسُمِّي بذلك لأنَّه يَجمعُ ما فيه من المتاع . ويُقال لصدر الرّجل وعاء علمه واعتقاده تشبيهاً بما ذكرت ، وجمعه أوعية . وتقول : ما لي عنه وَعيٌ أي مالي عنه بُدٌّ . الموعيّ اسم مفعول وهو مَوعيّ الرّسخ ؛ أي موثّقه .

فإنْ نحن اختصرنا مفهوم كلمة (الوعي) وحسبما أفادنا بـه مـا اسـتقيناه من هذين المعجمَيْن نصل إلـى أنَّ أصـل معنـى الوعـي هـو ضـمّ شـيءٍ وبـاقي الألفاظ مشتقّة منه. ولذلك فإننا نقول وعَينا ما قلتَ بمعنى فهمنا مـا قلتَـهُ لنـا وضمَمنا ما قلتَ إلى مـا حفظنـاه مـن أقـوالٍ ومعـاني سـابقة، وذلـك بعـد أنْ تدبّرناها وحفظناها، وقد أصبحت صدورنا أوعيةً للّذي وعظتَنا به ونصحتَ.

والآن وبعد أنْ أحطنا علماً بمفهوم كلمة (وعي) وأردنا بعد ذلك معرفة صلة الوعي بالعقل. نقول: اعلم يا عزيزي القارئ أنَّ الفكر يقـوم بمحاكمـة الأشياء كي تنقلب في أذهاننا علماً بها، ويكون هذا العلم إمّا علماً ظنّياً وإمّا علماً يقينيّاً ويتعلّق ذلك وفق الأسلوب الذي اخترناه في عمليّـة تحصيـل هـذا العلم. هذا وإنَّ حصيلة عمليّة الفكـر هـذه تُشـكِّل فـي حقيقـة الأمـر (وعيـاً) لشيءٍ من الأشياء. فإنْ تمّت عمليّـة الوعـي هـذه يقـوم عقـل الإنسـان حينئـذٍ بتخزيـن تلـك المعلومـة العلميّـة أو المعلومة الظنّيـة فـي وعائـه الـذي شـبّهناه بحاسوبٍ هائل الحجم والذي لا يماثله حاسوبٌ آخر من صنع البشر.

وتسألني هنا: لماذا يمتاز حاسوب عقل الإنسان عـن بقيّـة مـا نعرفـه مـن الحواسيب؟ فأجيب وأقول: يمتاز بذلك من باب أنَّ هذه المعلومة التي حصـل عليها عقل الإنسان بواسطة عمليّة الفكر وإيجاد الوعي اللازم تكـون عمليّـة التّخزين هذه مقترنةً بتخزين أشياء رافقت وجود الشّيء الـذي وعينـاه. ففـي مثال الشّجرة التي ضربناه مـن قَبْـلُ. فـأنت حـين نظـرتَ إلـى الشّـجرة تكـون عينكَ قد رأت في الوقت نفسه ما حول الشّجرة من أشياء رافقـت النّظـر إلـى الشّجرة. فيحتملُ أنْ كان فوق أغصان الشّجرة طيرٌ جميلٌ أو مرّ مـن جانبـها

حيوان من الحيوانات أو كان الجوّ وقتها يميل إلى البرودة الشّديدة وغير ذلك من الأشياء. فعندما يقوم عقل الإنسان بتخزين معلومة الشّجرة يُخزّنها مُرفقةً بمعلوماتٍ عن الأشياء التي وجدت ساعة الرّؤية من حولها. على حين أنَّ الحواسب الأرضيّة لا تفعل هذا الفعل الذي يفعله دماغ الإنسان عند تخزينه ما وعى من مواصفات أشياء. والآن فبفرض أنْ أراد المرء استرجاع معلومة الشّجرة التي نظر إليها وأراد تذكُّرها على حقيقتها، فإنْ كان قد انتبه حين تخزينها إلى ما رافقها من أشياء يعود من السّهل عليه استرجاع تلك المعلومة وذلك بمحاولته تذكُّر بعض ما رافقها من معلومات. أو أنَّه يطلب تلك المعلومة وينتظر مرور شيءٍ من تلك الأشياء أمام ناظرَيْه أو في ذهنه، وإذا به يلاحظ تداعي تلك المعلومة من نفسها من خزانة دماغه. فقوّة تداعي الأفكار التي لهذا الإنسان قد زوَّد اللّه تعالى عقل الإنسان بها لتأدية هذه المهمّة التي ذكرناها. لذلك أنصح عند محاولة تثبيت معلومة في الذّهن أنْ يسعى الإنسان لتثبيتها وهو يعي ما رافقها من أشياء.

ثمّ إنَّ عمليّة تذكُّر شيء من الأشياء هي أشبه بعمليّة الحصول من الحاسوب على معلومة مُخزَّنة فيه. وقد أثبتت تجارب العلماء أنَّ الذّاكرة تعتمد في عمليّة تذكُّرها للمعلومات التي اختزنها عقل الإنسان على منهجيّة تخزين تلك المعلومات. وإنَّ الذي لا يراعي تلك المنهجيّة يعود من العسير عليه استرجاع ما خزّنه الإنسان في دماغه من معلومات في يوم من الأيّام. وأنَّ تلك المنهجيّة المطلوبة لتخزين تلك المعلومات ترتكز على ثلاث دعائم هي:

الدّعامة الأولى تتمثّل في محاولة هذا الإنسان تنظيم المعلومات التي يريد هذا الإنسان تخزينها في عقله.

والدّعامة الثّانية لتخزين عقل الإنسان لمعلومة ما تتعلّق بعمليّة التّخزين نفسها. فعلى قدر ما يُحسن الإنسان تخزين معلوماته فبقدر ما يتذكّرها.

والدّعامة الثّالثة هي عمليّة استرجاع تلك المعلومات المخزّنة. ويستعمل في اللّغة الانكليزيّة لهذه الدّعائم مصطلح: (**Encoding - storage end retrieval**).

وأضرب للقارئ مثالاً يُفسِّر ويشرح له عمليّة التّخزين العشوائي غير المنظّم، فإنْ أنت قمتَ يا قارئي العزيز فأسمعتَ فريقاً من أصدقائك كلمات (قطّة شركة ياسمين قبّعة كلب بحيرة) على سبيل المثال، وطلبتَ من كُلّ واحدٍ من هؤلاء استرجاع تلك الكلمات التي سمعوها منك فستلاحظ تفاوت إمكانيّات هؤلاء في موضوع استرجاع تلك الكلمات وبنفس التّرتيب الذي أوردتها به. فمنهم مَنْ يُقدِّم كلمة على كلمة. ومنهم مَنْ ينسى كلمةً من تلك الكلمات، وهكذا. فما هو السّبب في تفاوت هؤلاء الأشخاص في موضوع تذكُّرهم لتلك الكلمات التي عدّدتَهَا على مسامعهم؟ ألا إنَّ السّببَ في هذا الاختلاف ينحصر في اختلافهم في منهجيّة تخزين تلك الكلمات في حاسوبهم الدّماغي. فهذه هي الحقيقة التي كشفت عنها التّجارب التي أجراها العلماء في هذا المجال.

فمن خلال جميع ما ذكرناه حول مفهوم الوعي وصلته بعقل الإنسان نُدرك أهمّية يا عزيزي أهمّية تنمية الإنسان لوعيه بصورة علميّة من جهة وبتخزين ما وعاه من معلومات بأسلوب منظّم من جهة ثانية. فالوعي يزداد بازدياد عمليّات التّفكير في كُلّ أمرٍ من الأمور وبمحاكمتها من جميع جوانبها، ولكنْ؛ بأسلوبٍ علميّ قائمٍ على الملاحظة والتّجربة والاستنتاج كي يعود وعيه متّصفاً بالصّفة العلميّة. فإنْ لم يفعل ذلك يعود وعيه ظنّياً لا يتّصف بالصّفة العلميّة. فإذا حاول الإنسان تخزين ما وعاه بصورة علميّة فمن واجبه أنْ يمرّر تلك المعلومة العلميّة بتلك المراحل الثّلاث التي ذكرها العلماء المعاصرون.

واعلم يا عزيزي القارئ أنّه من هنا يبدأ ظهور التّفاوت ما بين أفراد بني نوع الإنسان وما بين حال أمّة وأخرى. فالأفراد الذين اعتادوا أنْ يعوا ما حولهم بأسلوبٍ علميّ تختلف تصرّفاتهم عن تصرّفات غيرهم من الأفراد من البشر الذين اعتادوا تقليد بعضهم بعضاً من دون التّحقُّق من صحّة ما يفعلونه. فإذا ما واجه طرفٌ من هذَيْن الطّرفَيْن صوت مصلحٍ من المصلحين يُقْدم أفراد الطّرف الأوّل على وعي ما يطرحه هذا المفكّر المصلح ويستجيب بالتّالي لصوته ويؤمن بما أتى به من حقائق فتحها اللّه عزّ وجلّ عليه. لكون هذا الذي استجاب وآمن قد اعتاد من قَبْلُ على التّفكير بأسلوب علميّ في كُلّ شيء يصادفه وارتكز وعيه للأشياء إلى هذا النّوع من الوعي العلميّ. لكنّ الطّرف الآخر الذي خالف وكفر بالذي آتاه به المصلح المفكّر، فقد وقف هذا الموقف من صوت هذا المصلح لكونه ما اعتاد في حياته على التّفكير في

كُلِّ شيء، ولا اعتاد على محاكمة الأشياء بصورة علميّة، بل كان يتصرّف طوال يومه بتصرّف يُقلِّد فيه مَنْ كان حوله من النّاس. ولذلك صحّ أنْ نُسمِّي هذا الإنسان الكافر بهذا المصلح إنساناً تقليديّاً. بمعنى أنَّه يقلّدُ فيما يُقدِمُ عليه في تصرّفاته اليوميّة النّاس الذي ينتمي إليهم ويعيش وسطهم فلا يحاول التّفكير فيما يقدمون عليه ولا يحاكم تصرّفاتهم محاكمة علميّة، ولذلك يعود هذا إنساناً محدود الوعي وتكون خزانة عقله غير مَليئة بالمعلومات اليقينيّة التي كلما ازدادت أفادت صاحبها في عمليّة وعي كُلِّ شيء جَدَّ عليه.

هذه الظّاهرة، ظاهرة وجود هذَيْن النّوعَيْن من النّاس، هي السّببُ في تقدُّم الأمم وفي تخلُّفها وتأخُّرها. فتقدُّم الأمم مرتبط بوجود كثرةٍ من العقلاء أصحاب الوعي القائم على أُسُسٍ علميّة، ولا يرتبط تقدُّم الأمم بوجود كثرة من النّاس أصحاب وعيٍ قائمٍ على أُسُسٍ ظنّيّة. وإنَّ تأخّر الأمم وتخلُّفها سببه أنَّ أغلب أفراد الأمّة يكونون من المقلّدين الجهلاء أصحاب الوعي القائم على أُسُسٍ ظنّية. وهذه المعلومة التي أطلعتُكَ عليها يا عزيزي القارئ هي الأساس في تطوُّر تاريخ هذا الإنسان.

فمن المعلوم أنَّ الإنسان مرّ بعد ظهوره على سطح هذه المعمورة بأدوار كثيرة قبل أنْ يبدأ تاريخه الحديث وقد أطلق عليها المؤرّخون مصطلح (العصور الحجريّة) وقد أثبت علم المستحاثّات أنَّ تلك العصور الحجريّة التي مرّ بها إنسان ما قبل التّاريخ المعروف قد طالت إلى ملايين الأعوام. وقد كان السّببُ في ذلك ارتباط نموّ شبكة الدّماغ العصبيّة بالوعي الثّقافيّ عند

الإنسان. وقد أثبت علم المستحاثّات أنَّ حجم جمجمة الإنسان الذي عاش في عصوره الحجريّة كان يقارب(500) سنتيمتر مكعّب. على حين أنَّ الحجم الوسطيّ لجمجمة الإنسان المعاصر يقارب (1400) سنتيمتر مكعّب. وقد دفع هذا الاختلاف في حجم جماجم بشر العصور الحجريّة وحجم جماجم الإنسان المعاصر بعض العلماء للظّنّ أنَّ البشر القديم هو غير البشر الحديث. على حين تبيَّن لعلماء تشريح جسم هذا الإنسان أنَّ السّبب يعود إلى الفرق في الوعي لدى الطّرفَيْن المذكورَيْن من البشر. فعلماء التّشريح لا حظوا وجود ممرّاتٍ تتخلّلُ دماغ الإنسان. وأنَّ هذه الممرّات تشتمل على شبكة أعصابٍ ضخمة ارتبطت حركة تضخُّمها بازدياد ثقافة ووعي هذا الإنسان لِما حوله على مدى تاريخ وجوده على سطح هذه الكرة الأرضيّة. وقد حدثت هذه الظّاهرة لاختلاف طبيعة الإنسان عن طبيعة الكائنات الحيّة الغريزيّة. ذلك أنَّ من طبيعة الإنسان ميله لتحصيل العلم وإثراء ثقافته. هذه الطّبيعة التي بقدر ما يستفيد منها الإنسان بقدر ما ينمو وعيه لما حوله نمواً يُقوِّي فكره ويعين دماغه على عقل الأشياء وإمساك نفسه عن قول أو فعل كُلِّ شيءٍ مذموم.

والذي ثبت لعلماء التّشريح أيضاً أنَّ قشرة دماغ الإنسان تتّسع وتتعاظم مع تعاظم حجم دماغه نتيجةً لنموّ الوعي عنده. كما أثبتت تجارب العلماء أنَّه إنْ تمكَّن الجرّاح من قشط قشرة دماغ الإنسان فيعود هذا الإنسان المنزوعة قشرة دماغه يتصرّف بشكلٍ غريزيٍّ ولا يتصرّف بتصرّفٍ إنسانيّ.

فهذه الحقائق التي كشف عنها علم تشريح الدّماغ وضّحت للعلماء السّبب الذي أطال مدّة العصور الحجريّة التي مرّت على البشر بعد وجوده على سطح كوكبنا الأرضيّ. وهي الحقيقة التي تؤكّد على هذا الإنسان ألاّ يقدم على خطوةٍ إلاّ بعد تفكير علميّ وألاّ يتصرّف في حياته بتقليدِ غيره من النّاس ليس في الأمور الدّنيويّة فقط وإنَّما في الأمور العقائديّة أيضاً.

واستناداً إلى هذه الحقيقة العلميّة الآنفة الذّكر والتي كان قد وعاها المفكّرون الأوربيّون فقد ابتعد علماء الغرب عن كنائسهم في القرنَيْن الماضيَيْن بسبب أنَّ ازدياد ثقافتهم العلميّة وضّحت لهم نقائص العقائد الموروثة في كنائس بلادهم. ومن هنا أطلقوا شعار العلمانيّة.

أمّا الدّين الإسلاميّ الذي قامت تعاليمه على أُسُسٍ علميّةٍ والذين ما عاد أهله المعاصرون يعون الجوانب العلميّة لتعاليم دينهم بسببِ تخلّفهم في القرون الأخيرة. فمن المعلوم أنَّ تعاليم هذا الدّين الحنيف قد أخرجت من بين أتباعها في زمن بعثة المصطفى ﷺ رجالا ونساء عباقرةً ما عاد أحدٌ من النّاس يجهل ما تحقّق على أيديهم من رقيٍّ وتقدّمٍ حيّرَ المفكّرين في القرن العشرين حتّى دفعهم ليبحثوا بحثاً جاداً فيما أحدثه الإسلام في العالم من تطوّرات.

والمهمُّ في الأمر هو أنَّ نموّ عقل الإنسان مرتبطٌ ارتباطاً أساسياً بوعيه وثقافته. وقد كَتَبَ العالم الدّكتور (ألكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) والذي وضّح بأنّه لم يكن فيلسوفاً وإنَّما كان رجل علمٍ فقط، كَتَبَ العالم المذكور يقول:

" إنَّ تقرير شكل الوجه والفم والوجنتين والجفنين وخطوط الملامح يكون عادةً تابعاً لحالة العضلات المفرطحة التي تتحرّك في أنسجة الشّحم الموجودة تحت الجلد. وتتوقّف حالة هذه العضلات على حالة عقلنا. صحيحٌ أنَّ في استطاعة كُلِّ إنسان أنْ يعتق ويبرز على وجهه التّعبير الذي يختاره. ولكنّه لا يستطيع أنْ يحتفظ بهذا التّعبير بصفة دائمة. بيد أنَّ قَسمات وجهنا تُكيِّف نفسها بدون تعمُّد تبعاً لحالاتنا الشّعوريّة. وكلّما تقدَّمنا في السّنّ اشتدّت الصّلة بين تعبير الوجه وبين مشاعر الإنسان وشهواته وإيحاءاته. . وعليه فإنَّ جمال الشّباب مستمدٌّ من وجود انسجام طبيعيّ بين أسارير الوجه البشريّ. على حين أنَّ هذا نادر الحدوث عند الرّجال الطّاعنين في السّنّ ".

ألا إنَّ قول هذا العالم الحائز على جائزة نوبل وضَّح لنا علاقة وعي الإنسان بحالة عقله وشكله الخارجيّ. كما بيَّن لنا بأنَّ عضلات جلد هذا الإنسان المفلطحة والكائنة تحت جلد جسمه ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع حالة عقله. وعليه فإنَّ للوعي تأثيره اليقينيّ على تطوُّر دماغ الإنسان، وبالتّالي؛ يلقي هذا التّطوُّر في الدّماغ بآثاره على قسمات وجه الإنسان أيضاً وعلى جماله الطّبيعيّ وهذه حقيقةٌ يلاحظها الإنسان على بساط الواقع. فإنْ أحصى هذا الإنسان المسنّين من أصحاب العقول التّقليديّة وأحصى المسنّين من المفكّرين الواعين وعياً علميّاً يتبيَّن له مصداقيّة تنظير العالم المذكور. ويُوضِّح هذا الفارق بين وجوه هذين القسمَيْن من الناس. فَمَنْ شاء أن لا

يفقد حيويّته وتناسق قسمات وجهه وجسمه، فلينتهج هذا النّهج من الوعي القائم على أصولٍ علميّة.

فإنْ أنت عُدت يا عزيزي القارئ إلى كتاب اللّه العزيز واستقرأته في مجال مصداقيّة ما ذهب إليه الدّكتور (ألكسيس كاريل) الذي أوردنا أقواله آنفاً تبدو لك معالم هذه الحقيقة التي بيَّنها العالم المذكور واضحة المعالم فيه، فعُد يا عزيزي القارئ إلى الآيات 103/ 104 / 105 من سورة المائدة تلاحظ كيف أنَّ اللّه جلّ شأنه قال:

﴿ ما جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

فكلمة (بحيرة) تعني النّاقة مشقوقة الأذن بسببِ أنَّ أهل الجاهليّة كانوا اعتادوا القيام بشقِّ أذن النّاقة. و(السّائبة) هي النّاقة التي كانت إذا ولدت خمسه أو عشرة أبطن كلّها أناث تُسيّبُ، فلا تعود تُمنعُ من ماءٍ ولا من كلأٍ، ولا يشرب لبنها إلاّ ولدُها أو الضّيف حتّى يأتي أجلها وتموت. أمّا كلمة (وصيلة) فمن الوصيل؛ أي كثير العطاء، فالوصيلة هي النّاقة التي وصلت بين عشرة أبطن أو الشّاة كانت إذا وَلدت الأنثى كانت لهم وإنْ ولدت ذكَراً جعلوه لآلهتهم. وإنْ ولَدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذّكر لآلهتهم.. و(الحام) هو ما يولد عن طريقه عشرة بطون يتركونه،

فلا يعودون يركبونه ولا يستعملونه لشيء ولا يمنعونه الكلأ والماء. فاللّه عزّ وجلّ أورد ذكر ما تضمّنته الآية الأولى على سبيل ضرب الأمثلة من البيئة الجاهليّة التي وصل حال النّاس إليها من تخلُّفٍ وتقاليد لا أساس علميّ ودينيّ لها لابتعادهم عن هداية السّماء. وإنَّ اللّه تعالى ينفي أنْ يكون له يدٌ فيما تعارف النّاس عليه في الجاهليّة من تلك الأعراف وتلك التّقاليد التي لا تقوم على أساسٍ علميّ ولا على أساسٍ دينيّ. فاستدرك اللّه تعالى، فنسب إلى أهل الجاهليّة عمليّة الافتراء على خالقهم من خلال ما كانوا قد تعارفوا عليه. وأنهى جلّ شأنه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ موضّحاً بأنَّ حالهم كان قد أصبح كذلك لابتعاد أهل الجاهليّة عن استعمال عقولهم استعمالاً صحيحاً، وكانت غاية اللّه تعالى من لفت أنظار القارئ إلى ذلك من خلال ما أورده في هذه الآية الأولى هو أنَّ الأمّة العربيّة قد بلغت في زمن جاهليّتها وقبل ظهور الإسلام حالة تخلُّفٍ كبير، وعادت بالتّالي هي بحاجة إلى مَنْ يساعدها على النّهوض من كبوتها بسببِ ابتعاد أفرادها عن الوعي بأسلوب علميّ أو بأسلوب دينيّ. فالأمّة التي كان هذا حالُها كان من واجب أفرادها أنْ يفرحوا عندما يتهيّأ لهم مُنقذٌ ينقذهم من كبوتهم تلك التي كانوا عليها وجعلتهم تابعين لغيرهم من الأمم التي كانت موجودة من حولهم في ذاك الزّمان.

ولذلك نلاحظ كيف استهلّ اللّه تعالى الآية الثّانية بواو الحال فصوَّر الجاهليّين تصويراً فنّياً؛ وهو أنّهم كانوا مرضى غير شاعرين بحالة الانحطاط التي كانوا يُعانون منها. بدليل أنّه عندما قيل لهم تعالوا إلى اللّه وإلى

الرّسول ليعالج أحوالكم، ويصف لكم دواءً لمعالجتها، وليخرجكم من حالة الانحطاط التي تحيونها: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ففعل (حسبُنا) معناه كفانا ما وجدنا عليه آباءنا. وهل يجيبُ بهذه الإجابة إلاّ مَنْ كان غافلاً عمّا ابتُلي به من أمراضٍ اجتماعيّةٍ واقتصاديّة وعقائديّةٍ وغيرها؟ وبعد أنْ قدّم اللّه عزَّ وجلَّ هذا الدّليل الذي صوّر من خلاله حالة الكفّار الذين كان أكثرهم لا يعقلون. أكّد سوء حالهم، ولكنْ؛ بأسلوب الاستفهام الاستنكاري فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ بمعنى أنَّ الإنسان يكتفي باتّباع ما كان أباه عليه في حال أنَّ هذا الأب كان عالماً حقيقيّاً ومن المهتدين إلى السّبيل القويم. لكنَّ آباء أهل الجاهليّة هم الذين كانوا جهلاء لا يعقلون، وأورثوكم هذه العقائد البالية، وهذه التّقاليد التي ما أنزل اللّه تعالى بها من سلطان.

ومن ثمّ توجّه اللّه تعالى بخطابه نحو الذين آمنوا بعد أنْ وصف لهم حال الكفّار الجاهليين ووضّح كونهم (لا يعقلون) فخاطبهم وقال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾؛ أي أنّكم يا أيّها المؤمنون ما دمتم قد أحطتم علماً يقينيّاً بحال أمّتكم فمن واجبكم الآن أنْ تفكّروا في أحوالكم الشّخصيّة فتعالجونها حسب مُعطيات تعاليم هذا الدِّين الإسلاميّ الحنيف لتستفيدوا من هذا العلاج السّماويّ الموصوف لتصحيح أحوالكم، ولتصبحوا على لياقةٍ عظيمة من الوعي والعقل وأنتم متيقّنون بأنَّ هؤلاء الكفّار المتخلّفين لا يملكون ما يضرّونكم به في شيء. وعلى هذه الصّورة

فقد وضع اللّه تعالى حجر الأساس لبناء أمّةٍ جديدةٍ راقيةٍ تستحقّ البقاء ولتكون أسوةً للعالمين. وهذا هو ما حدث بعد ذلك وكما هو معروف.

فمن خلال معطيات هذه الآيات التي أطلعتك يا عزيزي القارئ على مضامينها الحقيقيّة فقد أثبتّ لك من خلالها مصداقيّة كون عقل الإنسان مرتبطاً بوعيه لما حوله وعياً علميّاً وليس وعياً ظنّيّاً تقليدياً. ولذلك يصحّ أنْ نقول بأنَّ العقل السّليم في الوعي السّليم القائم على أرضيّة علميّة. فبقدر ابتعاد الإنسان عن هذه المعادلة بقدر ما يبتعد عقله عن أنْ يكون سليماً. وهذه حقيقة نبَّهنا إليها كتاب اللّه العزيز ابتداء من الآية **19** وما بعدها من سورة فصّلت (السّجدة) فقد راح اللّه تعالى يصوّر لنا حال أعداء اللّه ممَّنْ اعتمدوا في تصرّفاتهم على الظّنون وليس على الحقائق العلميّة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

فمن خلال قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يكون اللّه عزَّ وجلَّ قد لفت نظرنا إلى أنَّ جسم الإنسان مفعمٌ بالأسرار العلميّة. ثمّ إنّه تعالى ومن خلال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يكون اللّه تعالى قد لفت نظرنا إلى أنَّ أسرار أجسادنا وأنفسنا قد دخلت في

عمليّة إبداع النّطفة المخلوق منها هذا الإنسان، وانطلاقاً من أنَّ هـذا الإنسـان سيصير بعد موته إلى اللّه خالقه لمحاسبته على تصرّفاته الغوغائيّة. وقـد لفـت تعالى أذهاننا إلى أنَّ الغفلة العلميّة عن هذه الحقيقة التي بيّنها آنفـاً تدفـع هـذا الإنسان ليعصي ربّه ظنّاً من جانب هذا الإنسان أنَّ اللّه الـذي خلقـه لا يحيـط علماً بما يُقدم هو عليه من أنواع العصيان لكونه يعصي فـي الخفـاء وهـو يظـنّ أنَّه لا يوجد هناك مَنْ يشهد أمام ربّه على عصيانه إيّاه.

فمن خلال هذه الآيات الكريمة يكون اللّه جلّ شأنه قد أعطانا فكرةً عن النّتائج المترتّبـة علـى وعـي الإنسـان القـائم علـى الظّـنّ والبعيـد عـن الحقـائق العلميّة. فعلـوم عصرنـا قـد كشـفت كثيـراً مـن خفايـا أسـرار جسـم الإنسـان وتركيبه النّفسيّ ممّا لا مجال للخوض فيـه فـي هـذا المجـال، وبإمكـان القـارئ مطالعة تلك الحقائق والأسرار فيما يتركه علماء العصر الحديث من تراث.

ونستخلص من ذلك كلّه بأنَّ أجـهزة العقـل التـي جـهّز اللّـه الخـالق بـها أفراد الجنس البشريّ هو واحد عند كلّ فرد من أفراده وأنَّ الخطأ الذي يرتكبه كلّ إنسان هو في عدم استعمال هذا الجهاز الذي سـمّيناه (العقـل) اسـتعمالاً صحيحاً ولائقاً. فالعقل وعلى حسب ما تبينّا من تعريفـه اللّغـويّ هـو جـهازٌ يحبس صاحبه عن ذميم القول والفعل. هذا إذا زوّدنا عقلنـا بوعـيٍ للأشـياء من حوله قائمٍ على أسسٍ علميّـة. أمـاّ فـي حالـة تزويـد عقولنـا بوعـيٍ ظنّـيٍ للأشياء من حولنـا فإننـا نتسـبّب فـي قعـود هـذا الجـهاز عـن عملـه الحقيقـيّ. وبالتّالي فلا يكون القصور، هو قصور عقل الإنسان، بل يكون القصور فـي تزويد هـذا العقـل بمعلومـاتٍ غير صحيحـةٍ لا تمـتّ إلـى حقيقتـها بصلـةٍ مـن

الصّلات. لذلك أضرب للقارئ الكريم مثالاً من واقع النّاس من حوله توضيحاً للذي ذكرته. فعلى سبيل المثال فقد ثبت بصورة علميّة قاطعة أنَّ التّدخين بلاءٌ على صاحبه ويتسبّبُ له بأخطر الأمراض. فلو كان المدخّن على علمٍ يقينيٍّ بهذه الحقيقة لكان قد امتنع عن التّدخين. لكنَّ هذا المدخّن لم يصل إلى درجة تخزين المعلومة المتعلّقة بالتّدخين بأسلوبٍ علميّ. فلو وصل هذا المدخّن في وعيه حدّ اليقين فيما يقدم عليه من تدخينٍ وظلّ يُدخّن يُعتبر في نظر العقلاء حينذاك منحرفاً ولا يُعدّ سويّاً.

وعليه فإنَّ سرّ تقدُّم الأممِ وتخلُّفها يكمن في مستوى وعي أفراد كلّ أمّة للأشياء من حولهم وعياً قائماً على الظّنون أو قائماً على حقائق الأشياء. فزعماء الأمّة الذين يريدون ترقية أحوال أممهم وجعلها في مصاف الأمم الرّاقية فمن واجبهم الأساسيّ أنْ يهتمّوا بتثقيف أفراد أممهم بثقافة علميّة مبرّأة من العلوم الظّنّيّة. فبالعلم وبإيجاد الوعي القائم على أسسٍ علميّة تتقدّم الأمم وتمتاز عن غيرها من الأمم التي لا تسلك هذا السّبيل المشار إليه. لذلك نقول: إنَّ المستقبل للعلم والعلماء.

الفصل السّادس:

عقل الإنسان وسيلة تطوير كيانه النّفسيّ

وبعد أنْ فرغنا من توضيح كيفيّة وصول المعلومات إلى عقل الإنسان وبيان ارتباطات عقل الإنسان بدماغه وبفكره وبوعيه وبكيانه النّفسيّ. نعود إلى تعريف صاحب التّعريفات الذي شبّه العقل وقال: « العقل آلةٌ للنّفس بمنزلة السّكّين بالنّسبة إلى القاطع ». فقد عاد من واجبنا أنْ نوضّح حقيقة ما ذهب إليه صاحب التّعريفات من هذا التّشبيه الذي شبّه به عقل الإنسان.

فاعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ هذا التّشبيه الذي أتى به صاحب التّعريفات هو تشبيهٌ بليغٌ نابع من حقائق الأشياء ومن واقعها. فأنت تذكر كيف أنَّي حين تكلّمتُ عن تكوين نفس هذا الإنسان انتهيتُ من ذلك للقول بأنَّ الكيان النّفسيّ هو عبارة عن مجموعة قوى متوازنة ومتضادّة في الوقت نفسه فهي بذلك تُمثِّل قانون صراع الأضداد المعروف لدى الفلاسفة والمفكّرين. ولكنّ كيان النّفس المشار إليه هو كيانٌ غير واعٍ وصالحٌ لتطويره. وقد منح اللّه تعالى هذا الكيان النّفسيّ قوّة العقل أداةً لتحصيل الوعي على

أساسٍ علميٍّ وللمساعدة على تطوير هذا الكيان النّفسيّ الذي يُشكّل مجموعة قوى متوازنة ومتضادةً وعلى حسب ما ذكرناه. ولذلك شبّه صاحب التّعريفات مهمّة عقل الإنسان بالسّكّين تستعملها بحريّة تامّة وتستعملها كيفما تشاء. وبذلك يكون صاحب التّعريفات قد استنتج تعريفه المذكور من معطيات قول اللّه جلّ شأنه والذي أوردناه سابقاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. فقول اللّه تعالى هنا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ يحمل في ضمنه حقيقة ما شبّه به صاحب التّعريفات عقل الإنسان تشبيهاً بليغاً. فبإمكان هذا الإنسان أنْ يكون عاقلاً، وبإمكانه أيضاً أنْ يكون جاهلاً وذلك من خلال استعماله لعقله ومن خلال إهماله لعقله أثناء تصرّفه اليوميّ. فكيف يكون عاقلاً؟ وكيف يكون جاهلاً؟

وقبل الإجابة عن هذا السّؤال ينبغي إلقاء الضّوء على ما تضمّنه قول اللّه تعالى (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا). فما معنى (ألهمها)؟ هذا الفعل (ألهم) اشتقّ من لهِم الشّيء ومعناه ابتلعه مرّة واحدة. أمّا قولك ألهم اللّه النّفس وكما هو واردٌ في هذه الآية الكريمة فمعناه أبلع اللّه هذه النّفس فجورها وتقواها أو جعلها تبلعُ فجورها وتقواها وعلى صورة يعود ما أبلعها إيّاه من التّقوى والفجور جزءً لا يُجتزأ من كيانها. أمّا إذا قلنا ألهم اللّه فلاناً من الناس خيراً فيعود معناه أنّه أوحى تعالى إليه شيئاً ولقّنه إيّاه ووفّقه له (محيط المحيط).

والآن وبعد أنْ أحطنا علماً بدلالة ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ لغويّاً يعود من واجبنا شرحه على ضوء بقيّة المعطيات القرآنيّة والعلميّة وعليه نسأل عن كيفيّة أبلع

اللّه النّفس فجورها وتقواها؟ فالجواب من الوجهة القرآنيّة هو أننا نعلم بأنَّ لكلّ شيء مخلوق في هذا العالم خاصيّته الذّاتيّة المخلوقة معه. وبالتّالي فإنَّ لكلّ خاطرة من خواطر هذا الإنسان خاصيّتها أيضاً، وعلى سبيل المثال فمن النّباتات ما يسبّب الإسهال ومنها ما يسبّب الإمساك وإنَّ ما تسبّبه هذه النّباتات يدخل فيما تحمله هذه النّباتات من خواص. كذلك فإنَّ لكلّ خاطرةٍ تخطر للإنسان، رجلاً كان أو امرأة تكون من خواص تلك الخاطرة أنَّها تتبع ميل الإنسان وهواه. فالإنسان الذي يميل ليصبح صالحاً تقيّاً تخطر له من جرّاء ميله هذا خواطر تكون خواطر صلاح وحكمة. وأمّا مَن كان فاسداً من النّاس كاللّصوص وقطّاع الطُّرُق والمجرمين الذين يميلون إلى الشّرّ والفساد فإذا خطرت لأحدهم خاطرة فإنَّها تخطر له خواطر أفكار شرّيرة من جرّاء ميله إلى الشّرّ. وهذه الحقيقة تعني بألفاظ أخرى أنَّ الإنسان كلّما ازداد صلاحاً وتقوى كلّما أصبحت خواطره خواطر صلاح ورحمة وكلّما عصى ربّه وازداد فساداً كلّما أصبحت خواطره خواطر شيطانيّة.

فكيف تتوارد هذه الخواطر في الحالتين كلتيهما؟ الجواب هو أنَّ تلك الخواطر تُشكِّل تداعيات أفكار كان قد اختزنها وعيه واحدة بعد واحدةٍ على مدى سنيّ حياته. أي تتوارد في ذهنه أساليب اتّبعها مَنْ عرفه ممَّنْ قام بعصيانٍ أو أقدم على عمل شرّ. ولذلك يلاحظ الآباء والأمّهات توجُّه أبنائهم إلى العنف في تعاملهم معهم بسبب ما يختزنونه من مشاهد أفلام رعب وعنف وسطو وسرقات على حين يلاحظ بأنَّ الأبناء الذين يُحرمون من مشاهدة مشاهد أفلام الرّعب والعنف والسّطو والسّرقات يُصانون من

شرور مشاهدها وأمراضها. ولهذا السّبب أوصى الرّسول الكريم ﷺ وقال (إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا) وليس في قوله هذا سماحٌ بالمعصية، بل الحثّ على الامتناع عن نشر أخبار ما يقع من مشاهد معاصي وجرائم في وسائل الإعلام، فهذا الذي بيّنّاه كلّه فقد بيّنّاه على صعيد التّعاليم القرآنيّة.

وأمّا من الوجهة العلميّة فقد سبق لنا أنْ قدّمنا مثال الشّجرة وكيف أنَّ الحواس الخمس تنقل معلوماتها مرمّزة ويقوم العقل بمساعدة الحواس الدّاخليّة الباطنة بتكميل ما وصل إليه من معلومات ناقصة إلى جانب فكّ طلاسم المعلومات المرموزة. فميل الإنسان إلى جهة فعل الشّرّ يحرّك فيه حواسه الباطنة، فتتداعى في ذهن هذا الإنسان جميع ما يحتاجه من وسائل تساعده على الإقدام بشكلٍ منظّمٍ على ما يريد الإقدام عليه من خطوات شرّيرة. ولزيادة الشّرح ألفتُ نظر القارئ إلى فئة الشّعراء من النّاس. فالشّاعر الهجّاء تتوارد في ذهنه أشعار هجوٍ مناسبة، وأمّا الشّاعر المدّاح فتتوارد في ذهنه أشعار مديح مستنداً في ذلك ممّا حفظه من أشعار مَنْ كان قبله من الشّعراء.

والمهمّ في الأمر هو أنَّ ما يجول في صدر الإنسان من أفكار ومن خواطر تكون مخلوقةً أصلاً من قبلُ ومخزونةً في صدره بطُرُق وعيه لما حوله من أشياء. وتبتلع نفس الإنسان الذي تميل نفسه إلى عمل الشّرّ ما كان مختزناً في ذهنه من أفكار وتصوّرات تساعده على ارتكاب ما يريد ارتكابه من أعمال شرّيرة. كما تبتلع نفس الإنسان الذي يميل إلى عمل الخير والصّلاح ما كان مختزناً في ذهنه من أفكار وتصوّراتٍ تساعده على عمل

الخير والصّلاح. وبألفاظ أخرى فإنَّ نفس الإنسان وفطرته تكون عند ولادتها طاهرة من كلّ دنس. إلاّ من تأثير ما ورثه من جينات ميول إلى فعل شيء من الأشياء. وإنَّ هذا المولود يُخزّن معلومات قد تميل به نحو الشّرّ أو تميل به نحو عمل الخير. فهو إمّا أنْ يزكّي نفسه ويطهّرها، وإمَّا أنَّه يدنّس نفسه ويدسّيها. فإلى هذه الحقائق التي أتيت على بيانها أشار قول ربّنا عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ علماً بأنَّ كلمة الفجور تعني هيئة حاصلة للنّفس بها يباشر المرء أموراً على خلاف الشّرع والمروءة وعلى حسب ما عرّفها به صاحب التّعريفات. واستناداً إلى هذه الحقائق التي أتينا على ذكرها فإنَّ اللّه تعالى لا يحاسب هذا الإنسان على ما يخطر له من خواطر لكون هذه الخواطر مخلوقة بشكلٍ فطريّ ومخزونة في خزانة عقله وتدخل في خواص ما يحمله من قوى نفسيّة. ولكنّ اللّه تعالى يحاسب على ما يقوم هذا الإنسان بتنفيذه من هذه الخواطر التي تجول في صدره رجلاً كان أو كان امرأة سواء أكانت هذه الأفعال سيئة أو كانت صالحة. فيجزي تعالى العبد على صالح أعماله ويُعاقبه على الفاسد من أعماله.

ومن رحمة اللّه الخالق المبدع على هذا الإنسان أنَّه أنزل هذه التّعاليم التي تضمّنها هذا القرآن العظيم إلى هذا الإنسان ليستعين بها على تطوير كيانه النّفسيّ تطويراً يمكّنه من تحقيق المقصد من خلقه في هذا العالم المادّي. وليعمل على تلك التّعاليم ولتُصبح خواطره النّفسيّة خواطر خير وصلاح حتّى إذا مات يدخلُ عالم البرزخ متطوّراً ومرضيّاً عنه ومتشرّفاً بمحبّة ربّه

وقربه من هذا الإله المبدع الذي خلقه لتحقيق هذا المقصد السّامي وهو الفوز بمحبّة ربّه وبقربه ورضوانه.

وهنا كان من واجبي أنْ أقوم بتوضيح ما ذكرتُ. لأساعد القارئ الكريم على استيعابه استيعاباً جيّداً لعلّه يسعى لتحقيق المقصد من حياته وكما ذكرت.

فأعود للإجابة عن السّؤال: كيف بإمكان الإنسان أنْ يصبح عاقلاً أو أنْ يصبح جاهلاً. فاعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ الكلام في هذه المجال قد يطول إلى حدّ أنَّه قد يتطلّب منّي أنْ أفرز له كتاباً مستقلاً. لكنْ؛ بالإمكان أيضاً أنْ أشرحه هنا على صورة لا يصل معها إلى الحدّ الذي ذكرناه. وأختار في هذا الجانب الثّاني فأقول: إنَّ كلّ مَنْ يتلو آيات هذا القرآن العظيم يلاحظ بأنَّ اللّه تعالى الذي أنزله قد وزّع فيه أسماءه الحسنى على مختلف الآيات القرآنيّة. فهذه خصوصيّة قرآنيّة، وهي أنَّ اللّه تعالى لا يورد عناصر الموضوع الواحد في سورةٍ واحدة، بل يوزّع عناصره على أكثر من سورة واحدة ليترك للباحث فرصة جمع تلك العناصر بأسلوبه الخاصّ وطرحها كموضوع مستقلّ. وإنَّ موضوع أسماء اللّه الحسنى هو أيضاً من هذا القبيل. فالسّؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا أطلع الخالق هذا الإنسان على أسمائه الحسنى؟ فالجواب عن هذا السّؤال لخّصه محمّد رسول اللّه ﷺ بقوله وهو يعظ صحابته (تخلّقوا بأخلاق اللّه) بمعنى أنَّ المقصد من حياتكم هو أنْ تتّصفوا بصفات خالقكم لتوجدوا مناسبة المجانسة التي يقتضيها الفوز بمحبّة اللّه وقربه ورضوانه. ومن منطلق وجود قانون طبيعيٍّ يعمل في هذا الكون

يوضّح هذه الحقيقة التي أشار إليه رسول اللّه ﷺ من خلال موعظته تلك. فالملاحظ في عالمنا هنا وهناك أنَّ الطّيور يعيش كلّ نوعٍ متجانس من أنواعها وحده، وأنَّ الحيوانات الثّديّة تعيش هي أيضاً كلّ نوعٍ من أنواعها جماعات منفردة. وقد تأهّل هذا الإنسان واستناداً للقانون الطّبيعيّ الذي ذكرناه أنْ يمضي حياته حياة اجتماعيّة من جهة، ويسعى كلّ مَنْ كان مؤمناً بوجود اللّه الخالق أنْ يتقرّب من خالقه ضمن سلّم درجات لا نهاية لها. وأنْ يبتعد الكافر بوجود الخالق عن خالقه بنفس تلك النّسبة. وهذه حقيقة أشارت إليها الآيات من سورة التّين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فالكلام في هذه الآيات الكريمة يدور حول النّفس البشريّة وأسلوب تطويرها لتحقيق المقصد من خلقها. بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فهذا الجسد من ترابٍ وإلى التّراب يعود، أمّا النّفس فتحظى بقرب ربّها أو تُردّ إلى أسفل سافلين إذا كفرت بربّها وابتعدت عن عمل الصّالحات.

وبألفاظٍ أخرى فإنَّ قوى النّفس المتوازنة والمتضادّة إذا استعمل صاحبها عقله استعمالاً صحيحاً فآمن وعمل الصّالحات وفق ما تقتضيه أسماء اللّه الحسنى تبدأ قوى نفسه بالتّطوّر لتتّصف بصفات ربّها عزَّ وجلَّ. ويأخذ هذا المؤمن يتخلّق بأخلاق ربّه ويتّصف بصفاته على قدر المستطاع. هذا وإنَّ المعلوم من أسماء اللّه الحسنى أنَّ من أسمائه تعالى اتّصافه بصفة (العليم) على سبيل المثال. فإذا حاول الإنسان أنْ يتّصف بهذه الصّفة فإنَّ هذا الأمر

يتطلّب من هذا الإنسان المؤمن أنْ يطلبَ العلم من المهدِ إلى اللحد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. كذلك فالمعلوم من أسماء اللّه الحسنى أنَّ من أسمائه (الحكيم) وإنَّ الاتّصاف بهذه الصّفة تتطلّب من هذا الإنسان المؤمن أنْ يطلب الحكمة في التّصرّف في شؤونه اليوميّة من المهد إلى اللحد أيضاً. كذلك فإنَّ من المعلوم أنَّ من أسماء اللّه الحسنى كونه متّصفاً بصفة (الرّحيم) وإنَّ اتّصاف الإنسان بهذه الصّفة تتطلّب من هذا الإنسان المؤمن أنْ يصبح رحيماً في كلّ ما يواجهه في يومه من شؤون وتعاملات. فلا يكون غليظاً في تصرّفاته ولا يكون شحّيحاً عند أدائه حقوق العاملين عنده، ولا أنْ يبخل على أحدٍ بعلمه، بل يكون على الدّوام متّصفاً بصفة العطف والرّأفة. وقس يا عزيزي القارئ على ما ذكرتُهْ عمليات الاتّصاف ببقيّة أسماء اللّه الحسنى. فإنْ سار الإنسان المؤمن على هذا الطّريق في حياته بهذه المنهجيّة وبتلك الأصول يفوز بمحبّة خالقه وبقربه منه وبرضوانه، ويحقّق بالتّالي في حياته الدّنيا المقصد من وجوده.

هذا وإنَّ كلّ باحثٍ يبحث في تعاليم هذا الدِّين الإسلاميّ الحنيف من هذا المنظار الذي وضعته من أجله بين يديه يصلُ في نهاية بحثه إلى النّتيجة التي أطلعته عليها وهي ضرورة اتّصاف الإنسان بأسماء اللّه الحسنى في هذا العالم الدّنيويّ، وبهذه الطّريقة يصبح إنساناً عاقلاً. وإنَّ كلّ ابتعاد من جانبه عن هذه المنهجيّة وعن تلك الأصول يُشكِّل عاملاً يُبعد هذا الإنسان عن خالقه، ويصبح هذا الإنسان بالتّالي جاهلاً وكأنَّه بذلك يقوم يقذف نفسه في جرفٍ عميق.

فانظر يا عزيزي القارئ بهذا المنظار إلى عقيدة التّوحيد الذي لخّصها الإسلام في كلمتين (لا إله إلاّ اللّه) فهي تعني لا محبوب في هذا الكون إلاّ اللّه، ومن باب أنَّ كلمة الإله اشتقّت من الوَله الذي يعني المحبّة. وانظر إلى الصّلاة التي لا تصحّ إلا بدعاء الفاتحة. فأنت تطلب فيها أنْ يجعلك ربّك من الذين أنعم عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين؛ أي أنْ يجعلك من محبيه في هذا العالم وفي العالم الذي يليه. وكمثلها الصّوم والزّكاة والحجّ الذي تطوف فيه حول بيت اللّه العتيق وأنت تلبّي وتقول (لبّيك ألهمّ لبّيك). فالعبادات والحال هذه تدور حول طلب الفوز بمحبّة اللّه وقربه ورضوانه. فإنْ أنت بحثت في التّنظيمات السّياسيّة بمختلف ألوانها وأنواعها فأنت مطالب بإطاعة اللّه في كلّ شيءٍ ومطالب وعلى مستوى ثانٍ بإطاعة رسول اللّه المبعوث لهدايتنا وبما لا يخالف إطاعة اللّه عزَّ وجلَّ. ومُطالَب وعلى مستوى ثالثٍ بإطاعة أولي الأمر ممَّن يكونون من رؤسائك السّياسيّين الذين تكون بيدهم زمام أمورك، وبما لا يخالف إطاعتك للّه ولرسوله. فهذه الحقيقة عبّر عنها قول اللّه تعالى في الآية 59 من سورة النّساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وقد ساوى اللّه تعالى بين الرّجل والمرأة في كلّ مطلبٍ طالبت تعاليم الإسلام به أتباعه المؤمنين على طريق السّعي للفوز بمحبّة اللّه تعالى وقربه ورضوانه، فهو تعالى قال يوضّح هذه الحقيقة في الآية 35 من سورة الأحزاب:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ

وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وعلى هذه الصّورة أكون قد اختصرتُ للقارئ المقصد من حياته وحسبما دلّت عليه تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف. فتعاليم الإسلام قامت على المحبّة، ولم تقم على أساس البطش والعنف، وتحت شعار الحاكميّة للّه عزَّ وجلَّ. فالذين ينادون بشعار الحاكميّة يفهمون الإسلام من منظارٍ سياسيٍّ وليس من منظارٍ روحيّ. فالإسلام اشتقّ اسمه من المسالمة ودعا إلى حرّية الرّأي والضّمير بعيداً عن أيّ إكراه من أيّ نوعٍ كان. وتقوم المحاسبة الأخرويّة على هذا الأساس، ولذلك ورد قول اللّه العزيز في الآية **256** من سورة البقرة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وإنّ هذه الحقيقة التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة دلّت عليها إشارة الوقف الواردة بعد قوله تعالى (لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ) فتدبّر.

المفهوم الحقيقي لجوهرة العقل:

واستناداً إلى تعريف كلمة عقل وعلى حسب ما عرّفها به علماء اللغة القدماء؛ هذا التّعريف الذي أيّدته معطيات العلم الحديث. وانطلاقاً ممّا تبيّنّاه من معرفةٍ حول صلة العقل بدماغ الإنسان وصلته بكيان الإنسان النّفسيّ وبما يتعلّق باللّحمة الكائنة ما بينهما. وبعد أنْ توضّحت لنا علاقة العقل بالفكر حتّى أصبح مفهوم الوعي بنتيجة ذلك عند الإنسان واضحاً كلّ الوضوح، وبعد أنْ تبيّنت بنتيجته أيضاً صلة الوعي بعقل الإنسان كما تبيّنت لنا أهمّية

العقل في مجال تطوير كيان الإنسان النّفسيّ وفطرته التي فطره اللّه تعالى عليها. فقد عاد من السّهل علينا أنْ نتوصّل إلى المفهوم الحقيقيّ لجوهرة العقل. فالعقل هذا الجهاز الذي تسمو حقيقته عن فهمنا وإدراكنا والذي ضمّنه اللّه الخالق من القدرات ما لم تُحط البشريّة علماً حتّى الآن إلاّ بجزء يسيرٍ منها، هو الجهاز الذي إنْ نحن عرفنا كيفيّة الاستفادة منه يلجمنا ذلك عن فعل كلّ ما يضرّنا ويُبعدنا عن كلّ ما يحول دوننا ودون معرفة خالقنا، ويساعدنا في الوقت نفسه على التّعامل مع هذا الإله القدّوس الذي صوّرنا على معطيات وجوده، وأعطانا القدرة على الاتّصاف بصفاته جلّ شأنه حتّى صحّ قول من قال بحقّ هذا الإنسان:

وتحسب أنّك جُرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر

وإنَّ هذا العقل هو كباقي المخلوقات يبدأ قوّةً في نطفة الإنسان الأمشاج حتى إنَّ الجنين إذا وَلدَ ينمو عقل الإنسان معه وينمو وعيه وفق معادلةٍ طرديّة بالاصطلاح الرّياضي. بمعنى أنَّه على قدر نموّ وعي الإنسان ينمو عقله ويبدأ يعمل بإحكامٍ وبفعاليّة أكثر من السّابق. وهذه حقيقة نتبيّن مصداقيّتها من خلال مراقبتنا للمولود الذي وُلد خالياً من أيّ وعيٍ لما حوله من أشياء. فإذا راقبنا هذا المولود بعد أشهرٍ من ولادته وبعد أنْ تبدأ حواسه الخمس تعمل ويبدأ هذا المولود برؤية وملاحظة ما حوله من أشياء. فإنْ نحن داومنا على مراقبة سلوك هذا المولود على مدى سني عمره نلاحظ أنَّه كلّما نما وعي هذا المولود كلّما نما عقله. فإنْ بلغ هذا الطّفل سنّ تحصيل التّعليم ينمو عقله على قدر ما يحصّل من علوم وعلى قدر ما تزداد معرفته بالأشياء من حوله وعلى

قدر ما يزوّده أهله من معلومات. فهذه المعادلة الطّرديّة التي أشرتُ إليها والتي تُمثِّل نسبة نموّ وعي الإنسان بنسبة ما بلغ عقله من نضوج واتّساع فلا تنقطع تعمل كلّما نما وعي هذا الشّاب وازداد. لذلك ترى الإنسان الذي يعترض أحياناً على تصرّفات هذا الشّاب يقول من جملة ما يقوله: إنَّ عقل هذا الشّاب ما يزال صغيراً ولم ينضج بما فيه الكفاية. وإنَّ هذه المعادلة تُفسِّر لنا لماذا يصبح بعض الأشخاص من العباقرة ولماذا يبقى البعض الآخر ساذجاً. وبهذه المناسبة فمن الضّروريّ أنْ نحيط علماً بمعنى كلمة (عبقريّ). فقد ورد في الكلّيات: العبقريّ كلّ جليلٍ فاخر من الرّجال والنّساء وغيرهم عند العرب فهو عبقريّ. وورد في (محيط المحيط): عبقر موضعٌ زعموا أنَّه كثير الجنّ، ونسبوا إليه كلّ شيء تعجّبوا من حذقه أو من جودة صنعه وقوّته. فقالوا عبقري والأنثى عبقريّة. وعليه فإنَّ مَنْ يُسمَّى عبقريّ في اللّغة العربيّة هو كلّ مَنْ بلغ في حذقه وجودة صنعه وفي قوّته حدّاً أقرب إلى السّيادة والكمال. وعليه فإنَّه يصحّ أنْ يصبح عبقريّاً كلّ إنسانٍ تتجاوز معرفته ووعيه أقرانه من النّاس ممَّنْ حوله من المثقّفين شرط ألاّ يكون من أصحاب العقول المقلّدة تقليداً أعمى.

وعلى كلّ حال فإنَّ المفهوم الحقيقي للعقل ينطلق ممّا انطلق منه تعريفه وهو أنَّ العقل كالسّكّين بالنّسبة لنفس الإنسان وهو جهازٌ حقيقته من جوهرٍ، وليس من مادّة ويعمل بطاقات تفوق حدّ الخيال. وهو أشبه بحاسوبٍ ضخمٍ ينبض بالحياة فهو يستعين بما ترسله إليه حواس الجسم الخمس من معلومات مرموزةٍ عن طريق دماغ الإنسان. كما يستعين بالحواس الباطنيّة التي يتمتّع بها الإنسان كالخيال والذّاكرة وتداعي الأفكار

والعواطف وغيرها لإعادة صياغة المعلومات المرموزة التي وصلته عن طريق الدّماغ. ويقوم العقل بإضافة استنتاجاته إلى تلك المعلومات التي وصلته والتي قد تخطئ وقد تصيب لارتباط ذلك بصحّة المعلومات التي وصلته. لذلك فإنَّ ما يقدّمه العقل من آراء تتراوح ما بين الظّنّ والحقيقة، أمّا عمل العقل على صعيد اكتشاف الحقائق العلميّة، فالعقل يعمل على صعيد الزّمن الماضي بمساعدة المخطوطات والآثار التي يعثر عليها الإنسان بما يتعلّق بكلّ شيء مضى زمنه. وأمّا عمل العقل على صعيد اكتشاف الحقائق العلميّة على صعيد زمنه الحاضر فهو يستعين بالملاحظة وبالتّجربة واستنتاج الحقائق من هذا الباب. وأمّا على صعيد الزّمن المستقبل فلا يوجد للعقل عاملٌ حقيقيّ يوصله إلى المعرفة اليقينيّة إلا الوحي السّماويّ.

وسأُخصِّص لبحث هذه العوامل المتعلّقة بالأزمنة الثّلاثة الماضي والحاضر والمستقبل باباً خاصّاً بها بعد الفراغ من بيان ما هو ضروريٌّ بيانه في هذا الباب الأوّل من هذا الكتاب بعون اللّه ومشيئته إنْ شاء اللّه تعالى. لكنْ؛ من المناسب أنْ أعطي القارئ فكرة ولو موجزة تساعده على الاحتفاظ بعقله سليماً. وهذا الموضوع يقتضي مني أنْ أحدّثه عن الوسيلة المادّية التي هي جسده والذي يستعين بحواسه للاتّصال بما حوله من أشياء وعن المواعظ التي قدّمها اللّه تعالى لهذا الإنسان في هذا المجال.

سلامة العقل مرتبطة بسلامة الجسد:

فإنْ وعى القارئ الكريم المقصد من وجوده في هذه الحياة الدّنيا، وسعى لتحقيقه وفق التّعاليم السّماويّة المنزلة فقد أوقعه ذلك تحت طائلة عدّة

من مسؤوليّات عظيمة، وليس تحت طائل مسؤوليّة واحدة في حياته الدّنيويّة. فالمسؤوليّة الأولى الكبرى انحصرت في الإحاطة علماً بجميع ما بيّنته للقارئ الكريم حتّى الآن. وأمّا المسؤوليّة الثّانية فقد انحصرت في ضرورة محافظة الإنسان على جسده سليماً معافى، وليساعد ذلك على السّعي وفق هذه البيّنات سالفة الذّكر لتحصيل المقصد من حياته الدّنيويّة، فإذا طالبتني يا عزيزي القارئ أنْ أزيدك شرحاً في هذا الصّدد فأقول: لابُدَّ أنَّك تذكر أنَّ حواس الجسد الخمس هي تلك الفروج التي تنقل إلى الدّماغ المعلومات المرموزة عن الأشياء التي تنظر إليها من حولك. ومن ثم يقدّم دماغك هذه المعلومات المرموزة إلى عقلك بأمانة تامّة. فهذه الحقيقة تتطلّب منك يا عزيزي القارئ أن تحافظ على حواسك الخمس سالمةً ما دمتَ حيّاً. وإنَّ كلّ تفريطٍ من جانبك بحقّ أيّة حاسّةٍ من حواس جسمك يؤثّر ذلك على عقلك بصورة سلبيّة، وبالتّالي يحدّ من وعيك للأشياء من حولك، ويحدّ من عملك على تعاليم ربّك التي تساعدك لتحقيق المقصد من وجودك في هذه الحياة الدّنيا.

وتذكَّر يا عزيزي القارئ أنّي كنتُ قد حدّثْتُكَ عن استعانة عقلك بحواسك الباطنيّة التي عددّتُهَا لك في حينه. تلك الحواس الباطنيّة التي تساعد عقلك على فَهْم المعلومات المرموزة وتحويلها إلى معلومات حقيقيّة عن الأشياء التي رأتها عيناك. وإنَّ هذه الحقيقة تتطلّب منك أنْ تحافظ على حواسك الباطنيّة هذه، فلا تدعها تضطرب أو تتعطّل عن العمل أيضاً. وإنَّ كلّ تفريطٍ من جانبك بحقّ هذه الحواس الباطنيّة يؤثّر ذلك عليك تأثيراً سلبياً أيضاً.

من هنا نـدرك بـأنَّ سـلامة عقـل الإنسـان متوقّـف علـى سـلامة جسـده وعلى ما اشتمل عليه هذا الجسد من حواس ظاهرةً وباطنة. ومن أجل تحقيق هذه السّلامة العقليّة فقد وعظك ربّك وهو يشرّع لك القتال في الحجّ، فقـال في الآيتين 194/ 195 من سورة البقرة:

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

فهو تعالى نهاك عن الاعتداء ومقاتلة أحدٍ في أيّام الحـجّ. فإنْ اعتـدى أحد عليك في أيّام الحج فالمسموح لك بـالرّدّ عليه بمثل مـا اعتـدى عليـك، وليس أزيد من ذلك كيلا تفوّت عليك أيّام العبادة في الحج. وقد أمرك ربّك في الآية الثّانية بالإنفاق في سبيل الله ما أنت مـأمور بإنفاقه فـي أيّام الحـجّ. ونهاك عن أنْ تُلقي بنفسك إلى التّهلكـة إنْ أنـت خـالفتَ أحـد تلـك المواعـظ التي وعظك ربّك بها في الآية الأولى. محافظة بذلك علـى سـلامة جسـدك من شرور القتال ومتطلّباتـه. فـهاتان الآيتـان تحمـلان هـذه الوصيّـة بالمحافظـة على جسم الإنسان سالماً.

كذلك فإنَّ جسد هـذا الإنسـان مُؤلَـف مـن أنـواع كثيـرة مـن العضـلات تساعده على الحركة وعلى تحريكك الأشياء. وأنت يا عزيزي القارئ مـأمور أنْ تحافظ على مختلـف عضـلات جسـدك قويّـة ونشـيطة فـي عملـها. وهـذا الأمر يقتضي منك أنْ تضطلع وبشـكلٍ علمـيٍّ علـى علـم رياضـة الأجسـام، فتؤدّي الحركات الرّياضيّـة المطلوبـة لتنميـة عضـلات جسـمك بشكلٍ علمـيٍّ

وليس على هواك . وأنْ تسعى للمحافظة على القيام بالرّياضة يوميا وبانتظام طوال عمرك لقول محمّد رسول اللّه ﷺ : (إنَّ لجسدك عليك حقّاً) وقد ثبت من أوراق التّراث أنَّ رسول اللّه ﷺ كان يحافظ على أداء الرّياضات المعروفة في زمنه حتّى ويرافق إحدى زوجاته في تلك العمليّات الرّياضيّة أيضاً .

ثمّ إنَّ الغذاء يلعب دوراً هامّاً في إدامة صحّة الإنسان ، لذلك كان من الواجب عليك يا عزيزي القارئ أنْ تكون علمياً في تناولك لطعامك ، ومن المنطلق الذي وجّهك إليه إلهك ورسوله . فاللّه جلّ شأنه قد خاطب المؤمنين به وقال في الآية **172 / 173** من سورة البقرة ينصحهم بما يتعلّق بالغذاء الذي ينبغي عليهم أنْ يطعموه فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ .

فقد نصحك ربّك **أولاً** : أنْ تأكل من طيّبات الرّزق . فأنت تقول : طاب الشّيء إذا لذّ وزكا وحسن وحلا وجلّ وجاد (محيط المحيط) . **ثانياً** : وأنْ تشكر ربّك على ما رزقك . **ثالثاً** : وأنْ تمتنع عن أكل الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أُهِّلَ لغير اللّه إلاّ إذا كنتَ في حالة اضطرار . فإنْ أنت التزمتَ يا عزيزي القارئ بهذه الوصايا بحقّ جسدك تساعد عقلك على العمل بسلامة وجدّية وانتظام . وإلاّ تحصد ثمرة مخالفتك لها وتدفع لقاء إهمالك ثمناً غالياً .

الفصل السابع:

وصايا قرآنيّة علميّة
تساعد على سلامة العقل

ولا ترتبط سلامة عقل الإنسان بسلامة جسده التّرابيّ وحسب. بل وترتبط سلامة عقل الإنسان بأمر آخر وهو أنْ يتقيّد هذا الإنسان ببعض الوصايا والاحتياطات التي أوصى بها كتاب اللّه العزيز. هذا وإنَّ كتاب اللّه العزيز الذي أثبتَ حتّى الآن اتّفاق تعاليمه بشأن عقل الإنسان مع معطيات العلم الحديث نحاول وبكلّ اطمئنان أنْ نبحث عمّا قدّمه اللّه تعالى فيه من وصايا تفيد في موضوع سلامة عقولنا إنْ نحن تقيّدنا بتلك الوصايا باستمرار. فما هي أهمّ تلك الوصايا القرآنيّة العلميّة؟ هي:

أوّلاً - الابتعاد عن الأخذ بالأمور الظنّية:

إنَّ كلمة (ظنون) هي جمع كلمة (ظنّ) وتحمل هذه الكلمة معنى الاتّهام بدون دليل من جهة كما تعني في الوقت نفسه العلم بالشّيء علماً يقينيّا. فأنت تقول: ظننتُ زيداً ومعناه اتّهمتُهُ بلا دليل. كما تقول: ظننتُ

حقيقة كذا، ومعناه علمتُ حقيقة كذا وأيقنْتُهَا. (محيط المحيط). فمن خلال دلالتي كلمة الظّنّ نُدرك بأنَّ الأخذ بالظّنّ في أمر من الأمور وبدون دليلٍ يؤكّد مصداقية ما ظنّناه فلا يصل هذا النّوع من الظّنّ بالإنسان إلى شاطئ اليقين. وبالتّالي فإنْ نحن زوّدنا عقولنا بأمور ظنّية هي من هذا القبيل نكون قد زوّدنا العقل بمعطيات لا يُبنى عليها محاكمات عقليّة وإنَّ مثل هذا النّوع من تزويد العقل يلقي بآثاره على ما يقوم به العقل من استنتاجات. فلا يعود العقل يزوّدنا باستنتاجات سليمة تساعد على أنْ تقوم عليها أحكام سليمة. ذلك لأنَّ عقولنا تعمل على أساس ما يصلها من معلومات يقينيّة مدعّمة بأدلّة من مختلف أنواع الاستدلالات. وعليه فإنَّ كلّ إنسانٍ لا يلتزم بتزويد عقله بمعلومات يقينيّة يكون في حقيقة أمره ظالماً لعقله ويتسبّبُ ذلك في أنَّ عقله هذا لا يعود يصل بصاحبه إلى استنتاجات سليمة وحكيمة.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة العلميّة التي بيّنّاها وهي أنَّ تزويد عقل الإنسان بمعلومات ظنّية تخلّ في عملية محاكمته للأمور، فقد ذمّت تعاليم هذا القرآن الكريم كلّ إنسانٍ يقيم معلوماته على أساس ظنّيٍ غير مدعّمٍ بدليل. وهذا الأمر نلاحظه فيما تضمّنته معطيات الآيتين 35/ 36 من سورة يونس. ففي الآية الأولى قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ -إشارة وقف- كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟

ففي الفقرة الأولى من الآية الأولى أمر اللّه عزَّ وجلَّ رسوله الكريم وقال: (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ..) علما بأنَّ لكلمة (الحق)

بفتح الحاء عدّة معاني منها: الصّدق والعدل والموجود الثّابت، فالطّلب الذي تضمّنه هذا الأمر الإلهي هو أنْ يقدّم أعداء الإسلام رجلاً للتّحاور معه بشرط أنْ يكون عالماً، ويحيط علمه بحقائق الأشياء، ويتّصف بالصّدق والعدل فيما يحاور فيه من أمور تتعلّق بموجودات ثابتة علميّاً وغير مستندة إلى ظنون شخصيّة. وقد أضاف اللّه تعالى في الفقرة الثّانية وقال (قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ. .) والمعنى أنَّك إذ تدعوهم إلى التّحاور معك على الأسسِ التي أعلنّاها، فليس معنى ذلك أنَّك غير ملتزمٍ بتلك الشّروط. فأعلن بأنَّ تعاليم هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك قامت على تلك الأسس أصلاً لأنَّ مصدرها اللّه خالق كلّ شيء وهو العليم بحقائق ما خلق. ومن ثمّ أضاف اللّه تعالى في الفقرة الثّالثة فدفع رسوله الكريم ليقول (أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ) أي هل يستوي منزلةً مَنْ يكون عالماً بشيءٍ علماً حقيقيّاً مع مَنْ لا يكون عالماً به علماً حقيقيّاً، بل هو بحاجة أنْ يُهدى إلى معرفة حقائق ذلك الشّيء؟ فمنزلته تكون كتابعٍ لغيره وليس متبوعاً؟ وأنهى اللّه تعالى الآية الأولى بقوله (فَمَا لَكُمْ ـ إشارة وقف ـ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟) أي أنَّ اللّه تعالى أتى بفاء الاستئناف ليستأنف كلامه القائم على المعادلة التي لفت أنظار أعداء الإسلام إليها، وقال (فَمَا لَكُمْ) وأورد بعد هذا إشارة وقف ليترك للخصوم فرصة تدبّر طرحه الذي طرحه على مسامعهم فيعيدوا نظرهم فيما ورثوه، وأصرّوا على التّمسّك به على أساسٍ من الظّنون. وإنّه جلّ شأنه عندما أكمل وقال (كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟) فقد أراد تعالى من قوله هذا

معرفة الخطّ الذي يختطّه هؤلاء الخصوم أهو خطّ الحوار على أساس علميٍّ أم هو خطّ الحوار على أساس ظنّيّ.

وفي الآية الثّانية التي ذكرناها فقد راح اللّه تعالى يُعلنُ ويقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فليلاحظ القارئ الكريم كيف أنَّ اللّه تعالى لم يعمّم ويورد صيغة الجمع ويقول - إنّهم جميعهم - بل قال (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) ومن باب أنّه كان في علم اللّه الغيبيّ أنَّ هناك من هؤلاء الخصوم مَنْ كان اللّه تعالى قد كتب له الهداية وإلى قبول الإسلام ديناً، فاستثناهم من اتّباع الظّنّ؛ أي استثناهم من التّسليم بما ورثوه من عقائد جاهليّة بدون دليل. وبعد ذلك نصح اللّه تعالى كلّ مَنْ كان يسعى للمحافظة على عقله وصحّة محاكماته واستنتاجاته فأتى اللّه تعالى بحرف التّأكيد إنَّ وقال: (إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا) بمعنى أنَّ كلّ مَنْ يقيم عقائده وآراءه على الظّنون، وليس على الحقائق العلميّة النّابعة من الموجودات الثّابتة فإنّه يكون قد أسّس عقائده وآراءه على الباطل وبعيداً عن الحقّ. ومن ثمّ أنهى اللّه تعالى هذه الآية الثّانية ومؤكّداً أيضاً وقائلاً: (إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ.). وقد أورد اللّه تعالى بعد هاتين الآيتين آيةً ثالثة قدّم للقارئ من خلالها مصداقيّة ما اشتمل عليه من تعاليم وأحكام وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ - هنا إشارة وقف -﴾ أي كيف بإمكان أحدٍ من النّاس إثبات أنَّ هذا القرآن مُفترى على اللّه تعالى وهو يتضمّن دلائل مصداقيّة كونه من إنزال ربّ العالمين؟ فدلائل هذه المصداقيّة هي:

أولاً ـ (تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) أي أنَّ هذا القرآن قد أنزله اللّه تعالى مصداق جميع النّبوءات التي اشتملت عليها الكُتُب السّماويّة التي سبقته والمشتملة على أنباءٍ متعلّقة بإنزال هذا القرآن العظيم بعد أداء مهمّاتها التي كانت قد أُنزلت من أجل تحقيقها في المستقبل.

ثانياً ـ (ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ) أي وأنَّ هذا القرآن هو كتابٌ لا ريب في كل ما تضمّنه من تعاليم وأحكام ولا يوجد أيّ شكّ ولا تضادّ بينها جميعها، وقد اشتملت آياته على تفصيل ما تضمّنه من عقائد وأحكام وآراء. وإنَّ اشتمال هذا القرآن على هذين الدّليلين العظيمين يثبت كونه كتاباً مُنزلاً من قبل ربّ العالمين.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد نصح هذا الإنسان بالابتعاد عن كلّ أمرٍ قام على الظّنون ودفعه ليزوّد عقله بكلّ أمرٍ استند فيه إلى حقائق علميّة، وكانت الغاية من هذه النّصيحة أنْ يساعد هذا الإنسان على صيانة عقله من كلّ ما يلقي بآثاره السّلبيّة على ما يقوم هذا العقل به من محاكمات عقليّة علميّة وعلى ما يقدّمه لصاحبه من استنتاجات.

ثانيا ـ القول السّديد:

والنصيحة الكبرى الثّانية التي نصحنا بها هذا القرآن العظيم تضمّنتها الآيتان 70/ 71 من سورة الأحزاب واللّتان خاطب اللّه عزَّ وجلَّ فيهما المؤمنين وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فما معنى كلمة (سديداً)؟ فقد ورد في (محيط المحيط):

تقول سدّ فلانٌ الثّلمة، وتعني ردمها وأصلحها ووثّقها. ويقال فلانٌ يسدّ في قوله؛ أي يصيب. والسّداد هو الاستقامة والصّواب من القول والعمل.

واستناداً إلى هذه المعاني والاستعمالات نفهم من كلمة (سديدا) دلالتها على الصّواب الذي لا ينافي الحقيقة والاستقامة وتقوى اللّه تعالى، ولذلك لاحظنا كيف أنَّ اللّه تعالى قد قرن في أمره هذا ما بين تقوى اللّه تعالى وما بين انتهاج الإنسان نهج القول السّديد. وبألفاظ أخرى فإنَّ كلّ إنسان اعتاد المراءاة والكذب في أقواله يكون كَمَنْ يعمل على تخريب جهاز عقل نفسه الذي آتاه ربّه إيّاه، ويخسر بذلك اتّزان هذا العقل، وما يؤدّيه من مهامٍ في حياته. فالإنسان الذي لا يعتاد أنْ يقول قولاً سديداً يكون حاله هذا يشبه الإنسان الذي يقوم بعمليّة تسريب (فيروسات) إلى جهاز (كمبيوتر) هذا العقل الذي يملكه.

وقد وضّح اللّه عزَّ وجلَّ نتائج الاعتياد على القول السّديد وذلك في الآية الثّانية وقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد راح يُعدِّد لهذا المؤمن ما يجنيه من فوائد إنْ هو اعتاد تقوى اللّه تعالى فيما يقوله والقول السّديد. وهذه الفوائد هي:

الفائدة الأولى - فحين قال اللّه تعالى (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ) معناه أنَّ ابتعاد الإنسان عن الكذب والمراءاة واعتياد هذا المؤمن أنْ يقول (قولاً سديداً) فيما يريد أنْ يقوله مع أيّ إنسان آخر وفي أيّ موضوع كان يبعده قوله

السّديد هذا عن الوقوع في إشكاليّات هو في غنى عنها خلال تعامله مع غيره من النّاس. أمّا ذاك الإنسان الذي لا يقول قولاً سديداً ويكتشف سامعه الذي يسمع قوله إنَّه قال قولاً غير سديد يفقد منزلته في نفس هذا السّامع ولا يعود هذا يتعامل معه على أنَّه أمين فيما يُحدِّث به.

الفائدة الثّانية ـ والفائدة الثّانية تضمّنها قول اللّه تعالى في الفقرة الثّانية وهي (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ففعل (يغفر لكم) اشتقّ من غفر بمعنى ستر. ثمّ إنَّ حرف اللّام في (لكم) ورد للتّعليل. فتقول غفر اللّه لفلان ذنبه وتعني أنَّه تعالى غطّى عليه خطأه الذي صدر عنه وعفا عنه. ثمّ إنَّ كلمة (ذنوبكم) جمع (ذنب) والذّنب معناه الخطأ غير المتعمّد. (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله تعالى (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) هو أنَّ اللّه تعالى عطف بحرف الواو هذه الفائدة الثّانية على الفائدة الأولى، وبيَّن بأنَّ من فوائد القول السّديد في نظر اللّه عزَّ وجلَّ أنَّ ربّه يعود ينظر إلى هذا المؤمن الذي اعتاد القول السّديد بنظر العفو والغفران مهما تولّد عن قوله السّديد من نتائج ضارّة عليه وأذى، لأنَّ قوله القول السّديد يجذب رحمة اللّه تعالى نحوه ويعود ينظر إليه بعين الرّحمة والشّفقة فيستر عليه ما ارتكبه من أخطاء غير متعمّدة ويعفو عنه.

وقد أورد اللّه تعالى حيثيّات أمره المذكور (قولوا قولاً سديداً) الذي اشتملت عليه هذه الآية الكريمة وعلى شاكلة ما يفعله المشرّعون يقدّمون حيثيّات ما شرّعوه فقال (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا). فوضّح تعالى من خلال ذلك أنَّ اعتياد المؤمن (القول السّديد) يدخل في باب إطاعة

اللّه عزَّ وجلَّ ورسوله الكريم، فالقول السّديد يدخل في باب تعبّدِ الإنسان ربّه تعبّد تقوى وخشية من محاسبته تعالى إيّاه على مراءاته في قوله وكذبه ويفوز بذلك هذا المؤمن من جرّاء ذلك في حياته الدّنيا والآخرة فوزاً عظيماً.

ثالثاً - ترويض العقل بالتّفكير:

لقد سبق لي أنْ بيّنتُ بأنَّ العقل يستعين بالقوّة المفكّرة التي زوّده بها الخالق لتساعده على وعي الأشياء التي تعرض له وعياً صحيحاً. وعليه فبقدر ما يقلّب الإنسان فكره في أمرٍ من الأمور بقدر ما ينمو وعيه لحقيقة ذاك الأمر ولما حوله من أشياء.

وتشبه قوّة الفكر التي زوّد اللّه تعالى بها عقل الإنسان أقول تشبه قوّة الفكر هذه ما زوّد اللّه تعالى به جسد الإنسان من عضلات. فالعضلة التي لا يُروِّضها صاحبها بالتّمارين اليوميّة ووفق أصولٍ علميّةٍ فإنَّ هذه العضلة تضمر مع الأيّام ولا تعود تقدر على أداء مهمّتها بشكلٍ صحيح وكامل. كذلك فإنَّ الذي لا يروّض قوّة تفكيره ووفق أصول علميّة فإنَّ تفكيره يقف عند حدودٍ معيّنةٍ من العمل ولا يعود بإمكانه تدبّر وتحليل ما تفاجئ به الأيّام هذا الإنسان من مستجدّات ومتغيّرات.

لذلك نلاحظ بأنَّ القرآن الكريم قد حثّنا على ترويض عقولنا في مواضع كثيرة من المواضيع التي تطرّقت إليها آيات كتابه العزيز. وحثّ اللّه تعالى المؤمن في تلك المواضع على التّفكّر وبمختلف الأساليب التي تتلاءم مع مختلف طبائع النّاس الذين خوطبوا هناك في كتابه العزيز كما أنّه تعالى

قد نبّه المؤمن إلى أنَّ من المقاصد الهامّة التي تدفعه ليضرب للنّاس الأمثال هو ليدفع هؤلاء النّاس لتدبّر الحقائق التي تدلّ عليها تلك الأمثال بإعمال فكرهم فيما تضمّنته من دلالات. وقد عبّر اللّه تعالى عن هذه المعلومة من خلال الفقرة الأخيرة من الآية 21 من سورة الحشر التي قال تعالى فيها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وعلاوة على بيان هذا المقصد السّامي من ضرب الأمثال فإنَّ اللّه تعالى لم يدع موضوعاً بعينه قد بحثه إلا واستغلّه ليحثّ الإنسان على ترويض فكره وتدبّره من خلاله. وعلى سبيل المثال لا الحصر فاللّه عزّ وجلّ حين لاحظ اتّهام أعداء محمّدٍ رسوله الكريم محمّداً بن عبد اللّه ﷺ بالجنون، فقد حثّهم على التّفكير فيما ادّعوه بصورة ارتجاليّة ظنّيّة وذلك في الآية **184** من سورة الأعراف وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ - إشارة وقف - مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. أي أنّهم عندما ادّعوا بالادّعاء المشار إليه فقد كان من واجبهم أنْ يستعينوا قبل التّصريح بهذا الادّعاء أنْ يستعينوا بقوّة التّفكير التي زوّد اللّه تعالى عقولهم بها لتدبّر حال رسولنا ومقارنته مع حال المصابين بالجنون من جهة ومقارنة ذلك بحال العقلاء من النّاس من جهة ثانية ليتمكّنوا من الحكم عليه. وما دامت صفات رسولنا الصّادق الأمين لا تتوافق مع صفات المجانين فهذه الحقيقة تدينهم فيما ادّعوه في هذا المجال. فلو فعلوا ذلك لكان قد تبيَّن لهم لو كانوا مطّلعين على الصّفات التي اتّصف بها الأنبياء من قبله بأنَّ محمّداً ﷺ (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بمعنى أنَّ محمّداً يُطلعهم على حقائق الأمور ويُحذّرهم من عواقبها قبل حلولها ويعمد إلى

تخويفهم وترهيبهم عند إنذاره إيّاهم شفقة على النّاس من عذاب يوم عسير ينتظر الغافلين منهم عن ربّهم في هذه الحياة الدّنيا.

رابعاً ـ ضرورة توفّر البيّنة:

فما هي دلالة كلمة (بيّنة) قبل كلّ شيء؟ تقول بانَ الشّيءُ معناه اتّضح. وقد يتعدّى فعل (بان) فتقول بيّنته بمعنى أوضحته وعرّفته. لذلك فإنَّ قولك (أبان) معناه اتّضح أيضاً فهو (مبين)، وعليه فإنْ أمرت أحداً أنْ يتبيّن الخبر معناه أنَّك تطلب منه أنْ يستوضح حقيقة ذاك الخبر ثمّ إنَّ (البيان) هو ما يتبيّن به شيء الأشياء من خلال تقديم دليلٍ وغيره يثبت صحّته. فإنْ قلت فلانٌ ذو بيان فمعناه أنَّه فصيح اللّسان. وإنْ قلت هذا شيء بيّن فمعناه أنَّه شيء واضح وجليّ. وعليه فكلمة البيّنة تعني الحُجّة في القضاء وتعني الدّليل فيما يقصّه الإنسان على غيره بسبب أنَّه يُقصد بكلمة (البيّنة) هنا قول الحقّ. وأمّا كلمة (الحُجّة) فتعني البرهان لكونها الوسيلة التي تمنح الغلبة على الخصم.

فمن خلال ذلك كلّه يتبيّن بأنَّ البرهان يعني الحُجّة والدّليل والبيّنة ويقتضي الصّدق أبداً على حسب قول أبو البقاء فتقول: برهنَ الشّيء ومعناه أقام عليه البرهان وبيّنه وجمعه براهين (محيط المحيط).

هذا وإنَّ القرآن الكريم إذ أوصى هذا الإنسان أنْ يضع موضوع تقديم الحجّة والدّليل والبيّنة نصب عينيه على الدّوام فإذا تكلّم لا يتكلّم إلاّ بدليل وإذا استمع فلا يصغي لكلّ خبر لا يدعمه دليل. وإذا قرأ في كتاب

فلا يحفظ منه إلاّ ما استند كاتبه فيه إلى دليل. فإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ ضمّن آيات كتابه العزيز هذه الموعظة لتعلّق هذه الموعظة بقانون طبيعيٍّ مسنون. فنحن نلاحظ العامّي من النّاس ملتزمٌ بالعمل على هذا القانون الطّبيعيّ بصورة فطريّة على المستوى العمليّ لكنَّه غير ملتزمٍ عليه على صعيد فكره وتفكيره وقوله وسماعه لأقوال غيره من النّاس.

وتفصيل ذلك هو أنَّنا نلاحظ أنَّ هذا العامّي إذا ملأ قارورةً بطيبٍ على سبيل المثال فهو لا يخلط ما ملأها به بحمضٍ أو بزيتٍ أو بغيره من الأشياء. وإذا حلب حليباً من بقرته أو من شاته يحاول أنْ يصون هذا الحليب من الوسخ بمختلف أشكاله. هذا على الصّعيد العمليّ لكنَّه إذا حدّث يحدّث بكلام خليط ما بين الحقيقة والخيال. وإذا استمع فلا يعترض على ما سمعه ولا يطالب بدليل عليه. وإذا فكّر فلا يفكّر بمنهجيّة علميّة. فلماذا هذا التّفاوت والتّضارب ما بين عمل هذا الأمّي وما بين قوله وتفكيره؟ الجواب المختصر هو أنَّ هذا الأمّي لا يدري شيئاً عن هذا القانون الطّبيعيّ الذي أشرنا إليه وإنَّ موافقة عمل هذا الأمّي على الصّعيد العمليّ لمعطيات هذا القانون الطّبيعيّ يحدث بصورة فطريّة. وإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد نبّه هذا الإنسان إلى وجود هذا القانون المسنون بعدّة طُرُقٍ من طُرُق الوعظ ليساعد هذا الإنسان على المحافظة على جهاز عقله سليماً مصوناً. فما هي ظواهر مواعظ اللّه تعالى على هذا الصّعيد؟

إنَّ الله تعالى قد وعظ النّاس جميعاً ولم يعظ فئة المؤمنين خاصّة وقال في الآيتين 174/ 175 من سورة النّساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن

كذلك فقد وعظ اللّه عزَّ وجلَّ هذا الإنسان على صعيد ما يعتنقه من عقائد دينيّة وعظه ألاّ يعتنق عقيدة من دون أنْ يستند فيها إلى حجّة وبرهان وبيّنة فقال تعالى في الآية 64 من سورة النّمل: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾. فلفت اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة ذهن هذا الإنسان إلى كيفيّة أنَّه تعالى أبدع نظام الوراثة عند الإنسان فهو يبدأ الخلق بواسطة هذا الإبداع ويعيده. فهذا هو معنى (أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ؟) كذلك لفت اللّه تعالى ذهن الإنسان إلى حقيقة رابطة الجدليّة التي تربط هذه السّماء والأرض لتأمين رزق الإنسان على الصّعيدين المادّي والرّوحيّ. فَمَنْ يتّخذ له إلهاً فليحاول تقديم البرهان على استيفاء إلهه هذين الشّرطين المذكورين وإلاّ يكون كلّ ما اعتقده باطلاً.

ووعظ اللّه تعالى هذا الإنسان على مستوى استعماله لتفكيره فقدّم له قصّة إبراهيم عليه السّلام التي أوردتها سورة الأنعام وكيف أنَّ إبراهيم خالف عقائد قومه بسبب ابتعاده عن تقليد قومه ومطالبته إيّاهم بدليل يثبت مصداقيّة ما عبدوه.

خامسا ـ طلب العلم:

ومن أهمّ مواعظ القرآن الكريم التي أوصى اللّه عزَّ وجلَّ بها هذا المؤمن التقيّ حفاظاً على سلامة عقله تتمثّل في حثّه على طلب العلم مهما كان وضعه وعمره رجلاً كان أو امرأة. وقد وردت هذه الموعظة في سنوات الدّور المكّيّ من الدّعوة الإسلاميّة وفي أمّة كانت أمّيّةً لا تعرف الكتابة

رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ فلاحظ يا عزيزي القارئ هذه الشّموليّة التي اتّصف بها هذا الخطاب (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ). ولاحظ أيضاً قوله تعالى (قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ) وكيف أنَّ اللّه تعالى قد أطلق كلمة (برهان) على جملة ما اشتمل عليه كتاب اللّه العزيز من تعاليم وأحكام إشارة إلى أنَّ مضمون كلّ آية من آيات هذا القرآن العظيم قد استند إلى حقائق علميّة وبراهين ساطعة ولاحظ ثالثاً كيف أنَّ اللّه تعالى أورد واو العطف بمعنى الحال لإدخاله تعالى الواو على فعل الماضي (أنزلنا) في هذا المقام. فهو تعالى قال (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) أي أنَّ تعاليم وأحكام هذا القرآن وبسببِ تأسيسها على حقائق وبراهين قد عادت بمثابة نورٍ لبصائركم تفرّقون به ما بين الحقّ وما بين الباطل. ومن ثمّ استأنف تعالى بفاء الاستئناف واشترط بحرف الشّرط (أمّا) وقال (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ) أي أنَّ كلّ واحدٍ منكم أيّها النّاس يؤمن باللّه بعد إنزال هذا الكتاب ويعتصم باللّه على أساس ما أنزله في كتابه العزيز من تعاليم وأحكام (فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ) أي ستشمله رحمة ربّه وفضله. ليس هذا وحسب، بل (وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا.) ولذلك نلاحظ كيف أنَّ اللّه تعالى قد علّم هذا المؤمن أنْ يدعو في كلّ ركعة من ركعات صلواته أنْ يدعو (اهدنا الصّراط المستقيم). وهكذا فإنَّ هذا الوعظ الذي اشتملت عليه هاتان الآيتان قد حثّ اللّه تعالى من خلاله كلّ فرد من بني نوع الإنسان على أنْ ينتهج نفس هذا النّهج الإلهي فلا يحاول أنْ يقول ولا أنْ يسمع ولا أنْ يفعل إلاّ ما استند فيه إلى حقائق علميّة وبراهين ساطعة.

ولا الحساب. ولذلك ورد عن رسول اللّه ﷺ قوله (اطلب العلم من المهد إلى اللّحد). وقال في رواية ومناسبة أخرى (اطلب العلم ولو بالصّين). وقد أخذ المؤمنون في ذاك التّاريخ بالعمل على هذه الموعظة فسادوا العالم شيئاً فشيئاً في مختلف العلوم. لكنّ الفيج الأعوج الذي أنبأ رسول اللّه عن ظهوره في صفوف الأمّة الإسلاميّة ترك العمل على الموعظة القرآنيّة المشار إليها حتّى انتهى الأمر بالمسلمين في بداية القرن العشرين قيامهم بحجر العلم عن الفتاة التي تُشكّل نصف المجتمع. وبتشغيل الأطفال الذّكور في مختلف الصّنائع وشلّ موضوع متابعة تحصيل هؤلاء علمهم واكتفائهم بالعمل متناسين تلك الموعظة التي اعتمدها المسلمون زمن صدر الإسلام وسادوا العالم بسببها يوم كانت الأمم غير الإسلاميّة ترزح تحت وطأة الجهل والجهالة وانحطاط الأخلاق. فبالعلم بنوعيه الدّينيّ والدّنيويّ ينمو وعي المؤمن ويزداد وعلى حسب ما سبق لي أنْ بيّنتُ. وقد عاد المسلمون من جرّاء ذلك متخلّفين عن غيرهم من الأمم، بل وتابعين.

فأنا وضّحت لك يا عزيزي القارئ في هذا الكتاب بأنّ عقل الإنسان يعمل على قدر وعي صاحبه وهذا هو سرّ التّفاوت الحاصل بين أفراد الجنس البشريّ حتّى وبين مختلف الأمم والشّعوب في العالم.

فابتداء من الآية 112/ 115 من سورة (طه) قال اللّه تعالى ومتوجّهاً **بخطابه إلى محمّدٍ رسوله الصّادق الأمين والذي جعله ربّه أسوة للمؤمنين** ﷺ وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. فمن خلال قوله تعالى آمراً رسوله الأسوة الحسنة للمؤمنين (وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا) يكون قد وعظه وأفراد أمّته أنْ يطلبوا العلم بنوعيه من المهد إلى اللّحد. وإنَّها لموعظة في غاية الأهمّية لارتباط سيادة الأمّة بالإحاطة بأهمّيتها.

فأهمّية هذه الموعظة المتعلّقة بضرورة استمرار المؤمن في طلب العلم تأتي من موقعها من التّسلسل الموضوعيّ من هذه السّورة. لذلك سأضع القارئ الكريم في منظور هذا التّسلسل الموضوعيّ للسّورة وباختصار ليساعده ذلك على إدراك أهمّية موعظة طلب العلم المذكورة.

فاعلم يا عزيزي القارئ أنَّه بعد أنْ فرغ اللّه تعالى من الكلام عمَّا حدث زمن موسى عليه السّلام الذي اتّخذ قومه من بعد صعوده الجبل العجل إلهاً وملابساته أورد اللّه تعالى حرف التّأكيد (إنَّ) وقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وقد كان الدّافع على لقوله تعالى هذا هو لتوجّهه سبحانه للكلام عن أمّة موسى التي اعتنقت أكثريّة أبنائها المسيحيّة، فأصبحوا من أتباع المسيح عيسى بن مريم الذي كان اللّه تعالى قد بعثه ليُكمل ما بعثَ اللّه تعالى به موسى من مهمّات، وجاءت هذه الحقيقة وفق ما صرّح به المسيح نفسه في الأناجيل وقال (ما جئتُ لأنقض النّاموس بل لأكمل).

فاللّه عزَّ وجلَّ نبّه أذهاننا في الآيات من سورة (طه) إلى أنَّ أمّة موسى على حين عادت إلى عبادة البقرة في أوّل نشأتها فقد ابتُليت بعبادة المسيح

نفسه في دورها الأخير وتناست أنَّ موسى كان قد دعا قومه إلى عبادة اللّه الأحد الواحد القهار. وبدليل ألفاظ موسى نفسه في العهد القديم. وعليه فإنَّ اللّه تعالى عندما قال: ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ كان خطابه في هذه الآية الكريمة موجّهاً إلى أتباع موسى عليه السّلام سيّان منهم الأوائل والأواخر بدليل أنّه تعالى أنهى هذه الآية بقوله (وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) أي وسع علم اللّه الغيبيّ جميع تلك المتغيّرات الطّارئة على عقيدة التّوحيد الموسويّة.

ومن ثمّ نبّه اللّه تعالى أذهان هؤلاء إلى أنّه آتى نبيّه محمّداً ﷺ (ذكْرا) إشارة إلى هذا القرآن المجيد وأنذر مَنْ تبقّى من أتباع موسى وعيسى وقال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾. وكان هذا الوعيد خطيرٌ جداً ويتعلّق بمصير مَنْ تبقّى من أتباع موسى وعيسى أولئك الذين أصرّوا على الإعراض عن تقبّل هذا القرآن العظيم والكفر بمَنْ أنزله. ومن ثمّ فقد راح اللّه جلّ شأنه يبيّن ما أعدّ لهؤلاء المعرضين عن تقبّل هذا القرآن العظيم من عقوبات وعذاب، وذلك ابتداء من الآية **100** وحتّى الآية **111** من سورة (طه). ومن ثمّ فقد توجّه اللّه عزّ وجلّ بعدها نحو فئة المؤمنين الذين يعاصرون زمن قرب تحقّق ذاك الوعيد المشار إليه وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾. ولنحاول تفسير هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فنقول: ألا إنّه عندما قال اللّه تعالى في الفقرة الأولى (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) فإنَّ كلمة (الصّالحات) وردت وصفاً لكلمة

(الأعمال) المحذوفة لضرورة بلاغيّة. والتّقدير (وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ). وإنَّ (العمل الصّالح) هو العمل الذي يكون مؤدّياً هذا المؤمن ما عليه من حقوقٍ متوجّبةٍ عليه تجاه اللّه خالقه وما عليه من حقوقٍ متوجّبةٍ عليه تجاه عباد اللّه عزَّ وجلَّ وبالأهليّة المطلوبة منه في كلّ عملٍ يعمله. وأمّا قوله تعالى (فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا) ففعل (يخاف) اشتقّ من خاف بمعنى فزع وحذر واتّقى، ومن علم وتيقّن أيضاً. أمّا كلمة (ظلماً)فقد اشتقّت من قولك ظلم فلان فلاناً، ومعناه جار عليه وفعل له الظّلم ووضع الشّيء في غير موضعه. وأمّا كلمة (وَلَا هَضۡمٗا) فمشتقّة من قولك هضم فلانٌ الشّيء ومعناه كسره. وهضم فلان فلاناً معناه غصبه وظلمه. وهضم فلان حقّ فلان معناه نقص من حقّه. وهضم فلانٌ الدّواء معناه نهكه. وقولك هضمت المعدة الطّعام معناه أحالته إلى صورة صالحة لتغذية جسم الإنسان. (محيط المحيط).

وعليه فإنَّ الذي أفهمه من مضمون هذه الآية الكريمة الواردة في هذا المقام ووفق دلالات ألفاظها هو أنَّ اللّه جلَّ شأنه جاء يتكلّم هنا في هذه الآية الكريمة عن فئة المؤمنين الذين يُعاصرون طغيان الفئة الثّانية من قوم موسى عليه السّلام والذين أنبأ اللّه تعالى عن هلاكهم أولئك الذين أعرضوا عن الاستجابة لهذا القرآن العظيم. وبألفاظ أخرى فإنَّ اللّه تعالى يبشّر فئة المؤمنين المعاصرين لطغيان أمم أوروبة وأمريكا والمعاصرين لنا في هذه الأيّام ويقول لهم: يا معشر مؤمني تلك الحقبة من الزّمان إنْ أنتم التزمتم بعمل كلّ ما طلبه اللّه جلّ شأنه منكم في هذا القرآن العظيم من أعمالٍ صالحات

استوفت أداء حقوق ربّكم وحقوق عباده وأنتم تعيشون تحت وطأة ظلم وطغيان تلك الأمم المشار إليها وفي وقتٍ تخلّف فيه المسلمون من قومكم وانحطّوا عن المستوى المطلوب منهم قرآنيّاً. فإنْ أنتم التزمتم بعمل الصّالحات وبعيداً عن التّطرّف والمغالاة. فإنَّكم تسلمون من شرور أولئك الظّالمين الذي يهضمون حقوق النّاس وينتقصون من حقوقهم. أولئك الذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون، وذلك كما ورد وصفهم في سورة (المطفّفين) والذين يزنون بازدواجيّة في المعايير وعلى حسب ما تتناقله الألسنة في هذا الزّمان، وإنَّ الدّليل النّابع من هذا التسلسل الموضوعيّ والدّالّ على المعنى الذي ذكرناه هو قول اللّه تعالى في الفقرة الأخيرة من الآية السّابقة هو ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وذلك إشارة إلى عاقبة هذه الأمم المشار إليها من قبل.

وأمّا دليلي الثّاني فقد تضمّنته الآية اللاحقة لهذه الآية الكريمة والتي قال اللّه تعالى فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾. هذه التي نتساءل عن دلالتها وعن السّبب في أنَّه تعالى قد استهلّها بقوله (وكذلك)؟

فإن، نحن عُدنا إلى معجم (محيط المحيط) نلاحظ أنَّه شرح لنا هذه الكلمة (كذلك) وقال إنَّها مركّبة من **كاف التّشبيه** ومن **ذا الإشارة** ومن **لام البُعْد** ومن **كاف الخطاب**.

ففي اجتهادي هو أنَّ كاف التّشبيه أشارت إلى أنَّ التّاريخ سيعيد نفسه زمن هيمنة هذه الأمم المسيحيّة التي ذكرناها، فتهلك تلك الأمم أخيراً

ويستعيد القرآن المجيد بعدها مكانته في العالم. وأمّا (ذا الإشارة) فللإشارة إلى عاقبة هؤلاء الوخيمة. وأمّا (لام البُعد) فلتنبيه أذهاننا إلى أنَّ ما أنبأ اللّه تعالى به عن هذه الأمم لن يحدث بعد ظهور الإسلام بمدّة قصيرة، بل يحدث بعد مدّة طويلة وهي أربعة عشر قرن من الزّمان وعلى حساب أيّامنا هذه المدّة البعيدة عن زمن إنزال هذا القرآن العظيم. وأمّا (كاف الخطاب) فلتوجيه الخطاب في هذه الآية الكريمة إلى تلك الأمم الغربيّة التي أشار تعالى إليها والتي ستعيث في الأرض ظلما وفساداً.

وليصبح معنى هذه الآية الأخيرة أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد توجّه بخطابه فيها إلى الأمم المشار إليها منبّهاً إيّاهم إلى أنَّه تعالى قد أنزل هذا القرآن بيّنة معانيه وكما دلّ على ذلك قوله (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا). وأنَّ اللّه تعالى يكون قد كرّر في هذا الكتاب ما توعّد به الأمم المذكورة من عذاب ينتظرهم ومصير محتوم مشؤوم ينتظرهم. وقد فعل اللّه تعالى ذلك (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أي لعلّ الأمم المشار إليها تتّعظ وتستفيد من تكرار وعيد اللّه تعالى بحقّهم وترجع إلى الإيمان بهذا القرآن وتترك الإعراض عنه.

ومن ثمّ أتى اللّه عزَّ وجلَّ بحرف العطف (أو) وبمعنى التّخيير في هذا المقام لوقوعها بعد طلب اللّه من الأمم المذكورة الرّجوع إلى التّصديق بهذا القرآن المجيد وعطف وقال (أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا.) فكرّر اللّه جلّ شأنه كلمة (ذكرا) التي كان قد أوردها في أوّل كلامه عن هؤلاء وهي قوله تعالى هناك: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾. فكما أنَّه كان المقصود من كلمة (ذكرا) أوّل الكلام الإشارة إلى (القرآن الكريم) فقد أشار تعالى بهذه الكلمة (ذكرا) هنا

وبأسلوب الاستعارة للإشارة إلى القرآن الكريم من جديد أيضاً. بمعنى أنَّ هذا القرآن العظيم الذي كان اللّه تعالى قد أنزله منذ أربعة قرن من الزّمان وظنّ هؤلاء أنَّ مفعوله قد انتهى فإنَّ هذا القرآن العظيم سيلعب نفس الدّور زمن طغيان تلك الأمم. لذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾. وقد لّمح اللّه عزَّ وجلَّ إلى تلك الأمم من خلال كلمة (زرقاً) بمعنى أنَّهم زرق العيون على وجه العموم. وأمّا قولهم (إِلَّا عَشْرًا) فإشارة إلى هذه القرون العشرة التي قضوها بعد غلبة أتباع القرآن الكريم عليهم أوّل مرّة والتي لا تْشكّل إلا (يومًا) أي دوراً من الأدوار. فالمهمّ في الأمر هو أنّي وضّحت من خلال

ما بيّنته آنفاً أهمّية هذه الموعظة الخامسة التي أوردها اللّه عزَّ وجلَّ بعد جميع الذي ذكرناه وقال فيها ناصحاً فئة المؤمنين: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ أي تعالى اللّه الملك الحقّ صاحب القول الثّابت أنْ يترك أمّة محمّد تنحطّ وتذلّ في مواجهة هذه الأمم الظّالمة المفسدة إلا أنْ يكون حال ترك هؤلاء المسلمين (طلب العلم) هو السّبب في ذلك كلّه. لذلك لا ينبغي لأحدٍ أنْ يتعجّل ويحكم على هذه المتغيّرات التي تبدو في ظاهرها مخالفة للوعود المقطوعة لأمّة محمّد بن عبد اللّه رسول اللّه ﷺ في هذا القرآن الكريم، بل إنَّ عليه ألاّ

يتعجّل من قبل أنْ يُقضى ما تضمّنه وحي هذا القرآن من وعيد متعلّقٍ بأمم الغرب المشار إليها فيه.

وفي الفقرة الأخيرة أمر تعالى وقال (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) فأورد تعالى كلمة (علماً) غير مُخصَّصة من جهة. وأوردها منوّنة بأداة التّنوين من جهة ثانية. فكان القصد من عدم تخصيصها ليصرفها إلى طلب علم حقائق القرآن من جهة وإلى طلب حقائق العلوم الحديثة من جهة أخرى وإلى الاستمرار في طلب العلم بأنواعه من جهة ثالثة. وأمّا تنوين كلمة (علماً) فقد كان القصد منه إظهار عظمة دور العلم في حياة هذا الإنسان لأنَّ التّنوين يورد لتعظيم شيءٍ من الأشياء.

وأكتفي بالتّنبيه إلى هذه الوصايا القرآنيّة الخمسة وإلاّ فإنَّ مواعظ القرآن المجيد بخصوص المحافظة على سلامة عقل الإنسان يحتاج بيانها إلى كتاب مستقل.

الباب الثّاني:

الفصل الأوّل:

قانون الاحتياج العام

أنت تسمع يا عزيزي وتقلّدُ وتقول (الكمال للّه وحده) فإذا قلّدتَ ونطقتَ بهاتين الكلمتين تكون قد نطقتَ بالحقيقة التي أشارت إليها هاتان الكلمتان ومن غير أنْ تدري ما فعلت. فاعلم يا عزيزي القارئ أنَّ اللّه الخالق قد خلق عالمنا المادّي وأخضعه لقانونٍ عام طبيعيٍّ وهو ما يصحّ تسميته بقانون الاحتياج العام. فتسألني أنْ أوضّح لك معالم هذا القانون الطّبيعيّ المشار إليه فأقول: إنَّني حين ضربتُ لك مثال النّظر إلى شجرةٍ من الأشجار في الباب الأوّل من هذا الكتاب. أتيتُ على ذكر ضوء الشّمس الذي عكس ظلّ تلك الشّجرة على شبكيّة عينيك. فما هو الدّاعي الذي دعاني لأذكر لك هذه الحقيقة في ذاك المقام؟ إنَّ الذي كان قد دعاني لأفعل ذلك هو أنَّ عينك لا ترى بدون مساعدة الضّوء. فالعين على عظمة تكوينها تراها

عاجزةً عن أنْ ترى الأشياء من حولها حين تكون في ظلام. فإنْ طلع عليها النّهار أو لاح ضوء أضاء ما تريد رؤيته العين فإنَّها تراه. وهذه الحقيقة تكشف لك عن حقيقة وجود قانون الاحتياج العام الذي يهيمن عمله ليس على حاسّة العين لديك، بل على كلّ شيء في هذا الوجود. فالذّرّة المادّية لا تقوم إلاّ بمساعدة ذرّة مادّية أخرى. وإنَّ كوكبنا الأرضيّ يفقد الحياة إذا حذفنا من فوقه كرة الشّمس وما لها من تأثيرات عليه. ثمّ إنَّ الإنسان اجتماعيٌّ بفطرته فلا يقدر شخص أنْ يحيا منفرداً عن النّاس من حوله. كذلك فإنَّ الإنسان لا تدوم حياته إلاّ بمعونة خالقه الحيّ القيّوم. وقس على ذلك بقيّة ما في هذا العالم من أشياء. وعليه فإنَّ كلّ شيءٍ في هذا العالم يخضع لقانون الاحتياج العام الذي أشرتُ إليه. لذلك كان من المناسب أنْ أبيّن لك يا عزيزي القارئ العوامل المساعدة التي تساعد حواسك الخمس على أداء عملها. وأبيّن لك العوامل المساعدة التي تساعد عقلك على تأدية وظيفته أداءً جيّداً.

الفصل الثّاني:

العوامل التي تساعد الحواس على عملها

قلنا بأنَّ كلّ شيء في هذا الوجود المادّيّ يخضع لقانون الاحتياج العام الطّبيعيّ. وأنَّ الحواس الخمس التي سلّح الله الخالق بها جسد هذا الإنسان تخضع هي أيضاً للقانون الطّبيعيّ المذكور. فما هو تفسير ذلك؟

فنحن نتناول حاسّة البصر: ونتناول كلّ حاسة من حواسك الخمس بالفحص والتّدقيق. فنبحث في أمر حاسّة الرّؤية التي هي هذه العين الواقعة تحت جبين الإنسان بادئ بدء. فمن المعروف أنَّ الطّبّ أوجد أطبّاء اختصاصيين لمعالجة أمراض العين لأهمّيتها من جهة ولدقّة تكوينها من جهةٍ ثانية ولصلتها بحياة وسعادة صاحبها من جهة ثالثة. فعين هذا الإنسان تلتقط صور الأشياء بسرعة مذهلة لا نلاحظ تمتّع ما اخترع الإنسان من آلات تصوير بتلك الميّزة حتى الآن. فالعين تفعل ذلك ما دامت مفتوحةً من جهة ومادامت الأشياء معرّضةً للنّور والضّياء من جهةٍ أخرى. أمّا إذا أغمضت

عينك أو كنت في ظلامٍ دامسٍ تتعطّل هذه العين عن أداء وظيفتها فلا تعود ترى شيئاً ولو كانت غير مُغمضة. فما هو السّببُ في هذا وجود هذا التّبايُنِ حين تقوم العين بأداء وظيفتها؟ أجيبك يا عزيزي القارئ وأقول: إنَّ السّبب في ذلك هو خضوع هذه العين لقانون الاحتياج العام الطّبيعيّ الذي لفتُّ نظرك إليه. فالعين قد صُمّمت تصميماً رائعاً وعظيماً. فظلال الأشياء تسقط على شبكيّتها الموجودة في قعر العين وذلك بعد دخول تلك الظّلال من بؤبؤ العين وهو هذه النّافذة المستديرة التي تصغر وتكبر تبعاً لحدّة الضّوء وخفّته. هذا البؤبؤ الذي يتفاوت لونه عند مختلف الأقوام ما بين أسود وأزرق وعسليّ اللّون. لكنّ المصمّم لم يُعطِ عين هذا الإنسان بالرّغم من هذا التّصميم العظيم أقول لم يُعطها مُسحةَ الكمال، بل صمّمها على صورة تظلّ معها محتاجةً إلى عاملٍ يساعدها على الرّؤية وهو عامل الضّوء. فبدون الضّوء لا تتمكّن العين من رؤية شيء من الأشياء المادّية التي يعمر بها هذا الكون من حولنا. فأنت إنْ كنتَ في ظلامٍ دامسٍ ونظرتَ لترى أيّ شيء تريد العثور عليه فإنَّك تحاول المستحيل ولا تراه. فأين بقيت عظمة تصميم العين التي اختصّ الأطبّاء بمعالجتها وجراحتها؟ فإنْ أدركتَ وفسّرتَ عجز عينك عن رؤية الأشياء في الظّلمة بهذا التّفسير الذي فسّرتُهُ لك تكون قد أقرّيت بأنَّ الكمال للّه وحده جلَّ وعلا.

حاسّة السّمع: ودَعْ عنك العين، ودقّقْ في حاسّة الأذن التي تنقل إليك الأصوات المنبعثة من هنا وهناك. والتي تعمل ليل نهار. وبدون حاجة إلى الضّياء. والتي أفرز الطّبّ أطبّاء مختصّين لمعالجة أمراضها وجراحتها

لعظمة تكوينها. فكيف تعمل الأذن لتأدية هذه الوظيفة التي ذكرناها؟ إنَّ تشريح الأذن العلميّ أثبت أنَّ قسم الأذن الخارجيّ يجمع الأصوات فينقلها إلى أذنٍ وُسطى فيها أجهزة شبيهة بالمطرقة والسّندان أو أشبه ما يكون بجهاز (مورس) الذي يُحوِّل تلك الأصوات إلى رموزٍ تنتقل منها إلى أذنٍ داخليّة تستقبل هذه النّبضات المرموزة عن طريق الأعصاب التي تربط الأذن بالدّماغ تنقلها إلى الدّماغ الذي ينقلها بدوره إلى عقل الإنسان الذي يقوم بتحويلها إلى مضامينها الحقيقيّة بمساعدة القوى الباطنيّة التي سبق لنا أنْ ذكرناها.

والذي يهمّنا من جميع ما ذكرناه هو أنْ نوضّح لك يا عزيزي القارئ بأنَّ الأصوات التي تصل إلى الأذن تصلها على أجنحة الهواء وموجات ذبذباته. فلولا هذا الهواء الذي يحمل الأصوات إلى آذاننا لكان وجود هذه الآذان لغواً لا فائدة منها. فالأذن والحال هذه على عظمة تصميم مُبدعها فقد شاء هذا المبدع الأعظم أنْ يصمّم هذه الأذن محتاجة وخاضعةً لقانون الاحتياج العام الطّبيعيّ. فلماذا فعل الله المبدع ذلك؟ إنَّ الملاحظ المستنبط من هذا الواقع هو أنَّ الله تعالى على حين أطلعنا على قدراته الخارقة فقد أطلعنا في الوقت نفسه على أنَّ الكمال للّه وحده ولا شريك فيه لشيء غيره وسواه.

<u>حاسّة الشّمّ</u>: ودَعْ عنك حاسّتي العين والأذن، وتعال إلى حاسّة الشّمّ. تلك الحاسّة التي تفرّق بواسطتها ما بين رائحةٍ عطرةٍ وما بين رائحةٍ كريهة. والتي تستعين بها على التّنقّل بين الأزهار والأشجار تستنشق خلالها عبير النّسيم العليل ومختلف أنواع الرّوائح التي تُنعش قلبك. والتي أفرز

الطّبّ الحديث أطبّاء مُختصّين بمعالجة الأنف وجراحتها. فإنْ أنت فَقَدْتَ حاسّة الشّمّ تعود لا ينفعك رشّ العطور على شعرك وثيابك ولا ينفعك تزيين فسحة دارك بزهور البنفسج والياسمين والزّنبق.

فهذه الحاسّة قد أبدعها مبدعها من العظمة بمكان لا تعرف نعمتها إلاّ إذا فقدتها. فهل تعمل هذه الحاسّة العظيمة من نفسها وبغير مساعدة أيّ عاملٍ مساعدٍ يساعدها على أداء وظيفتها؟ أقول: كلاّ؛ فإنَّ هذه الحاسّة تخضع هي أيضاً لقانون الاحتياج العام الطّبيعي المسنون لإثبات أنْ لا كمال إلاّ للّه المبدع الأعظم. فحاول أنْ تحذف يا عزيزي القارئ العطور وما تبثّه من روائح عطرة، واحذف الأزهار وما تنشره في الهواء من روائح عطرة، فتعود حاسّة الشّمّ عندك وكأنَّ وجودها لغوٌ ولا معنى لها. فحاسّة الشّمّ تستعين بشمّ الرّوائح نفسها التي بدونها لا تفعلُ شيئاً. وتعود وكأنَّها غير موجودة. فافرض أنَّك وأنت على فراشك وفي غرفة نومك شممتَ رائحة غاز. فإنَّك تنهض من نومك مسرعاً إلى مطبخك تتفحّص قارورة الغاز. فلولا أنَّ الغاز له رائحة فإنَّ هذا الغاز سيملأ أنحاء دارك ويتسبّبُ لك بويلاتٍ لا تُحمدُ عقباها. فرائحة الغاز أعانت أنفك على أداء وظيفته وتجنّبت بالتّالي ما كان سيسبّبه هذا الغاز من مآسي لا حاجة لذكرها. وعليه فلا أراك تنكر يا عزيزي هيمنة قانون الاحتياج العام الطّبيعيّ على حاسّة الشّمّ أيضاً.

<u>حاسَة اللّمس:</u> وافعل الآن ما فعلته من قبل، فَدَعْ عنك تلك الحواس الثّلاث التي تُمثّلها العين والأذن والأنف ودقّق في حاسّة اللّمس.

فأنت تفترق عن الجماد بحاسّة اللّمس هذه. فإنْ أنت تقدّمتَ من جدارٍ وسكبتَ عليه ماء بارداً فإنَّ هذا الجدار يحتمل ما فعلته معه، وكأنَّك لم تفعل شيئاً. وإنْ أنت سكبتَ على هذا الجدار ماء ساخناً فلا تجد أيّ تجاوبٍ من طرفه. على حين أنَّنا إذا سكبنا فوقك ماء بارداً تتأفّف وترتجف مفاصلك. وإنْ نحن سكبنا قليلاً من الماء السّاخن عليك تصيح مذعوراً ولا تعرف كيف تدفع عنك أذاه. فما هو السّببُ في هذا الفرق ما بين حال موقفك وحال موقف الجدار؟ السّببُ بسيطٌ جداً وهو أنَّ جسمك مزوّدٌ بحاسّة اللّمس على حين أنَّ الجدار محروم من نعمة هذه الحاسّة. فأنت تلمس الأشياء وتفرّق بواسطة حاسّة اللمس الخشن من النّاعم من الأجسام والمستدير من المسطّح والمجوّف من غير المجوّف. وكان إبداع اللّه الخالق لحاسّة اللّمس كان من العظمة إلى درجة أفرز الطّبّ الحديث أخصّائيين لمعالجتها وجراحتها. لأنَّ الإنسان الذي تتعطّل حاسة اللمس عنده يعود يحيا في حالة مأساويّة. والآن فاسأل نفسك: هل تعمل حاسّة اللمس العظيمة بدون عاملٍ خارجيٍّ يساعدها على أداء وظيفتها؟ أم أنَّها ليست بحاجة لهذا العامل المساعد وأنَّها تتّصف بعدم الاحتياج للعامل المشار إليه؟ ولا يسعك إنْ أنت وجَّهتَ هذا السّؤال إلى نفسك إلا أنْ تعترف بأنَّه لولا وجود أشياء ناعمة وأشياء خشنة وأشياء مسطّحة وأشياء مجوّفة تتلمّسها بيديك، فلا يعود لوجود حاسّة اللّمس في جسمك من معنى. وبالتّالي فتسلّم معي بأنَّ حاسّة اللمس لا تشذّ عن أخواتها من الحواس، فهي تخضع لقانون الاحتياج العام الطّبيعي أيضاً. فإن أنت أدركت هذه الحقيقة تعود توقنُ بأنَّ اللّه الذي

أبدع حاسّة اللمس في جسدك وأخضعها في الوقت نفسه لهذا القانون الطّبيعي كان مقصده تعالى أنْ يُشعرَ عباده باحتياجهم لخالقهم، وأنَّ الكمال للّه عزَّ وجلَّ وحده، وليس لأحدٍ سواه.

حاسّة الذّوق: وقس على هذه الحواس الأربعة التي ذكرناها حاسّة الذّوق لدى هذا الإنسان. فلماذا تتفنَّن العائلات في طهي مختلف الأغذية إلاّ لتحصل على ذائقاتٍ جديدةٍ وأنواع فوائدها أكبر من سابقاتها؟ فافرض يا عزيزي القارئ أنَّ لسانك أصيب بمرضٍ أفقده حاسّة الذّوق، فهل يعود بإمكانك التّمتّع بالطّعام؟ وهل يعود باستطاعتك التّفريق ما بين حلوٍ ومرٍّ وحَدٍّ ومالحٍ؟ بل هل يعود باستطاعتك التّفريق ما بين طعام صالح للأكل وما بين طعامٍ فاسدٍ اللّهم إلا إذا فقد الطّعام رائحته أيضاً؟ ولهذا السّبب أوجد الطّبّ الحديث أطبّاء مُختصّين بمعالجة ذائقة اللّسان وما تتعرّض له من أمراض.

والآن تعال فاسأل نفسك وابحث في موضوع ذائقة اللّسان هذه: فهل تعمل هذه الحاسّة من غير عاملٍ مساعدٍ يساعدها على أداء عملها؟ أم أنَّها تعمل وهي غير محتاجةٍ إلى العامل المساعد المشار إليه؟ فإنْ أنت تدبّرت هذا الأمر فستُدرك بأنَّ مهمّة اللّسان أنْ يقوم باكتشاف مستوى ملوحة الأشياء، فلو لم تكن الملوحة موجودةٌ فلا فائدة من الذّائقة. وستدرك أيضاً بأنَّ مهمّة اللّسان أنْ يقوم باكتشاف مستوى الحلاوة الموجودة في الأشياء، ولولا وجود الطّعم الحلو فلا تعود لذائقة اللّسان من فائدة. وستدرك أنَّ من مهمّة اللّسان اكتشاف الحموضة والحدّية في الأشياء ولولا وجودهما فلا تعود لذائقة اللّسان من مهمّة وفائدة. وعلى هذه الصّورة

وبهذا الأسلوب من التّدبّر والتّفحّص لمهمّة حاسّة الذّوق عند الإنسان تعود توقن بأنَّ حاسّة الذّوق لا تعمل هي بدورها أيضاً إلاّ بمساعدة عاملٍ مساعدٍ يساعدها على أداء عملها.

فإنْ أنت أدركت هذه الحقيقة تتساءل في حديث نفسك عن السّبب في ذلك كلّه؟ ولا تجد إجابة مقنعة إلاّ ما أطلعتك عليه سابقاً من أنَّ كلّ شيءٍ في هذا العالم المادّي يخضع لقانون الاحتياج العام الطّبيعيّ. وأنَّ الخالق جلّ شأنه قد أبدع حواس الإنسان وغيرها من الأشياء خاضعةً لهيمنة هذا القانون الطّبيعيّ الذي سنّه اللّه تعالى ليوقن هذا الإنسان المفكّر الذي يقلّب نظره في جميع أشياء هذا العالم أقول ليوقن بأنّه لا يوجد في هذا الكون المادّي شيء واحدٌ متّصفٌ بالكمال، وأنَّ الكمال هو للّه الواحد الذي أبدع هذا الكون المادّي.

وبعد الذي ذكرتُهُ وبيّنتُهُ لك فهل أحطت علماً يا عزيزي القارئ بمعالم هذه الحقيقة التي أطلعتُكَ عليها وهي أنَّ حواس الإنسان الخمس التي تنقل لدماغك المعلومات عن الأشياء من حولك والتي يوصلها دماغك إلى حاسوب عقلك الضّخم لا تكون مطابقةَ لواقع الأشياء إلاّ بمساعد هذه العوامل التي دللتُكَ عليها آنفاً. بسبب أنَّ كلّ شيء في هذا الكون ومن جملة تلك الأشياء حواسك الخمس فإنّهم يخضعون لقانون الاحتياج العام الطّبيعي. الأمر الذي يقتضي منك معرفة هذه الحقيقة ومراعاتها عند محافظتك على حواسك الخمس، لتغذية دماغك وتزويده بمعلومات صحيحةٍ كي يُعطيك أحكاماً سديدةً مستنداً في ذلك إلى معطيات موضوعيّة

حقيقيّة أيضاً. وبذلك يكون وعيك للأشياء كاملا غير ناقص. وهذا يساعد دماغك حينئذٍ على إمساكك عن قول أو فعل شيء مخالفٍ لحقائق الأشياء.

وأكون أنا بالتّالي قد أثبتُّ لك بدلائل قاطعة على أنَّ حواسّ جسمك هي بحاجة إلى عوامل مهمّتها أنْ تساعدها على أداء عملها. وبدون تلك العوامل المساعدة فلا تؤدّي هذه الحواس الخمس عملها. فإنْ نحن فرغنا من هذا كلّه تعود تسألني يا عزيزي القارئ عن العقل نفسه وتقول: ما دام عقل الإنسان جوهرٌ وقوّةٌ والقوى هي شيء من الأشياء فهل أنَّ عقل الإنسان غير خاضع لعمل قانون الاحتياج العام الطّبيعيّ أم أنَّه يخضع لهيمنة هذا القانون أيضاً وأنَّ العقل لا يعمل إلا بمساعدة عاملٍ أو أكثر ليتمكّن من أداء مهمّته على الوجه الأكمل؟ فإنْ كان عقل الإنسان بحاجةٍ إلى عوامل مساعدةً فهلا دللتني على تلك العوامل وحقيقتها وبشيءٍ من التّفصيل؟

وهنا أقول: ما بخلتُ عليك حتى اللّحظة ببيان أيّ شيءٍ يتعلّق بالعقل وعمله حتى أبخل عليك يا قارئي العزيز عند هذه النّقطة من السّؤال الذي طرحتَهُ عليّ. لذلك كان من الضّروريّ جداً إطلاعك يا عزيزي القارئ على هذا الموضوع الذي سألتني عنه أخيراً وبنوعٍ من التّفصيل لدافع أهمّيته.

الفصل الثّالث:

عوامل تساعد العقل على عمله

فإنْ أنت انطلقت يا عزيزي القارئ من أنَّ عقل الإنسان شيءٌ مخلوقٌ، وتذكّرت في الوقت نفسه حديثي عن قانون الاحتياج العام الطّبيعي وكيف أنَّه يشمل كلّ شيء في هذا الكون تدليلاً على وحدانيّة اللّه تعالى وكمال ذاته وصفاته. وأيقنت بصحّة وجود هذا القانون الطّبيعيّ المشار إليه. تعود تؤمن بضرورة أنْ يكون عقل الإنسان لا يعمل وحده، بل يعمل بمساعدة عوامل مساعدةٍ هو أيضاً وبما يشبه واقع حواس الإنسان الخمس التي لا تعمل بدون عاملٍ وسيطٍ يساعدها على عملها.

وقبل أنْ أحدّثك عن هذه العوامل التي تساعد عقل الإنسان على عمله ينبغي أنْ تلاحظ أمراً هو في غاية الأهمّية. وهو أنَّ حواس الإنسان الخمس تعمل على صعيدٍ واحدٍ على حين أنَّ عقل الإنسان يعملُ على أصعدةٍ ثلاثة.

وتوضيحاً لهذا الطّرح أقول: خذ حاسّة السّمع على سبيل المثال فإنَّها تنقل للعقل الأصوات التي تسمعها من حولها طوال يومها. لكنّها لا تقدر

على سماع أصوات الزّمن الماضي ولا أصوات الزّمن المستقبل. على حين أنَّ عقل الإنسان بإمكانه العمل على هذه الأصعدة الزّمنيّة الثّلاثة. ودونك حاسّة البصر أيضاً على سبيل المثال فإنَّ العين لا تقدر أنْ ترى إلاّ الأشياء من حولها لكنّها لا تقدر على رؤية الأشياء الماضية، ولا تقدر أنْ ترى الأشياء المقبلة في الزّمن المستقبل. ونفس هذا الشّيء ينطبق على حاسّة اللّمس فأنت تستطيع لمس ما يوجد من أشياء تعرض لك في يومك والواقعة تحت عينيك لكنّك لا تستطيع لمس أشياء وهي تحدث في الماضي. ونفس هذا ينطبق على حاسّة الذّوق وحاسّة الشّمّ فليس بإمكان الإنسان أنْ يتذوّق ما أكل الدّهر عليه وشرب ولا أنْ يشمّ رائحة الأزهار الفانية.

فهذا فرقٌ جوهريٌّ كائنٌ ما بين الحواس الخمس التي يكون عملها في إطار زمن الحاضر على حين أنَّ عقل الإنسان يكون عمله على مستوياتٍ ثلاثة هي مستوى الماضي ومستوى الحاضر ومستوى المستقبل أيضاً. فإن أنت وَعيتَ هذا الفرق الجوهريّ الكائن ما بين حواس الإنسان الخمس وما بين عقل هذا الإنسان يعود بإمكانك متابعة ما سأبيّنه لك حول العوامل التي تساعد العقل على أداء مهمّته على مستوى الزّمن الحاضر وعلى مستوى الزّمن الماضي وعلى مستوى الزّمن المستقبل، وإنَّ هذه الحقيقة تضطرّني للكلام بشكلٍ مستقلٍّ عن كلّ مستوى من هذه المستويات الثّلاثة.

أولاً ـ العامل المساعد على مستوى الزّمن الماضي:

فافرض أنّك يا عزيزي القارئ قد تساءلت عن تاريخ وجود هذا الإنسان في الأرض. فماذا تفعل؟ وهذا سؤالٌ لا تسأله أنت وحدك، بل

يسأله كلّ إنسانٍ مهما كان دينه ولغته وموطنه. بسبب أنَّ من طبيعـة الإنسـان أنْ يبحث عن أصله ومنشئه. فاليهوديّ والمسيحيّ يراجع ما آمن به من كتاب وهو العهد القديم. الكتاب الذي تكلّم كاتبه في السّفر الأوّل منه عـن آدم وحوّاء وكيف خلق الله تعالى إيّاهمـا في جنّة عدن. وكيف طردهمـا اللّه تعالى مـن تلك الجنّة إلى الأرض لمجرّد أنّهما أكلا من الشّجرة الممنوعـة، وبإغواءٍ من الحيّة الشّيطان. فهذه القصّة على شهرتها فقد أثبت العلـم الحديث بطلانها وزيفها وعدم صحّة مضمونها. تسأل: وكيف حدث ذلك؟ أقول باختصارٍ شديدٍ إنَّ علماء الغرب يهوداً كانوا أو مسيحيين حين تغلّب عليهم أسلوب التّفكير العلميّ وظهر من بينهم من طرح النّظريّة المادّية وأنَّ ما على الأرض قد نشأ من الذّرّة الماديّة وتطوّر إلى أنْ مرّت بلايين الأعوام، فنشأ عنها كلّ ما على الأرض من أشياء حيّة أو غير حيّة في أيامنـا هـذه شكلها وحالتها الطّبيعيّة المعروفة، فقد رفض علماء الغرب هؤلاء نظريّة الخلق التي طرحها السّفر الأوّل من التّوراة الحاضرة هذه التي يُسـمّونها (العهد القديم) وواجههم سؤال هل أنَّ هذا الكوكب الذي نعيش على سطحه مستوياً سطحه أو أنّه كرويٌّ كبقيّة السّيّارات؟ وطرح (غاليلو) نظريّة كون الأرض كرويّة، وخالفه في ذلك رجال الكنيسة وحكموا عليه بالزّندقة والإعدام إنْ هو لم يتُب ويرجع ويعتقد بأنَّ الأرض مسطّحة وأنّها تُشكّل مركز الكون كلّه وأمثال تلك الواقعات، وحدث من جرّاء ذلك أنْ ابتعد علماء الغرب في ذاك التّاريخ عن الفكر الكَنَسيّ والتّوراتيّ، وحدثت بنتيجة ذلك هذه النّهضة العلميّة الأوروبّية الحديثة التي نُعايشها.

فعلماء أوروبّة قد تبيّنوا فيما بعد ومن خلال تنظيم نظام الاستشراق وما أسفر عنه من نتائج أنَّ أهل الشّرق المسلمين قد أخذوا بالنّظريّة التّوراتيّة المتعلّقة بخلق آدم وحوّاء وأنَّ آيات كتابهم السّماويّ القرآن لم تخالف في مضامينها معطيات العهد القديم، بل أيّدتها. فهذه المعلومات توصّل إليها المستشرقون من خلال مطالعتهم لكُتُب المسلمين وتفاسيرهم المتعلّقة بهذا الموضوع، وبدون التّأكّد من صحّتها من معطيات آيات هذا القرآن الكريمً. على حين أنّي أثبتُّ بأنَّ قصّة آدم وحوّاء التّوراتيّة لا أصل لها في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم قد نبّهنا إلى أنَّ آدم كان أوّل نبيٍّ، ولم يكن أوّل إنسان على سطح الأرض.

والمهمّ في الأمر يا عزيزي القارئ هو أنَّ علماء القرن التّاسع عشر في أوروبة راحوا يجرون حفريّات هنا وهناك، وتبيّن لهم أنَّ الإنسان موجود منذ ملايين السّنين حتّى وتبنّوا نظريّة العالم (دارون) وذهبوا معه إلى أنَّ الإنسان يُمثّل مرحلة من مراحل التّطوّرٍ عن حيوانٍ ثدييٍ سبقه.

فأنت لابُدَّ وأنَّك قد لاحظت يا عزيزي القارئ ومن خلال هذا المثال الذي ذكرتُهُ لك، لابُدَّ أنْ لاحظت أنَّ عقول العلماء الأوروبيين قد استعانت بالمخطوطات من جهة. واستعانت بآثار تلك المستحاثّات التي عثرت عليها في مختلف أنحاء العالم. وهي تبحث عمّا يساعدهم للإجابة إجابةً صحيحةً عن السّؤال الذي طرحته أنت على نفسك، والذي يطرحه كلّ إنسان وهو: كيف وُجد هذا الإنسان على سطح هذا الكوكب الأرضي؟

وقد تزور يا عزيزي القطر العربيّ المصريّ وتشاهد الأهرامات وتتساءل عن تاريخ الفراعنة ؟ وهذا سؤال طرحه كلّ مَنْ زار مصر وشاهد الأهرامات وأبا هول بالذّات. فما هي وسائل معرفة تواريخ فراعنة مصر؟ وعلى أيّ أساسٍ كَتَبَ المؤرّخون تاريخ الفراعنة؟ الجواب تلاحظه يا عزيزي القارئ فيما اكتشف علماء الآثار من آثارٍ تركها فراعنة مصر قديماً. فقد اكتشفوا قبور فراعنة وملوك مصر القدماء. كما اكتشفوا كتابات على جدران تلك القبور وتمكّنوا من حلّ رموزها وأحرفها فهي الكتابة الهيروغليفيّة التي أصبحت في متناول علماء الآثار. ووجدوا عدداً من الفراعنة محنّطين في قبورهم، ففهموا من ذلك أنَّ عهد ملوك وفراعنة مصر القدماء عرفوا تحنيط الأموات. كذلك اكتشفوا معابد كانت تؤدّى فيها العبادات، وفهموا من ذلك أنّ قدماء مصر كان لهم دينٌ ومعتقدات خاصّة بهم. وما إلى ذلك من معلوماتٍ تتعلّق بالعلوم الأخرى التي اشتهر بها المصريّون القدماء. فهذه المعلومات التي حصل عليها علماء الآثار وعلماء اللّغات وعلماء التّاريخ وغيرهم إنَّما تحقّقت نتيجة للحفريات التي ما تزال تُجرى في أمكنة كثيرة من مصر. والذي يُستخلص من ذلك كلّه هو أنَّ المخطوطات القديمة إلى جانب ما تكشف عنه الحفريات من آثارٍ قديمة فإنَّ هذه جميعها هي أدواتٌ ووسائط لمعرفة ما كان قد حدث قديماً وفي شتّى بقاع العالم وبما يتعلّق بمختلف الأمم والشّعوب التي كانت تعيش على سطح كوكبنا الأرضيّ وفي مختلف حقب الأزمنة.

فهذه الأمثلة التي قدّمتُهَا لك يا عزيزي القارئ كان الغرض منها إشعارك بشكلٍ عمليٍّ ومن الواقع بأنَّ عقل الإنسان إنْ شاء صاحبه معرفة

مُجريات الأحداث الماضية فإنَّه يستطيع ذلك إنَّما بمساعدة عاملين مهمّين يساعدان عقله على العمل على تأدية وظيفته على مستوى الماضي وهما: المخطوطات وحصيلة المعلومات التي تكشف عنها الآثار القديمة التي تركتها الأمم الغابرة. أمّا إذا حاول أيّ إنسان أنْ يهمل المخطوطات القديمة والآثار القديمة واعتمد على قيل وقال، فإنَّ معرفته لا تكون حقيقيّة ولا يقينيّة، ولكنّها تكون معلومات ظنّية تؤثّر على عقله سلباً، ولا تؤثّر عليه إيجاباً، وتلعب حينئذٍ دوراً في تجميد ملكاته العقليّة مع مرور الزّمان. وعلى شاكلة السّيّارة لا يحرّكها إلاّ البنزين إنْ كان محرّكها يعمل على البنزين. فإنْ زوّدت هذا المحرّك بالماء فإنَّه يبدأ تظهر فيه أعطال وتزداد على مرّ الأيّام وتؤدّي في النّهاية إلى توقّفه عن العمل. وعلى هذه الصّورة أكون قد أطلعتُكَ يا عزيزي القارئ على العوامل المساعدة التي تساعد عقلك ليعمل على صعيد الزّمن الماضي. وأنتقل منه لأطلعك على العوامل المساعدة التي تساعد عقلك ليعمل عملاً صحيحاً على مستوى الزّمن الحاضر.

ثانياً ـ العامل المساعد على مستوى الحاضر:

وعندما أحاول الكلام عن هذا الصّعيد قد تستبقني وتقاطعني قائلاً: إنَّك عندما ضربت لنا رؤية الشّجرة على سبيل المثال فقد نبّهت إلى العامل المساعد الذي يساعد حاسّة الرّؤية على رؤية الأشياء من حولها وأخبرتنا بأنَّ ضوء الشّمس هو العامل المساعد لحاسّة الرّؤية على أداء عملها. ولم تتطرّق إلى عاملٍ استعان به العقل على إدراك الشّجرة. فكيف تأتي هنا لتضيف ما ستضيفه على تلك المعلومات من معلومات جديدة؟

فأقول لك في مجال الإجابة عن سؤالك هذا هو أنّني ضربتُ لك مثالاً كان من البساطة والبُعد عن الخفاء بمكان. أمّا الكلام على العوامل المساعدة على مستوى الحاضر فيتعلّق بتحصيل علمٍ من العلوم وليس برؤية شيء من الأشياء. فأنت ترى الطّيور تطير في كلّ مكان وترى الحيوانات الأليفة في أكثر من حديقة تزورها. وترى الحيوانات البريّة تجوب في القفار وفي السّهول والغابات. فهل إنَّ مجرّد رؤيتك للطّيور وللحيوانات الأليفة والحيوانات البريّة أقول هل تكفيك هذه الرّؤية العابرة وتلك المشاهدات لتعرف كيف تتناسل تلك الطّيور؟ وكيف تبني أعشاشها؟ ومتى تضع بيضها؟ وكم هي المدّة التي تمضيها الطّيور في عمليّة حضانتها لبيضها؟ وكيف تقوم بإطعام فراخها بعد عمليّة التّفريخ؟ وما هي المدّة التي تستغرقها عمليّة إطعامها لفراخها لتتمكّن تلك الفراخ من الطّيران على شاكلة ما تطير أمّهاتها؟ ودَعْ عنك الطّيور والتفتْ نحو الحيوانات البريّة فهل إنَّ مجرّد رؤيتك إيّاها تكفيك لمعرفة كيف تتوالد تلك الحيوانات؟ وكيف تربّي مواليدها؟ وكيف تمضي نهارها ولياليها وتحيط علماً بما هي الأغذية التي تحتاج إليها وتتغذّى بها؟ وما هي صلة جماعة كلّ حيوان بجماعات الحيوانات الأخرى وما إلى ذلك من معلومات خفيّةٍ عن أنظارنا؟ فسوف تردّ عليّ يا عزيزي القارئ وتقول: بإمكاننا مطالعة تلك المعلومات جميعها في تلك المؤلّفات التي بحثت تلك الأمور وزوّدتنا بها لمطالعتها والإحاطة بعلمها.

فأردّ عليك وأقول: إنَّك يا عزيزي القارئ ومن خلال إجابتك هذه تكون قد اعترفت بوجود علماء مُتخصّصين سعوا للوصول إلى تلك

المعلومات بأسلوبٍ معيّنٍ يختلف عن المشاهدات العابرة للأشياء. وهنا بيت القصيد. فمن الضّروري لنا جميعنا أنْ نعلم تلك الوسيلة التي عمد إليها هؤلاء العلماء وساعدتهم على تحصيل المعلومات اليقينيّة بما يتعلّق بالطّيور والحيوانات البرّية والحيوانات الأليفة وغيرها أولئك الذين كتبوا تلك المؤلّفات. وهنا تعود تلقي الكرة في ملعبي وتسألني وبإلحاح أنْ أختصر لك الإجابة وأطلعك على تلك الوسيلة. فأرتاح إلى أنَّك قلّبت هذا الأمر على أوجهه، وعُدت مُستعداً لسماع الإجابة التي تفيدك لمعرفة الوسيلة التي يستعين بها العقل لتحصيل العلم على مستوى الزّمن الحاضر.

1.الملاحظة: فأختصر لك الموضوع وأقول: حاول يا عزيزي القارئ متابعة المسلسلات التّلفزيونيّة التي تشاهد من خلالها كيفيّة تحصيل علماء الحيوان لمعلوماتهم بصورة يقينيّة. أ فلم تلاحظ كيف أنَّ كلّ عالم أو من ينوب عنه يُعدّ جميع الوسائل لملاحظة تحرّك الطّيور أو الحيوانات البريّة أو غيرها من الكائنات الحيّة؟ وكيف يتابعون نشر حلقات كل نوعٍ متّصلٍ بطيرٍ أو بحيوان معيّنٍ من بدء عمليّة التّفريخ إلى انتهاء زمن حضانته إلى تغذيته وإلى أنْ يعود الفرخ قادراً على الطّيران؟ فهذه العمليّات جميعها اعتمدت في حقيقة الأمر على مجرّد (الملاحظة) لمجريات تلك الأمور. ومن هنا عُدت تُدرك يا عزيزي القارئ بأنَّ (الملاحظة) هي إحدى الوسائل التي يعتمدها عقل الإنسان لتحصيل العلوم المتعلّقة بأجناس الطّيور وأجناس الحيوانات على اختلاف أنواعها وحتى بالملاحظة عُدنا نعلم كيف تقوم الأسماك والحيتان وسمك القرش وغيرها من الحيوانات البحريّة بجميع ما نريد معرفته

عنها أيضاً. فإنْ أنت اعتمدت هذه الوسيلة التي سمّيناها (الملاحظة) لمعرفة خفايا الأمور تعوّد عقلك على استعمال وسيلته هذه التي تؤمّن له معرفيّةً يقينيّة وتُبعد عنه العلم الظّنّي الذي إنْ هو تراكم في حاسوب عقلك يؤدّي في يوم من الأيّام إلى خللٍ فيه لا تُحمد عُقباه.

2.التّجربة: ولا تحسبنّ يا عزيزي القارئ أنَّ (الملاحظة) وحدها هي وسيلة العقل للوصول إلى علمٍ يقينيٍّ. بل إنَّ هناك وسيلة أخرى تساعد عقل الإنسان على تحصيل العلم اليقينيّ. فإنْ سألتني وما هي هذه الوسيلة الثّانية؟ فلا أسارع إلى إجابتك باختصارٍ، بل آخذ بيدك لأمرّرك بمراحل كي تعود تُدرك من نفسك هذه الوسيلة الثّانية العلميّة التي يعمد إليها عقل الإنسان لتحصيل علومٍ يقينيّة.

فإنْ أنت عُدت إلى مؤلّفات أجدادنا القدماء تلاحظ بأنَّهم كانوا قد اعتقدوا بوجود أربعة عناصر مادّيّة على حين أنَّ علماء العلم الحديث توصّلوا إلى وجود أكثر من مائة عنصر حتّى وأنَّهم سبقوا علماء القرن التّاسع عشر، فلم يعودوا ينظرون إلى الذّرّة المادّية على أنَّها أصغر جسيمٍ وجامد. لكنّهم توصّلوا إلى معرفة تركيب الذّرّة المادّية نفسها وما يزالون يبحثون ويطّلعون ويكتشفون عوالم جديدة من تركيبها المدهش. فإذا سألتني: هل استطاعوا تخطّي جميع تلك الحواجز التي تخطّوها على طريق معرفة تركيب الذّرّة المادّية بأسلوب (الملاحظة) التي كلّمتني عنها أم بطريقٍ آخر؟ فأجيبك وأقول: إنَّ هذا العالم الذّرّي لا يُدرك بطريق الملاحظة العلميّ، ولكنْ، يُدرك بطريقٍ آخر هو ما نسمّيه (التّجربة).

لاشكّ أنَّ العلم مستويات. فأبسطها تلك العلوم التي تصف الأشياء على حقيقتها الظّاهريّة. فعلوم الحيوان التي توصّل إليها العلماء بما يتعلّق بحياة الطّيور والحيوانات بمختلف أشكالها وأنواعها، فتلك العلوم حصلوا عليها بأسلوب الملاحظة العلميّ الذي تكلّمنا عنه. وعلى سبيل المثال فهناك النّحل بأنواعه والنّمل بأنواعه. فبأسلوب الملاحظة تمكّنوا من معرفة جميع تحرّكات النّحل، وكلّ ما يتعلّق به وبمملكته وبتركيبته الاجتماعيّة، وكيف يتكاثر، وكيف يصنع العسل. لكنّ هذه الملاحظة لكلّ ما ذكرناه لم يستطيعوا عن طريقها تفسير ما توصّلوا إليه من معلومات تفسيراً علميّاً، بل كان كلّ ما توصّلوا إليه يدور حول وصف كلّ شيءٍ لاحظوه ويمتّ إلى النّحل وإلى تحرّكاته وتكاثره وصنعه للعسل بصلة من الصّلات. أي أنهّ بالملاحظة قد تَشَكَّلَ لدى العلماء (علوم الحيوانات) المختلفة، لكنَّ تلك العلوم لم تفسّر الدّوافع التي تدفع النّحلة للقيام بما تقوم به. وهذه الحقيقة نفسها تنطبق على النّمل. فقد تَشَكَّلَ لدى العلماء علماً حول مملكة النّمل وبطريق الملاحظة العلمي، لكنَّ هذا العلم لم يساعدهم على تفسير تحرّكات النّمل ودوافع تكاثرها. من هنا فقد جاء دور الوسيلة الثّانية من وسائل العلم وهي (التّجربة).

فقد أجرى العلماء تجارب ليس على الكائنات الحيّة وحدها، بل وأجروا تجاربهم على المادّة نفسها التي تُرى من حيثُ ظاهرها جامدة، وكأنَّها تخلو من الحياة. وقبل أنْ أقوم بإعطاء القارئ فكرةً عن التّجارب المادّية أرى أنْ أطلعه على ما قاموا به من تجارب على دبيبة النّمل. وكيف أمكنهم تفسير سرّ تحرّكات النّمل وتكاثره.

فمن المعلوم لدى كلّ إنسان أنَّ اللّغــة تلعـب دوراً هامّاً فـي حيـاة أفـراد الجنس البشريّ. فهي تُشكِّل وسيلةً هامّة من وسائل اتّصـال الأفـراد بعضـهم ببعضهم الأخر. فاللّغة هي في حقيقتها وسيلة تخـاطبٍ وتفـاهم وأداة تعبيـر عن العواطف التي تجيش في صدور الأفراد وآرائـهم ومعتقداتـهم فـإنْ نحـن ذهبنا في رأينا إلى أنَّ للطّيور والحيوانات والنّحل لُغـات تخـاطبٍ عـن طريـق الأصوات التي تصدر عنها. فقد تبيّن للعلماء أنَّ دبيبة (النمـل) لا توجـد لـها حبال صوتيّة في فمها كبقيةّ الكائنات الحيّة حتّى تتخاطب بالأصوات. وهذه الحقيقة تعني بألفاظٍ أخرى أنَّ دبيبة (النمل) لا تملك لغة تفاهمٍ تساعدها على التّفاهم فيما بينها كما هو حـال الإنسـان وبقيّـة الكائنـات الحيّـة. وعليـه فقـد أجرى العلماء (تجارب) على النّمل وإفرازاته وتوصّلوا بنتيجـة تجاربـهم هـذه إلـى وجـود لغـة تفـاهم كيمياويّـةٍ لـدى النّمـل، وقـد يدهـش القـارئ لسـماع مصطلح (لغة كيمياويّة). لكنْ؛ لا ينبغي أن يدهش فقد اكتشف العلماء نتيجة التّجارب الطّويلة التي أجروها في هذا الموضوع إلى اكتشاف أنَّ المسـتعمرات التي يقيمها (النمل) تتكوّن من سراديب متشعّبة يغشاها الظّلام الدّامس على الدّوام وبحيثُ لا تتمكّن النّملة مـن تمييـز نملـة عـن نملـة داخـل تلـك الممرّات والدّهاليز. وهذا الواقع يعني بألفاظ أخرى أنَّ تبادل الإشارات ما بـين النّمـل معدوم هناك في ذاك الظّلام الحالك. لذلك تساءل العلماء عن وجود وسيلة تفاهم أخرى لا بدّ موجودة بين النّمل. وبعد إجراء التّجـارب المختلفـة تمكّـن العلماء خلال العقدين الأخـيرين مـن القـرن العشـرين مـن اكتشـاف (شيفرة تفاهم كيميائيّة) خاصّة بالنّمل. إذ تبيّن أنَّ أفراد النّمل مزوّدون بنظامٍ متطـوّرٍ

من الغدد يتوزّعُ على جميع أجزاء جسد النّملة الواحدة. ومن أهمّ إفرازات تلك الغدد إفراز مادّة كيميائيّة يتركها النّمل على الأرض أثناء سيره تساعد الشّغّالات من النّمل على تحديد اتّجاهها خلال تنقّلها من مكان إلى آخر. وقد أطلق العلماء على تلك المادة الكيماويّة (مادّة الأثر) ولم يستطع العلماء معرفة تركيب تلك المادّة الكيماويّة حتّى الآن. أمّا آليّة فرز تلك المادّة المشار إليها فقد تبيّن من خلاله أنَّ النّملة الشّغّالة ما إنْ تعثر على الغذاء المطلوب أثناء تجوالها، فإنّها تحمل ما استطاعت حمله من الغذاء وتقوم أثناء عودتها بفرز (مادّة الأثر) على الطّريق الذي سارت عليه عائدة إلى مكان انطلاقها. وبذلك تكون قد رسمت لغيرها خطّ السّير الصّحيح وعلى شاكلة ما تفعله إدارة المرور في منتصف الطّريق الصّحراويّة. ومن ثمّ تقوم شغّالات النّمل بتتبُّع (مادّة الأثر) هذه لجلب الغذاء ودون إدراكٍ ووعيٍ لما تفعله. علماً بأنَّ (مادّة الأثر) المذكورة سريعاً ما تتبخّر ويضيع أثرها بمرور الوقت وخلال دقيقتين تقريباً. والحكمة من سرعة تطايره أنَّ هذا يمنع تداخل الآثار القديمة بالآثار الحديثة، وبذلك فلا تختلط المعلومات على النّمل خلال سيرها لتحصيل الغذاء التي اكتشفت وجوده. فإذا لم تتمكّن الشّغّالات من نقل جميع الغذاء الذي عثرت عليه وخلال الدّقيقتين المذكورتين تقوم إحداهنّ بفرز (مادّة الأثر) من جديدٍ على نفس خطّ السّير. والذي تبيّن للعلماء أيضاً أنَّ لكلّ نوعٍ من أنواع النّمل موادّه الكيميائيّة الخاصّة به لفرز (مادّة الأثر) المطلوبة.

وقد يداهم الشّغّالات من النّمل خطرٌ ما فماذا تفعل؟ فلقد تبيّن للعلماء أيضاً بأنَّ هذه الشّغّالة التي أحسّت بالخطر تُفرز مادّة كيماويّةً أخرى من غدّةٍ

أخرى أطلق العلماء عليها (مادّة الإنذار بالخطر). وقد أقدم العلماء على فحص مادّة الإنذار المشار إليها، فتبيّن لهم أنَّها موادّ بسيطة التّركيب وذات وزن جزيئي صغير ومن أمثلتها (السّترال، والسّترونيلال والهبتانون والدّندرولاسين). كما تبيّن للعلماء أنَّ مادّة الإنذار هذه لا تُشكّل خطراً على الإنسان ولا تثير فيه شيئاً من الأشياء. بل وتعطيه مواد ذات رائحة عطرة. وقد وضّحت تلك التّجارب والمعلومات الفرق الهائل الكائن ما بين إحساس الإنسان بما يحيط به من مواد وما بين إحساس مختلف الحيوانات بالمحيط التي تعيش فيه. كما تبيّن للعلماء أنَّ أثر (مادّة الإنذار) الكيماويّة تتلاشى بعد ما لا يزيد عن ثمانية ثوانٍ أو أكثر بقليل. فمن خلال تلك التّجارب والمعلومات عاد من السّهل أنْ نفسّر تحرّكات (النمل) حيث كان.

وعلى هذه الصّورة وبهذه الوسيلة الثّانية التي سمّيناها (التّجربة) تمكّن العلماء من معرفة لُغة التّخاطب التي يتخاطب بها النّمل. وليس هذا وحسب، بل وكما قلت فإنَّ جسم النّملة يشتمل على عدّة غدد بالإضافة إلى الغدّتين اللتين تكلّمنا عنهما. فهناك غُدّة يفرزها النّمل يدعو عن طريقها النّمل إلى التّجمّع في مستعمرة النّمل المشتملة على الأنفاق والسّراديب. وهناك غدّة يفرزها النّمل تدعوهم إلى تناول الغذاء. وهناك غدّة يفرزها النّمل تدعو إلى الاهتمام بملكة النّمل وبصغارها. فإذا قضت نملةٌ نحبها تُطلق عند موتها مادّة إنذار خاصّةٍ بموتها فيسرع النّمل حينئذ إلى التّخلّص من جثّتها ولإلقاء الجثّة خارج مستعمرة النّمل. كما تبيّن للعلماء أنَّ عمليّة تحلّل جسد النّملة كيماوياً لا يبدأ إلا بعد انقضاء يوم أو يومين على موتها.

ولا تُعتبر المواد الكيميائية المفرزة التي تكلّمنا عنها هي الوحيدة التي يستخدمها النّمل، بل تبيّن أنَّ هناك ما يقرب من عشرة مركّبات كيميائيّة أخرى يستخدمها النّمل لتنظيم جميع أعماله الأساسيّة الهامّة في مستعمرته. وهكذا فإنَّ العلماء تمكّنوا بوسيلة الملاحظة إلى جانب دعمها بوسيلة التّجربة أقول تمكّنوا من اكتشاف ما ظلّ مبهماً ما ظلّ مبهماً في أذهانهم، ولم تساعد الملاحظة وحدها الإجابة عنه. وقس على موضوع (النمل) مواضيع الكائنات الحيّة الأخرى وهي أمثلةٌ لا مجال للكلام عنها في هذا المقام دفعاً للإطالة.

وبعد أنْ فرغت من تقديم مثال دبيبة (النمل) والتّجارب التي أجراها العلماء حول تصرّفاتها ولتفسير تلك التّصرّفات تفسيراً علميّاً. أعود بالقارئ الكريم إلى عالَم المادّة التي تبدو في ظاهرها جامدةً لا حراك فيها وكيف أنَّ تضافر (الملاحظة) مع (التّجربة) في موضوعها أفاد في اكتشاف تركيب الذّرّة المادّية نفسها وتصنيع ما لم يكن في حسبان الأمم الماضية أنْ تظهر هذه الاكتشافات إلى حيّز الوجود.

فإنْ أنت راجعت يا عزيزي القارئ ما كتبه العالم (إسحاق نيوتن) **Isaac Newton** =7= وهو من مشاهير القرن التّاسع عشر عن المادّة وجزيئاتها تلاحظه قد قال إنَّ المادّة مكوّنة من:

"جسيمات كبيرة وصلبة ومتحرّكة وغير قابلة للتّجزئة وذات أحجام وأشكال مختلفة."

وقد أضاف العالم المذكور يقول:

"إنَّ التّغيّرات التي تطرأ على الأشياء المادّية تقتصر على مختلف عمليّات انفصال هذه الجسيمات الثّابتة وعلى عمليّات اتّحادها وحركاتها الجديدة."

وقد اصطبغت أفكار علماء القرن التّاسع عشر في أوروبّة بصبغة هذه المطروحات التي طرحها العالم نيوتن على صعيد المادّة الجامدة. ومضوا وهم متفائلين بأنَّ القرن العشرين سيكمل ما بدؤوه من مساعي علميّة مستندة إلى فهم العالم نيوتن ومنهجيّته. لكنّه ما إنْ أطلّ عام **1911** ميلادي إلا وظهر العالم (ايرنست رذرفورد) **Ernest Rutherford** الذي أثبت بطريق التّحليل والتّجربة أنَّ الذّرّة تتكوّن من نواةٍ متناهيةٍ في الصّغر ويحيط بها حشدٌ من الإلكترونات. وإنَّ هذا الكشف نسف ما كان العالم نيوتن قد طرحه من أفكار من قبل وعادت أفكار نيوتن من قبيل الأفكار غير النّاضجة. ويذلك تخلّى علماء القرن العشرين عن نظام نيوتن على المستوى الذّرّي. وبدأ نتيجةً لذلك عصر جديد. وإنَّ هذه الثّورة المشار إليها قد حدثت بفضل التّجارب الكيميائيّة بالإضافة إلى ظهور علومٍ جديدةٍ كعلم (ميكانيكا الكمّ) والنّظرية النّسبيّة التي نادى بها العالم آينشتاين المعروف.

3.الاستنتاج: واعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ للملاحظة وللتّجربة نتائجهما على مختلف المستويات. فأنت حين أحطت علماً بكلّ ما يتعلّق بدبيبة النّمل بأسلوب الملاحظة العلميّة وبمساعدة التّجربة العلميّة أيضاً وحصلت على ما حصلت عليه من علمٍ وحقائق علميّة. فأنت لا تقف عند

هذا الحدّ من العلم إنْ كنت باحثاً ومفكّراً، بل تخطو بعدها خطوة ثالثة وهي ما نسمّيه (الاستنتاج) بمعنى أنّك تستنتج من جميع ما حصلت عليه من علم نظريّةً عامةً، وهي أنَّ الكائنات الحيّة غير الإنسان لا تملك (عقلاً) على شاكلة ما يملكه الإنسان من (العقل). وأنَّ تلك الكائنات الحيّة غير الإنسان تتصرّف في حياتها اليوميّة تصرّفاً (غريزيّا) أي تصرّفاً مغروزاً ومطبوعاً في أدمغتها وبشكلٍ طبيعيّ. وعليه فالملاحظة والتّجربة والاستنتاج هما الدّعامات الثّلاثة التي تقوم عليها جميع العلوم الحديثة التي ظهرت في القارّتين الأوروبيّة والأمريكيّة وغيرها من البلدان. وهي حقيقة لم تكن كاملة المعالم في القرن التّاسع عشر هناك في تلك البلدان.

وعلى هذه الصّورة فإنَّ الإنسان الباحث العالم إذا لم يلتزم بهذه الطّريقة العلميّة القائمة على الملاحظة والتّجربة والاستقراء فيما يقوم به من أبحاث معرفيّة لا يكون عالماً حقيقيّاً، ولا تصلُ أبحاثه إلى مستوى العلم اليقينيّ. والذي بات معروفاً هو أنَّ إنسان القرن العشرين تمكّن عقله بذريعة الملاحظة والتّجربة والاستنتاج من اكتشاف التّركيب الذّرّي وما لحقه من علومٍ وقوانين وآليّات واختراعات وتقنيّات أدهشت العالم وجعلته يشعر أنّه في عالمٍ من الأحلام. فاختراق أجواز الفضاء والوصول إلى الكواكب الأخرى السّيّارة ووسائل التّدمير الفتّاكة ووسائل النّقل والإعلام والاتّصالات اللاسلكيّة كلّ هذا استند في الأساس إلى هذه الرّكائز الثّلاثة التي ذكرناها وهي: الملاحظة والتّجربة والاستنتاج هذه الوسائل التي تساعد عقل الإنسان ليعمل على الوصول إلى علومٍ يقينيّةٍ بعيدةٍ عن الظّنّ والخيال.

ثالثاً ـ العامل المساعد على مستوى الزّمن المستقبل:

وحين أبدأ بالكلام عن العامل المساعد الذي يساعد عقل الإنسان على مستوى زمن المستقبل. قد يذهب ظنّ القارئ الكريم إلى أنّي سأحدّثه عن عامل الرّصد الجوّي الذي ينبئ عن الأحوال الجوّية الآتية. أو أنّي سأحدّثه عن التّنجيم أو عن قراءة الكفّ أو عن الأبراج وغيرها من الوسائل التي يحاول بعض النّاس التّنبّؤ بواسطتها عن المستقبل. لكنّه يخطئ الظّنّ في هذا المجال. لأنّ عامل الرّصد الجوّي لا يدخل في موضوع المستقبل الذي أحدّثه عنه. بل يدخل في موضوع التّقنيّات التي حصل عليها الإنسان في زمنه والتي استندت إلى الملاحظة والتّجربة والاستنتاج.

وعليه فأنا أقصد من كلمة المستقبل صيغة اسم المفعول وتعني الزّمن الآتي بعد الحال. وهذا الزّمن الآتي بعد الحال مستمرٌّ مادام هذا العالم قائماً ويستمرّ بعد زواله أيضاً. والذي أقصد من الكلام عنه هو مدى قدرة عقل الإنسان على استقراء الأحداث المقبلة بصورة يقينيّة في هذه الحياة الدّنيا وفيما بعد زوالها أيضاً.

وبكلمة مختصرةٍ فما هي إمكانيّة عقل الإنسان التي تؤهّله لإدراك ما وراء المحسوسات وما وراء الملموسات وما وراء المشمومات وما وراء المسموعات وما وراء المتذوّقات في الزّمن القادم؟هذه الحواس الخمس التي تنقل المعلومات إلى العقل عمّا يحيط بصاحبه من أشياء؟ فهل هناك عاملٌ

يساعد عقل الإنسان ليطّلع بواسطته على معرفة أشياء غائبة عنه وتدخل فيما غاب عن حواسه الخمس غير الآثار والمخطوطات والملاحظة والتّجربة والاستنتاج التي أتيت على ذكرها جميعها حتّى الآن؟ فأقول لقارئي الكريم: أجل يا عزيزي القارئ هناك عامل يصحّ أنْ نُسمِّيه (عامل الوحي السّماويّ). هذا العامل الذي رافق عمليّة خلق اللّه لهذا الإنسان والذي ساعد الإنسان في مجال معرفة كلّ ما يريد معرفته وعمّا هو غائب عن ناظره وعن سمعه وعن إحساسه، هذا العامل الذي لولاه لظلّ هذا الإنسان يرزح تحت وطأة عصوره الحجريّة حتّى اليوم. وأقصد بكلمتي (الوحي السّماويّ) الكلام الذي ما فتئ خالق هذا الكون المادّي ينزله على أفرادٍ متميّزين من أفراد الجنس البشريّ لتطوير هذا البشر ولإطلاع أفراده على وجود ربّهم وعلى المقصد من خلقهم وعلى كيفيّة تعاملهم مع ربّهم ومع بني جنسهم ومع باقي المخلوقات من حولهم.

فالمرء يخشى بطبعه ما يحمله إليه المستقبل من مفاجآت. فإنْ كان طالباً وأدّى الامتحان المدرسيّ يعيش قلقاً على مستقبله، أهو سينجح ويشقّ طريقه على طريق التّقدّم أم أنّه سيسقط في الامتحان ويحتاج إلى سنة جهدٍ جديدة يعوّض بواسطتها ما فاته؟ وإنْ كان تاجراً فهو يعيش دوماً قلقاً على مستقبله التّجاريّ. وإنْ كان سياسيّاً يقلق على مستقبله السّياسيّ. وإنْ كان يريد الزّواج يخشى أنْ يتزوّج فلا تكون رفيقة حياته كما يحبه ويشتهيه. وإذا مات لإنسان إنسانٌ عزيز عليه لا يتألّم لموته وحسب، بل إنَّ موت هذا الصّديق يذكّره بأنَّ الموت حقٌّ على كلّ إنسان ويدفعه شعوره هذا ليتساءل

هل أنَّ الحياة تمتدّ بعد الموت بلباس جديدٍ أم أنَّ الحياة تنتهي بموت هذا الإنسان؟ وهذا هو الأمر في جميع المجالات. والذي يؤكّد هذه الحقيقة التي ذكرتها هو رواج أسواق المنجّمين والمشعوذين وقرّاء الكفّ وقرّاء الأبراج وكما هو حادث وجار في جميع أقطار الأرض.

وعليه فإنَّ القيام بمحاولة معرفة ما يحمله المستقبل في ضمنه لأيٍّ فردٍ كان من البشر هو أمرٌ ليس بغريبٍ عن هذا الإنسان، بل يدخل في صلب طبيعته البشريّة الضّعيفة. وإنَّ الوسيلة الطّبيعيّة التي توازي ما ذكرناه من وسائل تعمل مساعدة على صعيد الماضي وعلى صعيد الحاضر فهي تلك الوسيلة التي جعلها اللّه الخالق جلّ شأنه وسيلة معرفة المستقبل والتي سمّيناها (الوحي السّماويّ).

فلا تعجب ممّا سمعته منّي يا عزيزي القارئ ولا يُدهشك هذا الطّرح الذي غاب عن الأذهان لاعتقاد بعضهم بانقطاع نزول الوحي السّماويّ بعد بعثة محمّد المصطفى (خاتم النّبيّين) صلّى اللّه عليه وسلّم ولاعتقادهم هذا الاعتقاد خلافاً لمعطيات آيات الذّكر الحكيم. ذلك أنَّ القرآن الكريم لم يربط نزول كلام اللّه جلّ شأنه بمقام النّبوّة وحده ولا بالرّسل والنّبيّين. بل ربط اللّه عزَّ وجلَّ موضوع نزول وحيه السّماويّ في كتابه العزيز بالبشر بصورة عامّة، وقيّده بقيد تقوى اللّه تعالى وخشيته وإجلاله وذلك في التّعاليم التي أنزلها على محمّد الرّسول الصّادق الأمين.

وهنا لا أراك تتباطأ يا عزيزي، بل وتطالبني بدليل مصداقيّة ما ذكرتُ. فأقول: أولم تتلُ آيات سورة الشّورى وتلاحظ كيف أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد

قدّم للآيتين الأخيرتين من آياتها وفي الآية **51** بالذات؟ حيثُ قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾؟ فبتدبّر هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره ندرك بأنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد حصر كلامه في هذه الآية الكريمة بالبشر بصورةٍ عامّة، ولم يحصره بالأنبياء والمرسلين بصورة خاصّة. وما دام اللّه تعالى قد نوّن كلمة (بشرٍ) في هذه الآية الكريمة، والتّنوين يفيد التّعظيم، يكون اللّه تعالى قد أشار من خلال هذا التّنوين إلى أنّه يكلّم من جنس البشر كلّ مَنْ كان عظيماً غير ضالٍّ عن طريق محبّة اللّه وقربه ورضوانه. فلو كان الوحي مقصوراً على الأنبياء والمرسلين لكان اللّه تعالى قد قال: ما كان اللّه يكلّم نبيّاً أو رسولاً إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسلَ رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء؛ إنَّه عليٌّ حكيم.

فإنْ أنت قمت بتدبّر هذه الآية الكريمة تلاحظ يا عزيزي أيضاً كيف أنَّ اللّه تعالى بيّن لنا من خلالها أقساما ثلاثة من أقسام إنزال وتلقّي كلام ربّنا عزَّ وجلَّ:

فالقسم الأوّل: عبّر اللّه تعالى عنه بقوله (إلاّ وحياً) علماً بأنَّ (الوحي) يعني إعلاماً في خفاء فتقول: أوحى اللّه إلى فلان الكلام، ومعناه كلّمه خفيّاً (محيط المحيط).

والقسم الثّاني: عبّر اللّه تعالى عنه بقوله (أو من وراء حجاب) علماً بأنَّ كلمة (حجاب) تعني السّتر وكلّ ما احتجب عن الإنسان من نفس بشريّة وغيرها به (محيط المحيط). فنفس الإنسان محتجبة عن الأنظار بهذا الجسد.

فإذا انطلقت هذه النّفس من إسار جسدها في حالة النّوم يعـود بارئـها يوحـي إليها ما شاء أنْ يوحـي إليـها وهـي من وراء حجـاب. أي مـن وراء حواسّـها الخمس التي تتّصل عن طريقها بالعالم الماديّ من حولها. وعليه فالرّؤيا المبشّرة هي من قبيل وحي اللّه تعالى إلى صاحب هذه الرّؤيا المبشّرة من وراء حجاب. علماً بأنَّ الرّؤيا المبشّرة تتضمّن على وجه العموم أنباء غيبيّة مبشّرة.

والقسم الثّالث: عبّر اللّه تعـالى عنـه بقولـه (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) علماً بأنَّ الملائكة هي رُسُل اللّه تعالى إلى عباده، وكما يـدلّ على ذلك اسمها. فكلمة (ملك) اشتقّت من (ألكَ) فأنت تقول: ألك فـلانٌ بين القوم معناه ترسّل. واشتقّت من (لأكَ) فأنت تقول: لأكَ فلانٌ الخبر إلـى فلان ومعناه أبلغه إيّاه. وعليه فالملك جبريل هو الـذي كـان ينقـل كـلام اللّه تعالى إلى محمّدٍ بن عبد اللّه ورسوله وكما هو معروف من سيرة النّبيّ ﷺ.

ولاحظ يـا عزيـزي أيضـاً كيـف أنَّ اللّه عـزَّ وجـلَّ قـد أنـهى هـذه الآيـة المذكورة معلّلاً ضـرورة وأهميّة وجـود هـذه الأقسام الثّلاثـة المتعلّقـة بـإنزال وتلقّي كلام اللّه عزَّ وجلَّ فقال: (إنّه عليٌّ حكيم) أي أنَّه تعالى أكّـد بحـرف التّأكيد (إنَّ) على موضوع علوّ مقام اللّه تعـالى وبُعْـد ذاتـه عـن هـذا الوجـود الماديّ لجسم الإنسان الأمر الذي اقتضى أنْ يكلّم اللّه تعالى البشر مـن خـلال هذه الأقسام الثّلاثة هذا مـن جهـة. فمعنـى (العلـوّ) هـذا دلّ عليـه قـول اللّـه تعالى في الآية الرّابعة من سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. علماً بأنَّ اللّه تعالى لـم يعيّـن لنـا هـل أنَّ مـدّة (خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) هـي بحسـاب سـنتنا المؤلّفـة مـن اثنـي عشـر شـهراً أم أنَّـها

بحساب السّنة الضّوئيّة. كذلك أكّد اللّه تعالى على رفعته وشرفه وعلى فائق قوّته من جهة ثانية من باب أنَّ كلمة (العليّ) تعنـي المرتفع والرّفيع والشّديد والقوي والشّريف (محيط المحيط).

كما أكّد اللّه تعالى على أنَّه يتّصف بصفتـه (الحكيـم) في سياق تعليل هذه الأقسام الثّلاثة من أقسام كلام اللّه تعالى مع عباده المتميّزين بتقوى اللّه عزَّ وجلَّ. وإنَّ كلمة (الحكيم) معرّفة بالألف واللام تعني صاحب الحكمة المتقن للأمور، ولا يسمّى الموجود حكيماً حتّى يجمع العلم والعمل، ويكون صاحب الحجّة القطعيّة المسمّاة بالبرهان (محيط المحيط) فإلى هذه المعاني دلّت صفة اللّه (الحكيم) التي علّل جلّ شأنه بواسطتها لجوءه إلى إيجاد هذه الأقسام الثّلاثة من أقسام كلام اللّه مع عباده الأطهار.

فهذه الآية **51** من سورة الشّورى تتضمّن في حقيقة أمرها الدّليل القاطع على أنَّ كلام اللّه تعالى لا يقتصر على الأنبياء والمرسلين، ولكنّه يشمل كلّ إنسانٍ تقيٍّ عاملٍ على تعاليم ربّه جلّ شأنه. ولكنّ اللّه تعالى يكلّم كلّ واحدٍ من هؤلاء الأطهار على قدر ما يحتلّ من منزلةٍ عند ربّه عزَّ وجلَّ فيكلّمه إمّا وحياً أي مباشرةً وفي خفاء، وإمّا أنْ يكلّمه من وراء حجاب وهذا يشير إلى الرّؤى الرّحمانيّة المبشّرة التي يراها النّائم في منامه أو التي يراها في حالة من اليقظة وهو ما اصطلح له العارفون باللّه تعالى والمجرّبون لتلقّي هذا النّوع من الرّؤى الرّاقية عليه مصطلح (الكشف الرّوحاني). وإما أنْ يكلّم اللّه تعالى عبده بأنْ يرسل إليه من ملائكته جبريل فيوحي إلى هذا العبد ما شاء اللّه تعالى أنْ يكلّمه به. وهذا القسم الثّالث من

الكلام الربّاني هو أرقى أقسام كلام اللّه تعالى مع عباده بسببِ أنَّ جبريل يأتي بوحيٍ لفظيٍّ وكما حدث مع محمّد رسول اللّه ﷺ فجبريل قد أتى بآيات هذا القرآن العظيم.

والآن أحاول أنْ أُعطي القارئ العزيز نبذة ممّا تلقّاه محمّد رسول اللّه ﷺ من وحيٍ أطلعَه فيه اللّه جلّ شأنه على أمور تتعلّق بالزّمن المستقبل، وأثلجت فؤاد محمّدٍ، وثبّتت أقدامه، ودفعته ليبلّغ رسالة ربّه عزَّ وجلَّ بلا خوفٍ ولا وجلٍ وبكلّ ثقة وأمان.

فمن المعلوم أنَّ محمّداً بن عبد اللّه ﷺ عندما أعلن أمام قومه أنَّه نبيّ ومرسلٌ من قِبَلِ ربّ العالمين ونادى بتوحيد اللّه عزَّ وجلَّ هاج قومه عليه بسبب أنَّهم كانوا يعبدون الأصنام المصفوفة في حرم الكعبة المشرّفة والذي يراجع أحداث تلك الأيّام يتبيّن له أنَّ اليهود كانوا من المحرضين على قتل محمّد ﷺ أيضاً. فرجلٌ أمّيٌّ ويتيمٌ وكان عالة على عمّه ولا نصير له وقد جعله اللّه عزَّ وجلَّ مرسلاً إلى قومه وهو على فوهة ذاك البركان من الهياج والرّفض والمقاومة بسبب ما أتى به قومه من أفكارٍ ومعتقدات مخالفة لأفكارهم ومعتقداتهم كان من الطّبيعيّ جداً أنْ تنتابه مختلف الأفكار بما يتعلّق بمستقبله وبمستقبل رسالته. ففي تلك الأيّام العصيبة التي تهدّ الجبال أوحى اللّه عزَّ وجلَّ إلى نبيّه الكريم فكلّمه وقال في الآية 67 من سورة المائدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وهذا الكلام الإلهيّ تضمّن أمراً موجّهاً إلى محمّد رسول اللّه ﷺ نفسه بضرورة الاستمرار بعمليّة تبليغ رسالة ربّه عزَّ وجلَّ مع التّلويح بعاقبة ذلك إنْ هو ﷺ توقّف عن الاستجابة لأمر ربّه عزَّ وجلَّ. وقد تضمّن هذا الأمر الإلهيّ وعداً من جانب اللّه جلّ شأنه ونصُّه القرآنيّ (وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ) فما هي دلالة هذا الوعد الإلهي؟ تقول: عصم فلانٌ الشّيء معناه منعه. كما تقول: عصم اللّه فلاناً من المكروه معناه: حفظه ووقاه. (محيط المحيط) وعليه فإنَّ وعد اللّه تعالى (وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ) معناه أنَّ اللّه تعالى قد وعد محمّداً رسوله أنْ يحفظه ويقيه شرور وأذى النّاس الذين يتصدّون له ولرسالته. وبألفاظٍ أخرى فإنَّ محمّداً بعد أنْ تلقّى هذا الوعد الإلهيّ اطمأنت نفسه وما عاد يخشى أحداً من أعدائه؛ لأنّه قد عاد في حراسة ملائكة اللّه عزَّ وجلَّ ليقينه بأنَّ اللّه الذي وعده لا يخلف الميعاد، وهو على كلّ شيءٍ قدير. وقد أثبتت الأيّام مصداقيّة هذا الوعد الإلهيّ.

فمن خلال هذا المثال الذي ذكرناه تتجلّى أهمّية اطّلاع الإنسان على أحداث الزّمن المستقبل. فهذا الوعد الإلهيّ المشار إليه أثلج فؤاد محمّد رسول اللّه ﷺ فما عاد بعده يخشى أذى أحدٍ من أعدائه، وأخذ يتقدّم بقدمٍ ثابتةٍ وباطمئنانٍ أثبتت عدّة أحداث تاريخيّة مصداقيّته. فتذكر يا قارئي العزيز يوم وصل محمّد وصاحبه أبو بكرٍ غار ثور، وكيف لحق بهما كفار مكّة، ولاحت أقدام هؤلاء الذين يطاردون محمّداً لقتله، كما أخذت صيحاتهم وكلماتهم ترنّ في أسماع محمّد وصاحبه حتى خشي أبو بكر الصّدّيق على محمّد رسول اللّه منهم. لكنّ محمّداً وقد لاحظ مشاعر صاحبه ابتسم وقال

له بكلّ هدوء أعصاب: لا تحزن إن اللّه معنا. وهل ينطق بهذه الجملة إلا من كان على ذروة اليقين بوعد ربّه عزّ وجلّ؟ فهذا الموقف الذي وقفه محمّدٌ ﷺ في غار ثورٍ لا يجهله مسلمٌ على مرّ التّاريخ. والأمثلة من هذا النّوع من الأمثلة كثيرٌ في سيرة المصطفى سيّد المرسلين صلّى اللّه عليه وسلّم. ممّا لا حاجة هنا لإيراد جميع تلك الأمثلة التي تدفع المؤمن باللّه عزّ وجلّ إلى السّعي حثيثاً لتلقّي أمثال تلك البشائر التي تلقّاها محمّد اليتيم الأمّي الذي ابتدأ رسالة ربّه وحيداً من دون العالمين.

وهذا مثالٌ فرديّ يا قارئي العزيز فما بالك أنْ يطّلع الإنسان على ما سيصير إليه حاله بعد موته وبكلّ يقينٍ أيضاً؟ فأنت لابُدّ وأنْ طالعت في سيرة أصحاب محمّدٍ كيف كانوا يتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل اللّه تعالى ويقينهم أنّه ستُكتب لهم الحياة بعد موتهم ويدخلون جنّات الخلود. فلولا أنْ كانت لأولئك الشّهداء تجاربهم في تلقّي بشارات ربّهم عن مستقبلهم وتحقّقها، فأنّى كان لهم أنْ يتسابقوا في ميادين الشّهادة في سبيل اللّه عزّ وجلّ؟

والمهمّ في الأمر هو أنّ الإنسان يخشى ما سيأتي به المستقبل لذلك كان من طبيعته أنْ يحاول الاطّلاع على كلّ شيءٍ يتعلّق بالمستقبل. ولا تُغني مطلب الإنسان هذا إلا وسيلة واحدة في هذا المجال هي وسيلة (الوحي السّماوي) بسبب أنّ الغيب يحمل للإنسان ثمار عمله التي هي بيد اللّه عزّ وجلّ. فهي الوسيلة الحقيقيّة التي تساعد عقله على هذا الصّعيد. خصوصاً وأنّ القرآن الكريم صرّح بأنّ اللّه جلّ شأنه يكلّم عباده الذين يتّقونه

ويعملون على تعاليم دينه الحنيف، ويبشّرهم في هذه الدّنيا وبعد موتهم أيضاً، وهي الحقيقة التي تضمّنتها الآيات 62/ 63/ 64 من سورة يونس والتي قال اللّه تعالى فيها:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. فما هي دلالة هذا الكلام الإلهيّ الوارد في كتاب اللّه العزيز؟

فحرف (ألا) الذي استهلّ اللّه تعالى به هذه الآية الكريمة هو حرف تنبيه، وكأنّه تعالى قد نادى عباده ينبّههم إلى ما سيقوله، وإلى ما سيبشّرهم به من بشارة تستحقّ الانتباه لسماعها. فما هو مضمون هذه البشارة التي حملتها إلينا هذه الآية المباركة؟ قال اللّه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فالملاحظ من خلال هذه الفقرة الأولى أنّه تعالى أورد كلمتي (أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ) فالولْيُ في اللّغة يعني القُرب وحصول الثّاني بعد الأوّل من غير فصل. حيث تقول: وَلاه ويليه ولياً ومعناه دنا منه وقرُب. فإذا قلت ولي فلانٌ الشّيء وولي عليه فيعني قام به وملك أمره. وولي فلاناً معناه أحبّه. والوليّ معناه المحبّ والصّديق والنّصير ويُجمع على أولياء. ويكون الوليّ بمعنى مفعول في حقّ المطيع فيقال: المؤمن وليّ اللّه (محيط المحيط). وعليه فإنّ هذه الكلمة (أولياء) التي أوردها اللّه تعالى تحمل أكثر من دلالة لغويّة. فهي على حين تعني القرب، فهي تعني المحبّة أيضاً. وتفيد من جانب اللّه تعالى نحو هذا المؤمن الصّداقة والمحبّة والنّصرة والتّأييد لهذا

المؤمن الذي يُطيع اللّه تعالى ويعمل على تعاليم كتابه العزيز هذا في حال اعتبار (وليّ) صيغة مفعول وبمعنى المطيع. وعليه فإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يَعِدُ في هذه الآية الكريمة كلّ مؤمنٍ مطيعٍ لأوامره جلّ شأنه أنْ يجعله من محبّيه كما يعده أنْ ينصره ويؤيّده في جميع شؤون حياته. وقد أضاف اللّه تعالى وقال (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) وليس معنى هذا النّفي أنَّ المؤمنين لا يأتي عليهم أيّ نوعٍ من أنواع الخوف. بل إنَّ كلمة (خوفٌ) تعني لغةً انفعالٌ في النّفس يحدث لتوقّع ما يرد من مكروه أو يفوت من محبوب. ثمّ إن هذه الكلمة (خوف) استُعملت مع صلتها وهو حرف (على) فتقول خِفتُ عليك؛ أي خشيت أنْ يصيبك أذى فقوله تعالى (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) محذوف منه نسبة الخوف؛ أي أنَّ المؤمنين لا يخافون على أنفسهم بسبب أنّهم يستظلّون بظلّ ولاية ربّهم وعنايته ما داموا مطيعين لأوامره وعابدين إيّاه. وبألفاظٍ أخرى فإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يبيّن من خلال قوله هذا (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) بأنَّ محبّيه من عباده المؤمنين لا يخشون ما يأتي به الزّمن المستقبل بسبب كونهم من محبّيه عزَّ وجلَّ وتحت ظلّ نصرته وتأييده. فإذا أخذنا التّنوين الوارد فوق كلمة(خوفٌ)بعين اعتبارنا، ففي هذا إشارة من جانب اللّه تعالى إلى أنَّ الابتلاءات الخفيفة التي تعرض للإنسان وما يرافقها من خوف محدود لا تدخل في هذا الوعد الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة. وعلى نفس هذه الشّاكلة فإنَّ قول اللهّ تعالى (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) يعني بأنَّ هؤلاء المؤمنين المطيعين لربّهم لا يحزنون على ما فاتهم من قبل بسبب أنّهم يظلّون يعيشون في رجاء من عطاء ربّهم مستمر غير منقطعٍ.

ولم يترك اللّه عزَّ وجلَّ القارئ يتوق إلى معرفة مَنْ هم (أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ) المقصودين هنا في هذه الآية الكريمة، بل أتى بآيةٍ ثانيةٍ حدّد تعالى من خلالها ووصف هؤلاء الذين يكونون من أولياء اللّه تعالى وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي أنَّ أولياء اللّه المقصودين في الآية السّالفة الذّكر يتّصفون بصفتين رئيسيّتين هما: الإيمان باللّه تعالى والتزام جانب تقوى اللّه تعالى في كلّ شيء يُقدمون عليه. ويشير اللّه تعالى من خلال هذه الآية الكريمة إلى أنّه يقصد المؤمنين الأحياء ولا يقصد المؤمنين الأموات. بدليل أنّه أتبع ذلك بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾.

ومن ثمّ فقد راح اللّه جلّ شأنه في الآية الثّالثة يعد أولياء اللّه المشار إليهم ويقول: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ اللّه تعالى عندما استهلّ هذه الآية الثّالثة بقوله (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ) فقد حذف فعل (كتبنا أو قدّرنا) لهم البشرى. وإنَّ اللام من (لهم) هي لام الاستحقاق لوقوع هذه اللام بين معنى، وهو الفعل المحذوف وبين ذات وهو ضمير (هم). وليصبح معنى (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ) أنَّ الذين آمنوا وكانوا يتّقون يستحقّون من طرفنا أنْ نقدّر ونكتب لهم (البشرى). وهنا تسألني عن دلالة كلمة (البشرى) فأقول: إنَّ كلمة البشرى أو البشارة اسمٌ لخبر صدقٍ يغيّر سماعُه بشرة الوجه مطلقا ساراً كان أو كان مُحزناً إلاّ أنّه غلب استعمال هذه الكلمة بالمعنى السّارّ الأوّل (محيط المحيط) واستنادا إلى هذا المعنى. فقم أنت يا عزيزي القارئ بملاحظة وجه الذي تنقل إليه خبراً ساراً كان أو خبراً محزناً فإنّك تلاحظ أنَّ تقاسيم

وجهه تتبدّل لسماع أيٍّ من الخبرين المذكورين. وعلى سبيل المثال فإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ على حين قال في الآية 11 من سورة (يس): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. فهو تعالى قال في الآية السّابعة من سورة (لقمان) بحقّ الكافر: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وعليه فإنَّ اللّه تعالى حين قال في الفقرة الأولى من هذه الآية الثّالثة (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ) فإنَّ اللّه جلّ شأنه قد وعد المؤمنين المتّقين هنا أنْ يطلعهم على بعض أنباءٍ تتعلّق بمستقبلهم وبعواقب أحوالهم تحملُ إليهم أخباراً حقيقيّة وسارّة تتهلّل لسماعها تقاسيم وجوههم من شدّة الفرح الذي يتملّكهم من جرّاء تلقّيهم لتلك البشائر. فإذا أضفت إلى هذا المعنى ما ورد عن محمّد رسول اللّه ﷺ بطريق عبادة بن الصّامت حين سأل رسول اللّه وقال (لقد عرفنا بشرى الآخرة الجنّة فما بُشرى الدّنيا؟) فقد أجابه رسول اللّه ﷺ قائلاً: (هي الرّؤيا الصّالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي جزء من أربعةٍ وأربعين جزء أو سبعين جزء من النّبوّة.) - تفسير ابن كثير -.

فمن هنا تدرك يا عزيزي القارئ بأنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يُطلع عباده المؤمنين المتّقين على أخبار مستقبلهم بين الفينة والفينة، ولذلك قال اللّه تعالى في الآية الأولى (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) أي أنَّ هؤلاء المؤمنين المتّقين لا يخشون ما يأتي به المستقبل بسبب أنّهم يتلقّون من وراء حجاب أخباراً غيبيّةً سارّةً تتعلّق بأحوال مستقبلهم، وهي عبارة عن بشارات دنيويّةٍ يمتازون بتلقّيها عمَّنْ سواهم من النّاس الذين كفروا والذين لم يستجيبوا لصوت ربّهم وظلّوا

كافرين وبعيدين عنه. وبذلك تُشكِّلُ تلك البشائر بالنّسبة لأولئك المقرّبين من اللّه تعالى مشاعل نورٍ تضيء لهم طريق مستقبلهم بقدمٍ ثابتةٍ وصدرٍ منشرحٍ للإقدام على ذاك الطّريق المستقبليّ. على حين يمشي ما عداهم من النّاس البعيدين عن ربّهم في ظلام وتتناوبهم المخاوف من أنْ يقعوا في هوّةٍ أو حفرة من الحفر من جرّاء اعتمادهم على محاكماتهم النّاقصة الجافّة وبدون معينٍ من وحي ما وراء حجاب. وأنا حين قلتُ (يتلقّون من وراء حجاب) فقد قصدتُ أنَّ اللّه تعالى يكلّمهم بأحد طُرُق تكلّم اللّه تعالى مع البشر وهو طريق (من وراء حجاب) هذا الطّريق الذي يأتي بطريق ما يراه النّائم في منامه أو ما يراه كشفاً في حال يقظته من رؤى وكشوفٍ رحمانيّةٍ تُنبئ هذه الفئة المؤمنة التّقيّة بأمور المستقبل.

وإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ حين قال في الفقرة الثّانية من هذه الآية الثّالثة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ لفظ (كلمات) هو جمع كلمة. والكلمة استعملها القرآن الكريم تعبيراً عن إرادة اللّه ومشيئته وقوانينه المسنونة في هذه الحياة الدّنيا. وقد أشار هنا بلفظ (كلمات) إلى قانون إلهيٍّ قديمٍ وهو أنَّه تعالى يكلّم البشر بطُرُقٍ ثلاثة صرّحت بها الآية **51** من سورة الشّورى التي سبق لي أنْ أوردتُهَا وشرحتُ لك يا عزيزي القارئ مضمونها. إذ أنَّه تعالى يقصد من قوله (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ) أنَّه تعالى لا يخرق ما سنّه منذ الأزل من قوانين طبيعيّة تتعلّق بالعالم المادّي، ولا يخرق ما سنّه من قوانين روحيّة تتعلّق بالعالم الرّوحيّ. إذ أنَّ هناك عالم المادّة وعالم الرّوح وهذان عالمان يوازي الواحد منهما الآخر. فالذين يقولون بانقطاع الوحي الإلهي وسدّ باب مكالمة

اللّه تعالى مع عباده المؤمنين بعد بعثة محمّد المصطفى خاتم النّبيّين ﷺ، إنّما يتناقض اعتقادهم هذا مع قول اللّه تعالى الوارد في هذه الفقرة (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ) ويحرمون بذلك أنفسهم من بركات هذا القانون الرّوحيّ المسنون وهم لا يشعرون.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ اللّه تعالى قد أعطى وعده المذكور المتعلّق بقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَاخِرَةِ﴾ أهمّيته القصوى لتعلّقها بالعامل المساعد الذي يساعد عقل الإنسان على العمل على صعيد الزّمن المستقبل والذي إذا حرم اللّه تعالى الإنسان المؤمن من الاستفادة من بركاته يكون قد حرمه من هذا العامل المساعد الذي يساعد عقله على صعيد الزّمن المستقبل. فهو تعالى أبرز هذه الأهمّية التي أشرنا إليها من خلال ما أنهى به هذه الآية الكريمة وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. فالملاحظ هو أنَّ اللّه تعالى أعرض هنا عن إيراد اسم الإشارة (هذا) المستعمل للقريب. وأورد بدلاً عنه (ذلك) وهو اسم الإشارة المستعمل للبعيد. وقد أحدث اللّه تعالى هذا التّبديل لإظهار أهمّية وتعظيم ما بشّر به المؤمنين المتّقين من (بشرى) مشارٌ إليها في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَاخِرَةِ﴾ ومعتبراً تلقّي هؤلاء المؤمنين لتلك البشائر الرّحمانيّة (فوزاً عظيماً) لهم في هذه الحياة الدّنيا وفي الآخرة أيضاً. حيثُ أنَّ الذي يكلّمه اللّه تعالى في هذه الدّار الأولى يكلّمه في الدّار الآخرة يقيناً أيضاً. وقد أكّد جلّ شأنه هذه الحقيقة الثّابتة التي تكلّم عنها في هذه الآية سالفة الذّكر وهو اعتقاد هؤلاء بانقطاع كلام اللّه جلّ شأنه بعد بعثة محمّدٍ ﷺ وذلك من خلال

تأكيده بعد ذلك وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ لم يوضّح في هذه الآية الكريمة مرجع ضمير (قولهم) فلم يبيّن مَنْ هم الذين يتكلّم عنهم. وفي وقتٍ عُدتَ يا عزيزي القارئ تعلم أنَّ الحذف البلاغيّ الحادث في لغة الضّادّ يكون المراد منه السّعي لتصريف المعنى إلى عدّة جهات. فاللّه تعالى قد نفى من خلال هذا الحذف البلاغيّ هنا صحّة اعتقاد مَنْ اعتقد بانقطاع الوحي الإلهي بعد بعثة محمّد ﷺ من جهة. كما نفى في الوقت نفسه اعتراض الكافرين على اللّه وعلى رسوله الكريم من جهة أخرى. بدليل أنّه تعالى أدخل اللام التي تفيد الملكيّة على اسم الجلالة (لِلَّهِ) وقال (إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) أي أنَّ اعتقاد هؤلاء وهؤلاء لا يُنقص من عزّة اللّه شيئاً خصوصاً وأنَّ اللّه تعالى (هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) فهو جلَّ شأنه لا يفوته سماع شيءٍ ممّا يقوله هؤلاء وهؤلاء وهو (العليم) الذي يعلم كيف يثبت خطأ اعتقاد هؤلاء وهؤلاء.

وعلى هذه الصّورة أكون قد أدليتُ لقارئي العزيز بدليلٍ قرآنيّ يثبت منه بأنَّ باب كلام اللّه تعالى غير التّشريعيّ ما يزال مفتوحاً على مصراعيه أمام فئة المؤمنين الأتقياء، وهو الطّريق الذي يطّلعون بواسطته على أمور تتعلّق بزمن أحوال مستقبلهم ومستقبل مَنْ يشاء اللّه عزَّ وجلَّ أنْ يُطلعهم عليه..

وقد تسألني يا عزيزي القارئ بعد الفراغ من هذا البيان كلّه أنْ أقدّم لك دليلاً علميّا إلى جانب الدّليل القرآني الذي قدّمتُهُ لك آنفاً والذي أثبت به ما حاولت إثباته. وإنَّ مطالبتك هذه تستحقّ من جانبي الإصغاء إليها والإجابة عليها إجابةً مفصّلةً. لذلك أقول بأني قد خصّصت للإجابة على المطالبة

المذكورة باباً خاصّاً في هذا الكتاب. وهو البـاب الثّالث منه والـذي سـأثبت لك من خلاله دور (الوحي السّماويّ) ذاك الدّور الذي لعبه عـبر تـاريخ هـذا الإنسان ومختلف دلائل مصداقيّة دوره كعامل مساعدٍ للعقـل علـى مسـتوى الزّمن المستقبل. فإلى الباب الثّالث خصوصاً وأنَّه قد أثبت لك من قبل خلود عقل الإنسان وخلود النّفس البشريّة بأسلوبٍ علميّ.

الباب الثّالث:

الفصل الأوّل:

تحديد إطار عمل العقل

لابُدَّ أنْ تكون قد سلّمتَ معي يا عزيزي القارئ بأنَّ لِعمل عقل الإنسان حدودٌ ليس باستطاعته أنْ يتجاوزها مهما بلغ صاحبه من سعة النّظر والعبقريّة. والسّبب في ذلك وكما بيّنّاه من قبل هو أنَّ المعلومات التي تصل عقل الإنسان تصله عن طريق حواسه الخمس، وليس عن طريق حاسّة أو حواسّ غيرها. وإنَّ هذه الحواس الخمس تستمدّ معلوماتها في الأصل ممّا هو موجود حولها من أشياء مادّية تراها الأعين وضمن نطاق هذا العالم المادّيّ. وإنَّ هذه المعطيات التي ترد عن طريق الحواسّ تجعل هذا الإنسان عاجزاً عن التّحديث بأمور الغيب المستقبليّة على وجه الخصوص. حتّى أنَّ الإنسان إذا ظلّ يفكّر طيلة حياته وإلى ساعة موته بما هو آتٍ فلا يقدر على اكتشاف الأمور الخفيّة التي تتجاوز حدود عمل عقله. وحتّى أنَّ هذا الإنسان إنْ شاء

كتابة موضوعٍ من المواضيع فتظلّ كتاباته تدور ضمن نطاق ما أوتي الإنسان من قوى بشريّة. ويظلّ هذا الإنسان في كلّ ما يفكّر به ويفعله خاضعاً لقانون الاحتياج العام الذي سبق لنا أنْ تكلّمنا عنه.

والدّليل على ما ذكرناه آنفاً هو أنَّنا إذا استعرضنا جميع ما تحقّق على أيدي علماء العلوم الحديثة وما أوجدوه من تقنيّاتٍ مدهشةٍ فإنَّ حقائقها جميعها تدور حول حقائق هذا الكون المادّي. ولم نسمع أنَّ أحداً من هؤلاء العلماء قد اكتشف ما تُطالعنا به الأديان السّماويّة من معلوماتٍ تتعلّق بوجود خالق لهذا الكون ولا بوجود الملائكة وعالم ما بعد الموت. هذا وإنْ دلّت أبحاث هؤلاء العلماء بشكلٍ نظريٍّ أخيراً على خلود عقل الإنسان وعلى خلود روحه وعلى حسب ما اقتبستُهُ للقارئ من قَبْلُ من أقوال هؤلاء العلماء وأثبتّ ما توصّلوا إليه من شيء نظريٍّ بدليل وبرهان من القرآن العظيم.

فإنْ نحن راجعنا ما توصّل إليه تفكير علماء القرن التّاسع عشر ومن قبلهم بما يتعلّق بوجود اللّه خالق هذا الكون فإنَّنا نضرب صفحاً عمّا فكّروا فيه واعتقدوه لانطلاقهم من أنَّ المادّة هي الأساس في كلّ شيء من أشياء هذا العالم، وبذلك ونتيجة لذلك فقد أعطوا العقل منزلة ثانويّة وللأسباب التّالية:

أوّلاً - ففي القرن التّاسع عشر ظهر العالم (كوبرنيكوس **Copernicus**) وهو العالم الذي خالف آراء رجال الكنيسة المعتقدين في زمانه بأنَّ الكرة الأرضيّة هي مركز الكون لوجود الإنسان على سطحها. فالعالم المذكور قد خالف النّظريّة الكنسيّة المشار إليها في ذاك الحين وموضّحاً أنَّ الكرة الأرضيّة كوكبٌ تافهٌ بالنّسبة إلى ما في هذا الكون من كواكب ونجوم.

ثانياً ـ وقد سيطرت على عقول علماء القرن التّاسع عشر النّظرة المادّية حتّى باتوا معتقدين بأنَّ كلّ شيء في هذا الكون هو مادّة محض ولا وجود لشيء يُسمّيه رجال الكنيسة روحاً. واستنبطوا من عقيدتهم المادّية هذه عدم وجود مقصد لحياة الإنسان المكوّن جسمه من خلايا مادّية. وعلى اعتبار أنَّ المادّة شيء جامدٌ لا حياة فيه، ولا يُعقلُ أنْ يرسم هذا الوجود الجامد لنفسه مقصداً من وجوده. لذلك نظروا إلى الخليّة الحيّة على أنّها تتصرّف بشكلٍ ميكانيكيّ وحسب. ومن هؤلاء العلماء الذين نظّروا هذا التّنظير العالم (فرنسيس بيكون **Francis Bacon**) والعالم (رنيه ديكارت **Descartes**)؛ حيثُ كَتَبَ هذا الأخير قائلاً: (إنَّ مَطلب الغائيّة يُفسدُ العلوم بدلاً من أنْ يرقى بها). وقد أيّده في نظرته هذه العالم رينيه بيكون أيضاً. لكنّ العالم (اسحاق نيوتن **Isaac Newton**) خالفهما في الرّأي، وكَتَبَ إلى الدّكتور (ريشار بنتلي **Richard Bentley**) عام **1692** م (إنَّ حركات الكواكب الرّاهنة لا يمكن أنْ تكون قد انبثقت من أيّ علّةٍ طبيعيّة، بل كانت مفروضة بفعل قوّةٍ عاقلة). وإنَّ هذا الطّرح هو طرح عقليّ ولا دخل للعلم فيه من قريب ولا من بعيد.

والمهمّ في الأمر هو أنَّ بعض علماء القرن التّاسع عشر أقرّوا بوجود اللّه إلى جانب اعتقادهم وتسليمهم بأنَّ اللّه لا يرى بالعقل ولا يرى بالعين المجرّدة، وكان من أبرز هؤلاء أعظم علماء القرن التّاسع عشر الذي قدّم هذا الرّأي العالم (كارل ف. غاوس **Carl f. Gauss**) الذي كَتَبَ وقال: « هنالك مشاكل أعلّق على حلّها أهمّية تفوق الحدّ تلك التي أوليها للمسائل

الرّياضيّة، ومن تلك المشاكل تلك المتعلّقة بالأخلاق أو بعلاقتنا باللّه أو بقدَرِنا ومستقبلنا ولكنّ حلّها خارجٌ كلّياً عن متناول أيدينا، وهو يقع كلّياً خارج ميدان العلم.»، وعلى هذه الصّورة فقد كانت قد غلبت فكرة الإلحاد على أكثريّة علماء القرن التّاسع عشر واتّساقاً مع نظرتهم العلميّة القديمة.

وإنَّ الذي رسّخ فكرة الإلحاد في أوروبة هو ظهور عالم الأحياء (دارون) الذي جاء بنظريّة قانون النّشوء والارتقاء والذي حاول إظهار أنَّ الأديان من صنع أوهام جماهير النّاس، وأنَّ الدّافع الذي دفعهم إلى ذلك هو سعي الإنسان لحماية نفسه من قوّة الطّبيعة السّاحقة والمتفوّقة عليه. وأنَّ النّاس بطبيعتهم يميلون إلى وجود أبٍ يعطف عليهم ويرعاهم، فخلقوا فكرة وجود (اللّه) الخالق، على حين أنَّ الواقع هو عكس ذلك تماماً، وعلى حدّ زعمه. ودعا (دارون) هذا الإنسان للتّحلّي بالشّجاعة والاعتراف بأنّه هو الكائن الوحيد في هذا الكون الفسيح ولا منافس له فيه. وعلى هذه الصّورة فإنَّ معطيات القرن التّاسع عشر وما قبله لم تساعد الإنسان على الاعتراف بوجود اللّه الخالق ووجود ملائكته ووجود الحياة الأخرويّة.

أمّا علماء القرن العشرين فإنَّهم اكتشفوا علميّاً بأنَّ هذا العالم المادّي يُشَكِّلُ كُلاً لا يتجزأ ويخضع في الوقت نفسه لقوانين طبيعيّة واحدة. وهذا اكتشاف علميٌّ قرّب ما بين هؤلاء وما بين مُعطيات آيات القرآن الكريم ولا ريب تلك الآيات التي تقول بنفس هذه المقولة وكما هو معروف. هذه المقولة التي تستند إلى وحدانيّة اللّه الخالق حسب العقيدة الإسلاميّة ممّا لا حاجة للتّفصيل فيها. ولكنْ؛ من هو ذاك العالم الذي أعلن هذه المقولة آنفة

الذّكر؟ الجواب إنَّه عالم الفيزياء الفلكيّة (دنيس شياما Dennis Sciama) =8= الذي قال:

« لعلّ أهمّ اكتشاف علميٍّ حدث في القرن العشرين هو النّظر إلى هذا الكون المادّي بأكمله على أنَّه يُشَكِّل وحدة قابلة للبحث العقلي وباستخدام أساليب علمي الفيزياء والفلك. ».

ويكون اكتشاف هذا العالم المذكور قد مهّد لظهور نظريّة النّسبيّة العامّة التي طرحها العالم المشهور (آينشتاين) والذي اقترنت نظريّته باسمه في كلّ مكان.

وهكذا فإنَّ مقولة عالم الفيزياء الفلكيّة (دنيس شياما) إلى جانب النّظريّة النّسبيّة التي طرحها العالم (آينشتاين) قد فتحتا للعلماء في القرن العشرين باب البحث المفصّل في بنية هذا الكون بأكمله وفي أصله وفي مآله. فظهر عددٌ من علماء الفلك أكملت آراؤهم ونظريّاتهم بعضها البعض الآخر، وانتهت إلى طرح نظريّة (الانفجار العظيم) المتعلّقة بأصل الكون. ولسنا بصدد الكلام بصورة تفصيليّةٍ عن أسماء العلماء المشار إليهم والمراحل التي قطعوها وصولاً إلى نظريّة (الانفجار العظيم) بسبب أنَّي توسّعتُ في الكلام عنهم في مؤلّفي (النظريّة القرآنيّة الكونيّة حول خَلق العالم) وبإمكان القارئ الرّجوع إليه.

وإنَّ الحقيقة الثّانية التي توصّل إليها علماء القرن العشرين وبأسلوب علميٍّ تتلخّص في أنَّ هذا الكون المادّي كانت له بداية، وستكون له نهاية

أيضاً وأنَّ المادّة ليست أزليّة كما اعتقد علماء القرن التّاسع عشر. وهذه الحقيقة دفعت عالم الفيزياء الفلكيّة (جوزيف سلك **Joseph Silk**) =9= ليقول: « فإنَّ الاعتراف ببداية الزّمن أمرٌ لا مناص منه ».

وبعد أنْ تبيّنت هاتان الحقيقتان للعلماء المذكورين عاد يظهر من العلماء مَنْ يعترف بأنَّ من المستحيل أن يكون هذا الكون قد وُجد من غير موجد. وتكرّر ظهور أمثال هؤلاء العلماء ونذكر منهم على سبيل المثال العالم الفيزيائي (أدموند ويتيكر **Edmund Whittaker**) =10= الذي قال: « ليس هناك ما يدعو للافتراض أنَّ المادّة والطّاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنَّه حدث بينهما تفاعلٌ فجائيّ. إذ ما الذي يميّز تلك اللّحظة عن غيرها من اللّحظات الزّمنيّة؟ وأصحّ من ذلك أنْ نفترض حدوث خلقٍ من لا شيء أي حدوث إبداع إرادة إلهيّة هذا الكون من لا شيء ».

والفيزيائي (إدوارد ميلن **Edward Milne**) أكّد رأي أدموند وعلّق على وجود العلّة الأولى للكون وانتهى من ذلك إلى القول: « .. ولكنّ الصّورة التي توصّلنا إليها لا تكتمل من غير الاعتراف بوجود اللّه ». وقد ظهر من العلماء مَن قدّر بأنَّ بداية تاريخ هذا الكون يرجع إلى ما قبل **12** إلى **20** مليار سنة. وأنَّ خلق وإبداع هذا الكون المادّي من خلق وإبداع عقلٍ أزليّ الوجود.

وعليه فقد تبيّنت حقيقة ثالثة على أيدي علماء القرن العشرين، وهي لزوم وجود (عقل مطلق) أوجد المادّة ويوجّهها أيضاً والذي سمّته لغة الضّادّ (اللّه) وامتازت بتسميته هذه على بقيّة لغات العالم. فتوصّلوا إلى

هذه الحقيقة الثّالثـة انطلاقاً مـن أنَّ عظمـة هـذا الكـون هـو الـدّالّ علـى تلـك الحقيقة العلميّة.

ولم تقتصر اكتشافات علماء القرن العشرين على الحقائق الثّلاث التـي ذكرناها، بل واكتشفوا حقيقـة رابعـة ساعدتهم وأكّدت لـهم وجـود الخـالق وهذه الحقيقة الرّابعة هي أنَّ الجمال يُشَكِّل جزء أساسـيّاً مـن بُنية هـذا العـالم المادّي. فالعلماء قد لاحظوا أنَّ كلّ شيء في هذا الكون ينطوي علـى مُسـحة من الجمال بالإضافة إلى عظمة تكوينه وآليّة عمله. وهذه المسحة من الجمال التي انطوى عليها كلّ شيء في هذا الكـون إنَّمـا يشـكّل معـرض طبيعـةٍ دائـم لزخرفة التّكوين الطّبيعيّ وتصميم الجواهر والحليّ. وابتـداءً مـن ندفـة الثّلـج ومروراً بجنـاحي الطّـاووس وانتـهاء بـأنواع الفراشـات التـي تزهـوا أجنحتـها بمختلف أنواع التّزيين والألوان. وقد اعتبر هؤلاء العلماء المشار إليهم عنصـر الزّخرفـة المشـار إليـه يحمـل الدّليـل القـاطع علـى وجـود المزخـرف الخلاّق. وعلى سبيل المثال فعالم الأحياء(أدولف بورتمان **Adolf Portmann**) وكـان معتبراً حجّةً معترفاً به في موضوع أشكال الكائنـات الحيّـة وعلاماتـها المميّزة فقد أشار العالم المذكور إلى وجود سمات كثيرةٍ في تلك الكائنات لا تُفسِّرها الضّرورة. فهو لفت نظر الباحثين إلى أنَّ وجود أوراق الشّـجر هـو ضـروريّ في الأصـل لإنتـاج طعـام الأشـجار. أمّـا هـذا الاختـلاف فـي أشـكال أوراق الأشجار وما يتخلّلُها من خيوط منسّقة لا يدخل في بـاب التّكيّـف مـع البيئـة المحيطة بتلك الأوراق، وإنَّمـا يحمـل كـلّ الدّلالـة علـى تصويـر فنّـان مُبـدع.

كذلك أسقط العالم المذكور هذه المقولة على الحيوانات والطّيور بمختلف أنواعها وكَتَبَ يقول :

« لقد ساد الاعتقاد مدّة طويلة من الزّمن بأنَّ الدّور الذي يلعبه ريش الطّيور ينحصر في عمليّتي تعديل حرارة الطّير وللإعانة على الطّيران . أمّا الآن فإنَّ علينا أنْ نضيف دوراً ثالثاً لريش الطّيور وهو دور التّعبير عن ذات الطّير نفسه . ذلك لأنَّها توجد أصناف كثيرة من ريش الطّيور تغلب الزّخرفة على تركيبها الخارجي أشكالاً وألواناً . وقد دفع الباحث ليسأل نفسه : لماذا يكون النّمرُ أو يكون الشّوك جميلاً في عين الإنسان لولا ما عليه من زخرفة ؟ » .

ولقد سار على نهج العالم (بورتمان) علماء كُثُر ، وقد راح كلّ واحد منهم يبحث جانباً من هذه الطّبيعة . حتّى أخذ بعضهم يكشف بواسطة المجهر عن الهندسة الخفيّة التي أبدعت خلايا ورقة عشبٍ واحدة . وقد عرضوا ما صوّروه في متاحف ومعارض لأجزاء من النّبات تُظهر جمالها الفتّان .

والمهمّ هو أنَّ علماء القرن العشرين قد أجمعوا على وجود مسحةٍ من الجمال في كلّ شيء من أشياء هذه الطّبيعة الصّامتة أو النّاطقة حيّةً كانت أو ميّتة ، وأنَّ هذا الجمال لا يقتصر على المستويات السّطحيّة ، بل ويشمل داخل كلّ شيء حيّ من مروج الأعشاب إلى الإلكترون وإلى البروتون وإلى النّيوترون . وخرجوا من ذلك كلّه إلى وجود حقيقةٍ لا يمكن إنكارها وهي أنَّ هذا الجمال الوفير التّنوّع وتلك الزّخرفة الكثيرة التّنوّع أيضاً يستحيل أنْ

يكونا حصيلة ضرورةٍ أو يكونا حصيلة صُدفة. بل هما يجلّيان وجود المبدع الذي قام بتلك الزّخرفة ومنح كلّ شيء ذاك الجمال.

وما أجمل ما عبّر عن هذه الحقيقة الرّابعة التي أتينا على ذكرها ما كتبه عالم الفيزياء (هنري مارجينو Henry Margenau)=11=الذي كَتَبَ يقول:

« لا ينبغي الاعتقاد بأنَّ العين وحدها ترى الجمال، بل توجد سمات جمال موضوعيّة تكمن وراء كثير من التّجارب. كتردّد أنغام الوتر الكبير وفي تناسق الأشكال الهندسيّة وفي الألوان المتجاورة التي يكمل بعضها بعضاً وتولّد جاذبيّة خاصّة. وصحيح أنَّ هذا كلّه لا يساعد على البقاء، ولكنّ هذه الأنواع من الجماليّات منتشرة في الطّبيعة انتشاراً يصعب معه أنْ يكون قد حدث كمجرّد صُدفة. فنحن نذهل لتغريد العصافير وندهش لنسق الألوان في الأزهار ولتناسق ألوان ريش الطّيور، ويلفت نظرنا جمال ورقة القيقب الذّاوية ولونها شديد الحُمرة وعروقها الزّرقاء وأطرافها الذّهبيّة، فهل أنَّ في هذا كلّه ما يُساعد على البقاء حين تكون الورقة مشرفة على السّقوط؟ ».

فمن خلال معطيات هذه الملاحظات التي أشار إليها الفيزيائي (هنري مارجينو) يكون قد نفى وجود عنصر الصّدفة وعنصر الضّرورة وهما عنصران كان علماء القرن التّاسع عشر يفسرون بهما كلّ شيء في هذا الكون المادّي. وقد نبّه في الوقت نفسه إلى هذه الحقيقة الرّابعة وهو وجود عنصر بديل يعمل وراءها جميعها. وقد ذهبوا إلى أنَّ الجمال المشاهد في الطّبيعة غير ناشئ عن علّةٍ تحكمها الصّدفة أو الضّرورة، لكنّه يشير إلى عقلٍ

مسؤول عن جمال الطّبيعة. وأنَّ هذا العقل لا محلّ له وسط الطّبيعة نفسها، ولكنّه موجود خارجها، وهو ما يسمّيه النّاس (اللّه).

وعلى هذه الصّورة يكون العلم الحديث قد التقى مع مُعطيات الدِّين الإسلاميّ بخصوص صفتي اللّه (الرّحمان والرّحيم) هاتان الصّفتان اللّتان تعبّران عن جلال اللّه تعالى وجماله. وبما يوازي تلك الحقائق الأربعة العلميّة التي كشف عنها العلم الحديث.

وبعبارة أخرى فإنَّ جميع حقائق العلم الحديث قد أوصلت الإنسان إلى ضرورة تسليمه بإمكانيّة وجود خالق قد خلق هذا الكون المادّي، لكنّ هذه المعطيات لم تكشف لهؤلاء العلماء مَنْ هو هذا الخالق، وما هي أسماؤه الحسنى التي تتّصف بها ذاته المقدّسة، ولم تكشف شيئاً عن ملائكته ولا شيئاً عن العالم الذي يأتي على الإنسان بعد موته. ولا عن عالم الكتاب والحساب الذي ينتظر هذا الإنسان. وهي الحقائق التي نادى بها الدِّين الإسلاميّ الحنيف من خلال معطيات آي الذّكر الحكيم. هذا الكتاب الذي أنزله الخالق على سيّد وُلد آدم ﷺ بطريق الوحي السّماويّ. ولاقتصار عمل عقول هؤلاء العلماء على كلّ شيء مادّي وبعيداً عن الوحي السّماوي!..

من هنا نكون قد أثبتنا ما ذهبنا إليه في الفصل الأوّل من هذا الباب الثّالث، وهو أنَّ لعمل عقل الإنسان حدّاً لا يستطيع تجاوزه ويدور حول علم ما في هذه الطّبيعة من أشياء ومعلومات تجمعها لصالح عقل الإنسان حواسّه الخمس. ولذلك فإنَّ الإنسان يظلّ طيلة حياته عاجزاً عن معرفة أمور مستقبله إلاّ إذا تداركه وحي السّماء بأخبارٍ وأنباءٍ وبشارات في هذا المجال.

الأمر الذي يـدلّ على أنَّ الوحـي السّـماويّ هـو العـامل الـذي يسـاعد عقـل الإنسان على معرفة أمور المستقبل. وهي الحقيقة التي وضّحتُهَا من قبل حـين الكلام عن عامل عمل عقل الإنسان على صعيد الزّمن المستقبل.

ولا أكتفي بالكلام عـن حـدود عمـل عقـل الإنسـان وعـن حاجتـه إلـى عاملٍ مساعد يساعده لمعرفة أمور المستقبل. بل أنتقل بالقارئ الكريم خطـوة ثانيّةً لأوضّح له من خلالها وجود رابطة جدليّة كائنة ما بـين الأرض ومـا بين السّماء على الصّعيد المادّي وعلـى الصّعيـد الرّوحـيّ. وأنَّـه لا حيـاة لـلأرض بدون السّماء ولا حياة للعقل بدون وحي السّماء وهـي الحقيقـة التـي سـأبيّنها للقارئ الكريم في الفصل الثّاني من هذا الباب الثّالث من هذا الكتاب.

الفصل الثّاني:

جدليّة علاقة الأرض بالسّماء

لقد تبيّن للباحثين من علماء زماننا وبأسلوب الملاحظة العلميّ معالم وحدة هذا الكون سماءً وأرضاً، وأنَّ الأرض مرتبطة بالسّماء برابطة جدليّة قويّة لا تنفصم وتربط ما بين الكرة الأرضيّة وما فيها وما بين السّماء وما فيها، ليس على الصّعيد المادّي فحسب، بل وعلى الصّعيد الرّوحيّ أيضاً. ولقد نبّه آي الذّكر الحكيم هو بدوره إلى وجود هذه الجدليّة الموضوعيّة ما بين البشر وما بين اللّه خالقهم على الصّعيد الرّوحيّ. وثبت أيضاً على الصّعيدين المذكورين أنَّ هذه الجدليّة التي تربط ما بين السّماء والأرض تتّصف بالاستمراريّة والدّوام، فإنْ توقّفت صلة السّماء بالأرض يؤدّي ذلك إلى موت ما هو موجود على الأرض ويهلك كلّ ما هو كائن على سطحها. وأمّا ما يتعلّق بالجدليّة التي تربط ما بين اللّه وعباده فهي تتّصف بالاستمراريّة والدّوام أيضاً. فإنْ ترك اللّه تعالى البشر وأعرض عنهم وهجرهم يؤدّي

ذلك إلى تخلّفهم وانحطاطهم وموتهم روحيّاً مع توالي الأيّام. فهاتان حقيقتان من المهمّ جداً فهمهما والإحاطة بجوانبهما بشكلٍ موضوعي.

وأبدأ بتوضيح حقيقة هذه الجدليّة الموضوعيّة التي تربط الأرض بالسّماء بشرحٍ علميٍّ مع ضرب الأمثلة على ذلك ليتمكّن القارئ الكريم الإحاطة بها وبجوانبها بوضوح رؤيةٍ وفهمٍ سليمٍ لها أيضاً. فأقول: لقد ثبت علميّا وجود دورةٍ حياتيّة ما بين التّربة وما تنبته من أشجارٍ ونباتٍ وغيره وما بين الحالة المناخيّة الحادثة في سماء تلك التّربة. وأنَّ دوام هذه الدّورة الحياتيّة واستمرارها يرتبط بسلامة الدّورة المناخيّة السّماويّة. وإنَّ كلّ تبدّلٍ يجري في الدّورة المناخيّة يترك بآثاره الأكيدة على الدّورة الحياتيّة المشار إليها.

وأضرب للقارئ الكريم مثالاً بسيطاً بإمكانه ملاحظته ومتابعته بشكلٍ شخصيّ. أفلا ترى يا عزيزي القارئ كيف أنهّ إنْ توقّف هطول الكمّيات اللّازمة من الأمطار والثّلوج في بقعةٍ معيّنةٍ من هذه الكرة الأرضيّة فإنَّه يتسبّبُ ذلك في حدوث قحطٍ وجدب يؤثّر ذلك على كمّيات المنتجات الزّراعيّة التي تنتجها تلك المنطقة؟ وعلى العكس من ذلك فإنَّ كلّ زيادة في كمّيات الأمطار والثّلوج الهاطلة عن حاجة أيّة منطقة من المناطق يؤدّي ذلك إلى حدوث سيول وفيضانات هناك، ويؤدّي حدوث ذلك إلى إتلاف المحاصيل الزّراعيّة التي تنتجها تلك المنطقة؟فهذه ظاهرة يشهدها أهل كلّ منطقة من مناطق الكرة الأرضيّة. وإنَّ هذا المثال البسيط الذي قدّمته لك ولفتّ نظرك إليه يفسّر هذه الرّابطة الجدليّة التي أشرت إليها والتي تربط ما بين الأرض والسّماء بمعادلةٍ طرديّة. أي أنَّه كلّما تحسّنت الأحوال المناخيّة في

منطقةٍ من مناطق الأرض كلّما تحسّنت المحاصيل الزّراعيّـة فـي تلـك المنطقـة. وكلّمـا اضطربـت الأحـوال المناخيّة فـي منطقـةٍ مـن منـاطق الأرض كلّمـا اضطربت كمّيات المحاصيل الزّراعيّة هناك وتركت آثارها السّيّئة بالتّـالي علـى سكّان تلك المنطقة التي أصيبت بالقحط والجفاف.

فـهذه الملاحظـةُ العلميّـةُ التـي ذكرتُـهَا والتـي وضّحـت العلاقـة الجدليّـة الموضوعيّة التي تربط الأرض بالسّماء قد أشار إليها كلام اللّـه عزّ وجـلّ فـي كتابه العزيز هو أيضاً من خلال تذكـيره العـاقلين مـن النّـاس بخمسـة عنـاصر واضحة الأبعاد تضمّنتها الآيتان **163/ 164** من سورة البقرة واللّتـان قـال اللّـه تعالى فيهما على صورة ادّعاء كبير ومقرون بدليل مصداقيّة ما ادّعاه سـبحانه وتعالى قال:

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالآية الأولـى قـد تضمّنـت يـا عزيـزي القـارئ ادّعـاء كبـيراً. حيـثُ إنَّ الشّطر الأوّل من هذا الادّعاء قد نصّ على الادّعاء بوجود خـالق واحـد وأنّـه هـو الـذي خلـق هـؤلاء البشـر ومـا حولـهم مـن أشـياء وليصبـح هـو المحبـوب الحقيقيّ الذي ينبغي عليهم اتّخاذه معبـوداً لـهم. هـذا الشّـطر دلّ عليـه قولـه تعالى: (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ).

وأمّا الجزء الثّاني من هذا الادّعاء فقد تضمّنه الشّطر الثّاني من هذه الآية الكريمة قوله تعالى (هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ). ومن المعلوم أنَّ الكاتب العالم لا يأتي بادّعاء في مؤلّفه إلاّ ويضيف عليه دليل مصداقيّته. وإنَّ هذه الحقيقة تدعونا كمفسّرين باحثين أنْ نفهم مضمون الآية الثّانية على أنَّه قد اشتمل على دليل مصداقيّة الادّعاء الذي اشتملت عليه الآية الأولى فمن هذا المنطلق سنشرح مضمون هذه الآية الثّانية آنفة الذّكر.

وبألفاظ أخرى أقول: لقد تضمّنت الآية الثّانية خمسة عناصر نبّه كلّ عنصر منها إلى حقيقة بذاتها تُجلّي وجود مبدع واحد متّصف بصفتي (الرّحمان الرّحيم) وقد كان القصد من هذا الادّعاء ودليله جذب أفئدة المؤمنين نحو محبّة اللّه تعالى ولتنقية هذه النّفوس من شوائب أيّ شركٍ خفيٍّ يخالطها في مجال اعتقادهم بوحدانيّة اللّه عزَّ وجلَّ. وليدفعهم ربّهم في الوقت نفسه للتّوكّل على خالقهم هذا الإله الرّحمان الرّحيم توكّلاً تاماً في كلّ ما يواجههم من مصاعب ومشكلات.

ويدور مضمون كلّ عنصر من هذه العناصر الخمسة على محور واحد وهو إثبات وجود علاقة جدليّة تربط الأرض بالسّماء، وأنَّ السّماء والأرض يُشكّلان وحدة مترابطة ومن باب صدورهما عن خالقٍ واحد أبدعهما على أساس رابطة هذه الجدليّة الموضوعيّة المشار إليها. وبألفاظٍ أخرى فإنَّ الآية الأولى كانت قد تضمّنت ادّعاءً كبيراً لذلك، فقد أورد اللّه تعالى الآية الثّانية متضمّنةً الدّليل القاطع الذي يثبت منه ذاك الادّعاء الكبير، وهي الحقيقة التي عبّر عنها قوله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقد تقاطعني يا عزيزي القارئ وتسألني عن دليلي الذي استندتُ إليه في هذا الفَهْم الآنف الذّكر؟ فأقول: إنّي استندتُ هنا في ذلك إلى الأصل التّفسيري من أصول تفسير آي الذّكر الحكيم القائل بأنَّ اللّه تعالى لا يورد ادّعاء إلاّ ويُتبعه بعده مباشرةً بدليل مصداقيّته. علماً بأنَّه تعالى لم يورد كلمة (معبود) في هذه الآية الأولى، بل قال (وإلهكم) ومعناه إنَّ مَنْ ينبغي أنْ يكون محبوباً لكم تتوكّلون عليه هو محبوب واحد لا محبوب حقيقيّ سواه، وهو المتّصف بصفتي الرّحمان والرّحيم. فالرّحمان معناه المبدع لكلّ شيءٍ في هذا الكون من دون مقابل. والرّحيم معناه أنَّه تعالى قرن إبداعه هذا بسنّ قوانين رحمته التي وسعت كلّ شيء. ومن باب أنَّ كلمة الإله اشتقّت من الوَلَه الذي يعني المحبّة.

ونعود بعد هذا البيان لنتبيّن حقيقة دلالات هذه العناصر الخمسة التي هي باجتماعها تؤكّد مصداقيّة الادّعاء الكبير الذي أوردته الآية الأولى، وكيف أنَّ هذه العناصر تُفسِّر وجود رابطة جدليّةٍ أكيدةٍ تربط السّماء بالأرض، وتؤكّد وحدانيّة ذات اللّه الرّحمان الرّحيم. لكنّه ينبغي علينا قبل تعداد تلك العناصر أنْ نحيط علماً بمضمون الفقرة الأخيرة التي أنهى اللّه تعالى من خلالها هذه الآية الثّانية، وهي قوله تعالى فيها: (لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

فنتساءل: لماذا أنهى اللّه تعالى هذه الآية بهذه الفقرة الأخيرة؟ الجواب أنَّه أنهاها بها إشعاراً من جانبه تعالى كلّ إنسان يستعمل عقله بأنَّ كلّ عنصر من تلك العناصر الخمسة يُشَكِّل في حدّ ذاته (آية) أي علامة واضحةً تحمل الدّلالة الأكيدة على وحدانيّة اللّه تعالى كما تدلّ على وجود

رابطة تلك الجدليّة الموضوعيّة المشار إليها والتي تربط الأرض بالسّماء والتي تثبت احتياج هذه الأرض إلى معونة مدد السّماء على الدّوام. وأنَّ نسيان الإنسان لهذه الحقيقة أو غفلته عنها تجلب الويلات على أهل الأرض وعلى كلّ شيء كائن فيها. وأنَّ تلك العناصر الخمسة تُشكّل بمجموعها دليل مصداقيّة الادّعاء الكبير الوارد في الآية الواردة ما قبل هذه الآية الكريمة، وعليه نورد تلك العناصر الخمسة بترتيبها القرآنيّ الذي انتقل اللّه تعالى فيه من الكلّي إلى الجزئيّ:

العنصر الأول - تضمّنه قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فحرف (إنَّ) ورد للتّأكيد لقوم يعقلون. وصيغة (ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وردت تتّصف بشموليّة مضمونها ولتشير إلى وجود قوانين واحدة تنظم السّماء والأرض دلالةً على أنَّ المنظّم هو مُبدعٌ واحدٌ لتلك القوانين، وقد حرّك اللّه تعالى من خلال ذلك عقولنا لننتبه إلى هذه الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة التي بيّناها والتي تربط ما بين السّماء والأرض بقوانين واحدة. فهو تعالى أتى بحرف التّأكيد (إنَّ) وجمع بين خلق السّماوات والأرض في فقرة واحدة. وعلى هذه الصّورة فقد تضمّنت هذه الفقرة الأولى كون السّماء والأرض وحدةً لا يمكن تجزئتها لاستنادها إلى قوانين واحدة.

العنصر الثاني - وأتى اللّه تعالى بحرف العطف وأضاف عنصراً ثانياً إلى العنصر الأوّل وقال: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهو تعالى أشار بذلك إلى نظام تتابع مجيء ليلٍ بعد كلّ نهار سواء أكان ذلك على الصّعيد المادّيّ وسواء أكان ذلك على الصّعيد الاجتماعي، وسواء أكان ذلك على صعيد

العالم الرّوحيّ. وموجّهاً كلامه إلى العقلاء الذين يستعملون عقولهم تنبيهاً لعقولهم وليتفكّروا كيف أنَّ اللّه تعالى لم يخلق السّماء والأرض ويزيّنها بالشّمس والقمر والنّجوم وحسب، بل وأوجد حقيقة تتابُع اللّيل والنّهار من باب احتياج كلّ شيء حيٍّ، على سطح هذه الأرض إلى هذا نظام تتابع اللّيل والنّهار إبقاءً على وجود كلّ شيء حيّ ولتدوم بذلك الحياة على سطح هذه الأرض. إذ إنَّ من المعلوم أنَّ الإنسان يجدّ ويعمل طيلة نهاره، فيُنهك ذلك قواه، ويعود هذا الإنسان بحاجة إلى الرّاحة لاستعادة نشاطه. وقد جعل اللّه تعالى اللّيل سباتاً ليستغرق هذا الإنسان خلاله في نومه، وليستعيد بذلك قوّته ونشاطه. وقس على ذلك بقيّة الكائنات الحيّة التي تخضع هي بدورها إلى هذا النّظام وفوائده. وحتّى أنّه قد ثبت علمياً ومن خلال الملاحظة آنَّ من النّباتات ما لا ينمو إلاّ في اللّيل. وعليه فقد أثبت اللّه تعالى من خلال قوله تعالى ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ احتياج كلّ شيءٍ على سطح هذه الكرة الأرضية إلى السّماء وإلى عطائها المادّي والرّوحيّ. أي أنَّ ما بين جميع ما على الأرض وما بين تتابع اللّيل والنّهار علاقة رابطة جدليّة موضوعيّة أيضاً.

<u>العنصر الثّالث</u>- ومن ثمّ أتى اللّه تعالى بواو العطف، وأضاف عنصراً ثالثاً وقال: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ تنبيهاً لعقولنا إلى وسيلة (الفُلك) التي تجري في البحر لنقل النّاس وأمتعتهم من شاطئ بحر إلى شاطئ بحرٍ آخر. وهي الوسيلة التي بدونها يعود النّاس لا يعرف بعضهم بعضاً ولا يجري بينهم تعاملٌ من أيّ نوع كان. فقد علّم اللّه تعالى النّاس كيف يصنعونها للسّفر بواسطتها ولاختصار المسافات التي

تفصل ما بين يابستين باعدت بين سكّانهما مياه البحار، فهذا الواقع أحدثه اللّه تعالى لينفع النّاس بصورة عامّة. أي أنَّ اللّه تعالى قد أشار من خلال مضمون هذه الفقرة الثّالثة إلى أنَّه تعالى كما أنَّه كان قد خلق الحمير والبغال ليركبها النّاس، ولينقلوا بواسطتها أمتعتهم من مكان إلى مكان على ظهر اليابسة، فقد علّم هذا الإنسان صنع الفلك لتؤدّي نفس المهمّة على سطح البحار رحمةً بالعباد. وعلى هذه الصّورة يكون اللّه تعالى قد تدرّج في طرحه العلميّ هذا من الكلّيّ إلى الجزئيّ. فعلى حين جلّى اللّه تعالى صفته (الرّحمان) من خلال الفقرتين الأولى والثّانية، فأثبت من خلالهما وحدانيّته سبحانه ورابطة العلاقة الجدليّة الموضوعيّة الكائنة ما بين السّماء والأرض. فقدتدرّج في هذا العنصر الثّالث إلى الجزئيّ فراح يجلّي كونه (الرّحيم) منبّهاً إلى ظاهرة الفلك التي تجري في البحر بما ينفع النّاس. والتي لولاها لكان حال النّاس في عسرٍ شديد. هذا إذا أخذنا لكلمتي الفلك والبحر معناهما المادّي. وأمّا إذا أخذنا لمضمونهما معناه المجازي الرّوحيّ، فنفهم منه الإشارة إلى كلّ نبيّ بعثه اللهّ تعالى لإنقاذ النّاس من غفوتهم، وعبّر عنه بهاتين الكلمتين مجازاً لإظهار رحمة اللهّ بالعباد على الصّعيد الرّوحانيّ.

العنصر الرّابع - ومن ثم أضاف اللّه تعالى عنصراً رابعاً وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وانتقل بذلك من التّذكير برحمة اللّه وعطائها إلى تنبيه أذهان العقلاء إلى أهميّة الماء المادّيّ والماء الرّوحاني الذي هو وحي السّماء وكيف أنَّ الماء بنوعيه المادّي والرّوحيّ يرتبط بموضوع الحياة بنوعيها المادّية والرّوحيّة وبالموت

بنوعيه المادّي والرّوحيّ وبرابطةٍ معادلة طرديّة وثيقة. الأمر الذي يؤكّد وجود الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة ما بين الحياة في الأرض وما بين إنزال الماء والوحي من السّماء. فهذا كلّه عبّر تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أورد اللّه تعالى الواو بعد ذلك ليس بمعنى العطف، ولكنْ؛ بمعنى الحال لإدخاله هذه الواو على فعل الماضي (بثّ) وقال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ تنبيهاً لعقولنا إلى أنَّ حال حياة ما بثّه اللّه تعالى من دوابّ تدبّ على الأرض من إنسان إلى مختلف أنواع الحيوانات الثّديّة إلى مختلف أنواع الدّواب الأخرى مرتبط حالهم جميعهم بما ينزل من السّماء من ماء بنوعيه. فإنْ حرم اللّه الخالق أيّاً من أولئك من ماء السّماء المادّي أو الرّوحيّ الذي هو الوحي السّماويّ يهلك هذا الشّيء المحروم، ويهلك الإنسان لا محالة.

العنصر الخامس- وأخيراً فقد أورد اللّه تعالى عنصراً خامساً وقال: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولافتاً أذهاننا من خلال مضمون هذا العنصر الخامس إلى أهمّيّة الحركة والتّغيير في حياة كلّ شيء في هذا الوجود وكيف أنَّ الرّياح والسّحاب قد جعلهما اللّه تعالى الأداة لإحداث التّغيير المطلوب في الأشياء ولتطوير هذه الأشجار وتنميتها، فقد ثبت علميّاً بأنَّ الرّياح المسخّرة ما بين السّماء والأرض والتي تهبّ حيناً وتسكن حيناً آخر تؤدّي مهمّة عظيمة في هذا المجال، فالرّياح تحرّك الأشجار والنّباتات بجميع الاتّجاهات، وتساعد بواسطة تحريكها إلى مختلف الاتّجاهات إلى تنمية سوق هذه الأشجار وتلك النّباتات، ولتنمو وتتضخّم

بتلك الحركة. كما وضّح العلم الحديث أنَّ تلقيح الأزهار يتمّ عن طريق هذه الرّياح المسخّرة ما بين السّماء والأرض. إلى جانب أدائه مهمّات كثيرة لا داعي لتعدادها في هذا المقام. وإنَّ حركة التّغيير التي تتمّ على الصّعيد الاجتماعي يُعبِّر الأدباء عنها فيقولون هذه (رياح التّغيير) قد دبّت في هذا المجال. هذا وإنَّ هذه الجزئيّة الأخيرة التي تضمنتها هذه الفقرة الخامسة قد وردت في سياق بيان واسع رحمة اللّه التي تعمل في حياة كلّ شيء في هذا الوجود، ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ اللّه تعالى أنهى هذه العناصر الخمسة التي أوردها بقوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ قال هذا من باب أنَّ اللّه تعالى قد قدّم هذه العناصر المذكورة وهو يخاطب عقلاء النّاس ليفكّروا في مضامين هذه العناصر الخمسة بأسلوبٍ علميّ لعلاقة هذه العناصر بمعطيات العلم وحقائقه. هذا من جهة وليتبيّنوا الأسباب التي دفعت اللّه تعالى ليورد هنا في هذا الدّليل خمسة عناصر، ولم يكتف بإيراد عنصرٍ واحد أو عنصرين لإثبات ما أراد إثباته في مجال وحدانيّة ذات اللّه تعالى واتّصافه بصفتين رئيسيّتين هما صفتا (الرّحمان الرّحيم)؟

وما دمتُ قد شرحتُ للقارئ الكريم هذه العناصر الخمسة بأسلوب علميّ بقي عليّ أنْ أبيّن الدّاعي الذي دعا لتقديم أكثر من عنصرٍ أو عنصرين في هذه الآية الكريمة. فتذكّر يا أخي القارئ ما سبق لي أنْ وضّحتُهُ لك من قبل وهو كيف أنَّ علماء الغرب كانوا في القرن التّاسع عشر يفسّرون وجود كلّ شيءٍ على أنّه لربّما حدث من قبيل الصّدفة أو حدث بداعي الضّرورة. أمّا علماء القرن العشرين فقد عاد علماؤه يرفضون هذا الأساس لتفسير

وجود الأشياء وزادوا عليه عنصرين: الأوّل منهما أنَّ توفُّر تعدّد العناصر في تكوين أيّ شيء من الأشياء إنَّما يدلّ على وجود الذي كوّن ذاك الشّيء بعناصر متعدّدة. وبالتّالي فلا يجوز النّظر حينئذ إلى ذاك الشّيء على أنَّه حدث من نفسه بداعي الصّدفة أو بداعي الضّرورة أو بداعيهما معاً. وعليه فقد عادت ملاحظة توفّر عدّة عناصر في وجود الشّيء الواحد ضرورية لتقديم هذا الشّيء كدليلٍ علميّ. والعنصر الثّاني الذي افترضوا وجوده هو هذه الزخرفة التي تتراءى في وجود كُلِّ شيء من الأشياء وبما أنَّ تعاليم القرآن الكريم تصلح لكلّ زمان ومكان. فإنَّ هذا الدّليل الذي تضمّنته هذه الآية (64) من سورة البقرة قد استوفى هذا الأساس المطلوب توفّره حين تقديمه دليلاً على مصداقيّة الادّعاء الكبير الذي طرحته الآية الأولى قبلها. لذلك لاحظنا كيف أنَّ اللّه تعالى لم يكتف بتقديم ثلاثة عناصر أو أربعة، بل قدّم خمسة عناصر شكَّلت الدّليل على وجود اللّه تعالى، وعلى أنَّه هو الذي خلق هذا العالم على الصّورة التي تضمّنتها هذه العناصر الخمسة آنفة الذّكر. ويتضمّن هذا الدّليل كون اللّه الخالق هو الواحد الأحد المتّصف بصفتين رئيسيّتين هما صفتا (الرّحمان الرّحيم).

وهكذا أكون قد أثبتُّ بصورة علميّة وبمعطيات قرآنيّةٍ وجود رابطة علاقة جدليّة موضوعيّة كائنة ما بين السّماء والأرض تعمل بصورة مستديمة وبمعادلةٍ طرديّة. وأنَّ كلّ تغييرٍ حادث في السّماء يلقي بآثاره على سطح الكرة الأرضيّة المقابل منها. وإنَّ هذه الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة المشار إليها لا تعمل على صعيد الأمور المادّية وحدها بل وإنَّها تعمل على الصّعيد الرّوحيّ أيضاً. وأقصد من كلمتي (الصّعيد الرّوحي) كلّ ما يمتُّ إلى

موضوع تطوير النّفس البشريّة وإلى موضوع تطويـر الأمـم التـي تُشـكّل هـذه التّجمّعات البشريّة المتواجدة على سطح هذه الكرة الأرضيّة .

واعلم يا عزيزي القـارئ بأنّـه علـى حـين تكـون التّغـيّرات المناخيّـة هـي الأداة الرّئيسيّة في إحداث كلّ تغيير أرضيّ . فإنّ الوحي السّماويّ هـو الـذي يُشكّل الأداة الرّئيسيّة للتّغيير المطلـوب علـى الصّعيـد الرّوحـيّ . ويعنـى هـذا بألفاظ أخرى أنّ الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة التي تربط ما بين السّماء والأرض إنّما تقوم علـى هـاتين الدّعـامتين المذكورتـين وهمـا : أوّلاً ـ المنـاخ وتغيّراتـه . وثانياً ـ الوحي السّماويّ وتأثيراته . وإنّ كلّ بـاحث لا يـأخذ هـاتين الحقيقتـين بعين اعتباره حين يبحث في أمور مادّية أو فـي أمـور روحيّـة يخطـئ مـن أوّل خطوة يخطوها على طريق أيّ بحث يتناوله في حياته العلميّة . ومـا دمنـا قـد أحطنا علماً بما تفعله المتغيّرات المناخيّة فلنقدّم دليلنا المتعلّق بالوحي السّماويّ ومهمّة هذا الوحي السّماويّ في إصلاح الأمم والأفراد .

وقبل أنْ نقدّم هذا الدّليل القرآنيّ ينبغي أنْ نعلم بـأنّ الخـالق جـلّ شـأنه على حين أنّه يرعى كلّ إنسانٍ بشـكلٍ مسـتقلّ بتجلّيـه عليـه بأشـكال مختلفـة فإنّ هذا الخـالق يرعـى مختلـف الأمـم بواسـطة أنبيائـه ورُسُـله الكـرام ، فـهو تعالى يبعثُ من كلّ أمّة رجلاً يكون صالحاً لحمل رسـالة ربّـه إلـى الأمّـة التـي يريد اللّه تعالى إحياءها . إلى أنْ بعث اللّه عـزّ وجـلّ محمـداً رسـول اللّـه ﷺ خاتماً للنّبيّن الذين كان يوحي إليهم برسالاته وذلك عـن طريـق الاصطفـاء . وقد كان قد أوحـى إلـى محمّـد ﷺ بشـريعة ذات تعـاليم كاملـةً لا تحتـاج إلـى التّكميل ، ولذلك فما عاد البشر بحاجة بعده ﷺ إلـى اصطفـاء نبيٍّ بأسـلوب

الاصطفاء الذي ذكرناه. ذلك لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أسّس بواسطة التّعاليم التي حملتها رسالة الإسلام مدرسةً روحيّة هي على وجه الكمال الذي تميّزت به تعاليم الرّسالة الإسلاميّة تلك التي يتخرّج منها رجالات روحيّون يتدرّجون صعوداً في نفس سُلّمِ المقامات الرّوحيّة التي كان ينالها الإنسان من قبل إنزال شريعة الإسلام أولئك الذين كانوا يصطفيهم اللّه تعالى من دون التزامهم بتعاليم مدرسة روحيّة معيّنة في ذاك الحين. هذه المدرسة الرّوحيّة التي عبّر اللّه عزَّ وجلَّ عنها بمصطلح (الصّراط المستقيم) وقد حثّ اللّه عزَّ وجلَّ كلّ مؤمن ليدعو ربّه في كلّ ركعة من ركعات صلواته أنْ يهديه إلى العمل على منهاج هذا الصّراط المستقيم فيدعو ربّه ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. ولذلك نلاحظ بأنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد قال في الآيتين 69/ 70 من سورة النّساء محدّداً تلك المقامات الرّوحيّة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾. وقد عرّف اللّه تعالى كلمة (الرّسول) بأداة التّعريف للإشارة إلى محمّد بن عبد اللّه رسول الإسلام وإلى تعاليم شريعته. علماً بأنَّ الحرف (مع) ورد في الآية الأولى بمعنى (من) دفعاً لتكرار حرف (من) في الآية من جهة وللدّلالة على تعظيم اللّه تعالى لهذا الفضل الذي فضّله على أتباع محمّد رسول اللّه ﷺ من خلال قوله تعالى في الآية الثّانية (ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ).

ونعود إلى تقديم الدّليل القرآنيّ المتعلّق بالوحي السّماويّ، فهو الدّليل الذي تضمّنته الآيات 22/ 23/ 24 من سورة الأنفال تلك التي قال اللّه جلّ شأنه فيها: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

فالآية الأولى أنهاها اللّه تعالى بقوله (ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) وقد أشار من خلال قوله هذا إلى هذا الإنسان المتميّز عن الحيوان الغريزيّ بجوهرة العقل. هذا العقل الذي لا يعمل إلاّ عن طريق ما يصله من معلومات حول كلّ شيء عن طريق الحواس الخمس. فإنْ أصمّ هذا الإنسان أذنيه عن سماع كلام اللّه تعالى وأمسك عن النّطق والحوار مع الرّسول ومع المؤمنين فأنّى لهذا الإنسان أنْ يصبح عاقلاً ليدرك ما آتاه الرّسول معه من حقائق وتعاليم؟ فهذا الأصمّ الأبكم يعود أشرّ من الدّواب التي خلقها اللّه عزّ وجلّ. فالاستماع والحوار صفتان لا ينبغي على الإنسان أنْ يتخلّى عنهما بحال من الأحوال.

وأمّا في الآية الثّانية فقد نبّه اللّه أذهاننا فيها إلى أنّ الصّفات الحسنة لا تضيع نتائجها عند اللّه تعالى، بل وتحتلّ مكانتها اللّائقة بها عند اللّه عزّ وجلّ. فهذا ما دلّت عليه كلمة (الخير) التي تستعمل ضدّ كلمة (الشّر) وتعني وجدان الشّيء وكمالاته اللّائقة (محيط المحيط). وهذا المعنى يُفسِّر قول رسول اللّه ﷺ عندما خاطب عمر بن الخطّاب ؓ وقال له (لقد أسلمتَ بما أسلفتَ). بمعنى أنّ ما كنت تحمله من صفات حسنةٍ وتفعله من أفعالٍ

حسنة سابقاً قبل إسلامك شَكَّلت خيراً عند اللّه تعالى فأسمعك دعوة الإسلام على حقيقتها وهداك. فهذا هو معنى قوله تعالى في الفقرة الأولى من الآية الثّانية (وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ) وأضاف اللّه تعالى في الفقرة الثّانية وقال (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ) بمعنى أنَّ مَنْ كان أصمَّاً وأبكماً لا يستمع القول ولا يحاور، وكان في الوقت نفسه شرّيراً لا يفعل الخير فلا يستجيب لربّه، ويتولّى يدبر، ويصبح كافراً ولا يستجيب.

وهنا وفي هذه الآية الثّالثة توجّه اللّه عزَّ وجلَّ بخطابه نحو المؤمنين الذين استجابوا لوحي السّماء داعياً إيّاهم ليستجيبوا للّه وللرّسول بصورة عمليّة ومن باب أنَّ الإيمان وحده لا يكفي، بل لابُدَّ للإيمان أنْ يقترن بالعمل ليتمكّن هذا المؤمن من الاستفادة ممّا آمن به وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. علماً بأنَّ فعل الأمر (ٱسْتَجِيبُواْ) اشتقّ من استجاب له بمعنى ردّ له الجواب (محيط المحيط) أي أنَّ اللّه تعالى حين يأمر بشيء فإنَّ على المؤمن أنْ يستجيب لهذا الأمر ويعمل على مضمونه. وإنَّه جلّ شأنه حين علّل أمره هذا وقال (لِما يُحييكم) معناه أنَّكم يا مَنْ استجبتم لصوت السّماء وآمنتم باللّه وبرسوله فأنتم كنتم موتى روحيّاً، فإنْ استجبتم لأوامر ربّكم وأوامر رسوله تكونون كَمَنْ سار على طريق الارتقاء الرّوحيّ فتدبُّ فيه حياة روحانيّة، وأمّا مَنْ كفر وتولّى ولم يستجب لوحي السّماء فيظلّ محروماً من هذا الارتقاء الرّوحيّ. ومن خلال هذه الحقيقة التي تضمّنها هذا الخطاب الإلهيّ يكون اللّه تعالى قد كشف عن الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة التي تربط ما بين السّماء والأرض على الصّعيد

الرّوحيّ أيضاً. وبذلك يكون اللّه تعالى قد شبّه فعّالية الوحي السّماويّ بفعّاليّة الماء المادّي الذي ينزل من السّماء وتتلقّاه أفئدة المؤمنين البَرَرَة الصّادقين. وهي الحقيقة التي تُشكّل الدّليل القرآنيّ القاطع على وجود اللّه الذي لا إله إلا هو الرّحمان الرّحيم وهو الدّليل المطلوب.

وقد جمع القرآن الكريم بين هاتين الحقيقتين المادّيّة والرّوحيّة والمختصّتين بالرّابطة الجدليّة الموضوعيّة التي تكلّمنا عنها، وذلك في آيةٍ واحدةٍ؛ حيثُ قال في الآية 57 من سورة الأعراف:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. فهو جلّ شأنه قد أشار من خلال قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ قد أشار إلى الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة على المستوى المادّي المتعلّق بإنزال ماء السّماء لإحياء الأرض الميتة. وهو تعالى قد أشار من خلال قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قد أشار إلى الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة على المستوى الرّوحيّ المتعلّق بإحياء النّفوس الموتى البعيدة عن سلّم التّرقّي الرّوحاني. بدليل إيراده تعالى صيغة التّصغير (الموتى) وإعراضه هنا عن استعمال صيغة الأموات التي هي صيغة جمع (ميّت). وقد استعار تعالى هنا فعل (نُخرج) لإشعار القارئ بالشّبه الكائن ما بين عمليّة إحياء البلد الميّت وما بين عمليّة إحياء النّفوس الموتى. وبذلك يكون جلّ شانه قد جمع ما بين الرّابطتين الجدليّتين الموضوعيّتين المتعلّقتين بعلاقة الأرض بالسّماء في آية

واحدة. وقد علّل اللّه جلّ شأنه سبب ما بيّنه في هذه الآية الكريمة من الإشارة إلى هاتين الحقيقتين وقال (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). أي ولعلّكم تنتصحون بما بيّنته لكم من حقائق ثابتة. ففعل (تذكّر) معناه ذكر وانتصح بما ذكره. (محيط المحيط).

وعلى هذه الصّورة أكون قد وضّحتُ الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة التي تربط ما بين السّماء والأرض على الصّعيدين المادّي والرّوحيّ، كذلك دعّمتُ هذا الادّعاء بدليلٍ علميٍّ وبدليلٍ قرآنيّ. وفعلتُ هذا لننطلق متكلّمين عن عامل الوحي السّماويّ المساعد لعقولنا لتعمل على صعيد الزّمن المستقبل وهي الحقيقة الغائبة عن أذهان كثيرٍ من النّاس المعاصرين.

ثمّ إنّه وكما أنَّ العلاقة الجدليّة الموضوعيّة على الصّعيد المادّي مستمرّة ما دامت السّماء والأرض ويستحيل أنْ تنقطع فإنَّ العلاقة الجدليّة الموضوعيّة على الصّعيد الرّوحيّ مستمرّة لا تنقطع ما دامت السّماء والأرض موجودتان. فَمَنْ قال بانقطاع نزول الوحي السّماويّ بعد بعثة المصطفى ﷺ يُبدي جهله بهاتين الحقيقتين الجدليّتين الموضوعيّتين، ويخالف بذلك مضمون الآية 51 من سورة الشّورى، ويتنافى زعمه هذا مع مُعطيات العلم ومعطيات آيات كتاب اللّه العزيز. إلاّ إذا جاء هذا المدّعي بدلائل قرآنيّة وعلميّة تخالف ما بيّنّاه. وبذلك نكون قد أكملنا مضمون هذا الفصل الثّاني من هذا الكتاب، لذلك ننتقل إلى الفصل الثّالث بمشيئة اللّه تعالى ومعونته.

الفصل الثالث:

الاحتمال والوجود

لقد قدّم علماء الكلام القدماء أدلّةً عديدة أثبتوا من خلالها أنَّ اللّه تعالى موجود وأنّه خلق هذا العالم وما فيه. وقدّمتُ أنا أيضاً عدّة أنواع من الأدلّةً في مؤلّفي (اللّه جلّ جلاله) واستقيتُهَا جميعها من معطيات الآيات القرآنيّة، وأثبتُّ من خلالها أنَّ اللّه تعالى موجود. وقدّمتُ في بحث العقل الذي أبحثه في هذا الكتاب أسماء علماء غربيّين وأقوالهم التي توصّلوا إليها، وهو أنَّ صورة هذا العالم لا تكتمل علميّا إلاّ بالاعتقاد بوجود عقلٍ مطلقٍ وراء خلق هذا الكون وهو ما نُسمّيه(اللّه).

فيا عزيزي القارئ إنَّ جميع ما قدّمناه وما ذهبوا إليه إنْ هو إلاّ مجرّد محاكمات عقليّة ومعطيات علميّة لا تصل حقائقها إلا إلى حدود احتمال وجود خالقٍ لهذا الكون. أمّا هل أنَّ اللّه موجودٌ حقّاً؟ فهذا سؤال يتجاوز

جميع ما ذكرناه. وهو سؤال مغايرٌ لما توصّلنا وتوصّلوا إليه، وينبغي الإجابة عنه إجابةً مُقنعة.

ولكي أوضّح لك الفرق يا عزيزي القارئ ما بين حقيقة الاحتمال وما بين حقيقة الوجود أضرب للقارئ الكريم مثالاً من الواقع، لعلّي أتمكّن من توضيح هذا الفرق المشار إليه. فلنفرض أننا وصلنا مكاناً ما وقد لا حظنا هناك وجود دارٍ، وأردنا أنْ نعرف هل أنَّ هذه الدّار خاوية أو أنَّ فيها أحد من الأحياء. فماذا نفعل؟ إنَّنا نتقدّم من تلك الدّار ونطرق بابها طرقا خفيفا في البداية. فإنْ لم يُجبنا أحد نكرّر الطَّرق، ولكنْ؛ بطرقٍ أشدّ. فإنْ لم يجبنا أحد نطرق الباب بكلتي يدينا مراراً وتكراراً. فإنْ لم يجبنا أحد نضع عدّة احتمالات: **فالاحتمال الأوّل** أنْ تكون الدّار خاوية لا أحد فيها. **والاحتمال الثّاني** أنّه إنْ كان فيها من أحدٍ فهو ميّتٌ لا حياة فيه. **والاحتمال الثّالث** أنَّ الذين بداخلها لا يريدون فتح الباب لأحدٍ من النّاس.

وعلى كلّ حال فإنْ نحن تمكّنّا من محاورة مَنْ كان حيّاً في الدّار المذكورة سواء أ فتح لنا الباب أم لم يفتحه فإنَّ حواره معنا يضع في أيدينا الدّليل القاطع على وجود كائنٍ حيٍّ في تلك الدّار. أمّا إذا كان يجيبنا: مَنْ هذا الطّارق وحسب؟ فلا يكفي جوابه بهذه الألفاظ للتّدليل على ما ذكرناه بل لربّما كانت هناك مسجّلة في الدّاخل تكرّر تلك الجملة المذكورة.

فأنا شبّهتُ (الدّار) في هذا المثال بهذا الكون المنظّم العامر. وشبّهتُ أنفسنا ونحن نطرق (باب الدّار) بمَنْ يبحث عن وجود خالق لهذا الكون المنظّم العامر. ونبّهتُ من خلال ذلك إلى أنَّ حوارنا وحديثنا مع مَنْ يكون

داخل الدّار يُشكّل الدّليل القاطع على وجود اللّه عزّ وجلّ. وأنَّ عدم وجود صدى لطرقنا الشّديد على الباب فيه كلّ الدّلالة على أنَّ صاحب هذه الدّار إمّا أنْ يكون غائباً عنها أو أنْ يكون فيها، لكنّه من الأموات.

والقصد الذي أرمي إليه من هذا المثال وما شبّهناه من خلاله هو أنْ نصل إلى القول بأنَّ موقفنا من هذه الدّار المذكورة هو موقفنا من وجود هذا العالم من حولنا، وهو ما قلناه من أنَّ تقديم الأدلّة على وجود اللّه سبحانه وتعالى يصل بنا إلى (احتمال) وجود الذّات الإلهيّة التي أبدعت هذا الكون العامر. وأنَّ ما يتعلّق بتحاورنا مع مَنْ كان بداخل الدّار، فللتّدليل به على أنَّ تلقّي وحي السّماء من وراء حجاب هو الذي يُقنعُنا بوجود ذات اللّه تعالى ويثبت بأنّه جلّ شأنه (موجود) حقّاً.

هذا المثال يُصوِّر لنا حال أنّنا سعينا للبحث عن الخالق، وحاولنا محاورته أمّا إذا كنّا قد مررنا بجانب دارٍ وسمعنا صوت مَن يُنادينا من داخلها، فهذه الحقيقة تكفينا لنعتقد أنَّ صاحب الدّار حيٌّ وهو موجود بداخلها أيضاً. لذلك فلا تعود هناك من حاجةٍ لطرق الباب، بل تظلّ الحاجة من جانبنا أنْ نستجيب ونلبّي نداء مَنْ كان في داخل الدّار.

والمهمّ في الأمر هو أنّه إنْ قضى عقلنا أنّه ينبغي أن يكون لهذا العالم من حولنا خالق قد أبدع هذا الكون، فقد أوصلنا عقلنا إلى حدّ (احتمال) وجود اللّه الخالق المبدع. أمّا بعد ذلك فيغرق هذا العقل في نهرٍ من الحيرة، ويعود يتساءل عمّا إذا كان ما تصوّرناه صحيحاً وحقيقة ثابتة أم هو مجرّد استنتاج قريب من الحقيقة، لكنّه لا يُمثّل الحقيقة ذاتها.

وهكذا فإنَّ من صلب الحقيقة أنْ نتلمس اليوم ما يدلّ على وجود هذا الخالق المبدع. ذلك أنَّ (احتمال وجود الشّيء) لا يساوي من حيثُ الحقيقة (وجود هذا الشّيء نفسه). فالعقل قد أوصلنا إلى مرحلة (احتمال وجود الشّيء) ولكنّه لم يصل بنا إلى مرحلة (وجود هذا الشّيء)، لذلك نلاحظ انقسام المفكّرين في عالمنا ما بين إنسانٍ ملحدٍ وما بين إنسان طبيعيٍّ وما بين مؤمن بوجود اللّه الحقّ وغير ذلك من الفئات. وهذا التّنوّع في المشارب أساسه اعتماد جميع هؤلاء على عقولهم وحدها. فهذا العقل الذي لم يصل بأحدٍ من النّاس إلى مرتبة التّيقّن من وجود الخالق المبدع نفسه في زمانه الذي عاش فيه قد ترك سؤالاً يلحّ علينا بشدّة وهو ضرورة أنْ نعلم كيف سيتولّد في أنفسنا اليقين بوجود الخالق المبدع لهذا الكون اللانهائيّ من حولنا. ذلك أنَّ عقلنا أوصلنا بعد جهدٍ جهيدٍ إلى ضرورة وجود اللّه المبدع، ولم يصل بنا عقلنا إلى وجود اللّه الخالق المبدع وعلى وجه الحقيقة التي تساعد الإنسان على الفصل ما بين مختلف الفئات المذكورة.

وعليه فإنَّ بقاء واستمرار نزول الوحي الإلهيّ على مدى الدّهر وبطُرُقه الثّلاث التي نصّت عليها الآية 51 من سورة الشّورى هو من أشدّ الضّرورات، ولا يقبل النّقاش بصورة مَنْ الصّور. وإنَّ كلّ مَنْ يقول بانقطاع نزول الوحي يخالف مضمون هذه الآية الكريمة، ولا يُعدُّ مفكّراً عاقلاً، بل يكون مؤمناً بالتّقليد على شاكلة مَنْ سبقه من المؤمنين ليس إلاّ، وإنَّ وجود هذا النّوع من التّقليد الأعمى هو الذي تسبّب بتخلّف الأمم والشّعوب. أمّا استمرار نزول الوحي فهو يُشكِّل السّفينة الوحيدة التي تصل بمتلقّي وحي

السّماء إلى ساحل التّوحيد والأمان واليقين الكامل بعد تخليصهم من الظّنون والشّبهات. فلو أنَّ أفلاطون كان قد تلقّى وحي السّماء فلكان قد رجع عن ادّعائه. ولو أنَّ جالينوس كانت له صلة بالخالق المبدع لكان قد رجع عن شكّه ببقاء الأرواح ووجود الثّواب والعقاب. وهكذا فإنَّ التّوحيد الكامل مرتبط بوجود الوحي والإلهام الإلهيّ غير التّشريعيّ، وإلاّ فإنْ وجدنا أحداً من النّاس لا يؤمن باستمرار نزول الوحي السّماويّ ولا يتلقّى هو بنفسه شيئاً من قبسات نور هذا الوحي المقدّس، فإنَّ إيمانه يكون من قبيل إيمان العجائز المقلّدات ليس إلا، وليس هو الإيمان المطلوب منه في كتاب اللّه العزيز. فالإيمان المنصوص عليه في هذا القرآن العظيم هو الذي وعد اللّه العزيز أصحابه المؤمنين بالبشرى في الحياة الدّنيا والآخرة.

وما دمنا قد أثبتنا من قَبْلُ في الباب الثّاني من هذا الكتاب إطار حدود عمل عقل الإنسان وكيف أنّه ينحصر في إطار كل ما هو مادّة ومادّي وأنْ ليس باستطاعة عقل الإنسان اكتشاف ما وراء هذا الكون فهذا هو حالنا، وقد مررنا بجانب دارٍ عظيمة البناء. وإنَّ عمليّة تحنُّث محمّدٍ بن عبد اللّه في غار حراء قرابة عشر سنواتٍ يشبه ما فعله حال مَنْ راح يطرق باب هذه الدّار طرقاً شديداً على باب الدّار إلى أنْ استجاب مُبدعُ هذه الدّار العظيمة لدعائه وتحنّثه وجعله من الرّجال المقرّبين منه جلَّ شأنه ومن رُسُله الكرام.

فإنْ نحن استعدنا بذاكرتنا يا عزيزي القارئ ما حدث منذ بداية تاريخ وجود هذا الإنسان على سطح هذه الكرة الأرضيّة نلاحظ ومن خلال ما عثر عليه علماء الآثار من آثار أقدم الأمم الخالية كتاريخ شعب المكسيك على

سبيل المثال أقول نلاحظ بأنَّ مُبدعَ هذا الكون المادّي هو الـذي بـادر إلـى هـذا الإنسان فأطلعه على وجود ذاته المقدّسة. وليس العكس من ذلك إطلاقاً. فهذه حقيقةٌ بالإمكان إثباتها ممّا عثر عليه علماء الآثار من آثارٍ أثبتت مصداقيّتها. وممّا أتى القرآن الكريم به من أدلّة مؤيّدة لرأينا هذا الآنف الذّكر، وقد أدليتُ بكلّ ما ينبغي تقديمه من أدلّة في كتابي (اللّه جلّ جلاله). لكنّنا وقبل تقديم الأدلّة التّاريخيّة والأدلّة القرآنيّة ينبغي أنْ نتساءل عن الوحي السّماويّ نفسه وعن نزوله من السّماء، فهل تصدّق نزوله القوانين المادّية؟ فالجواب عن هذا السّؤال هو أنَّ القوانين الطّبيعيّة لا تصدّقه ومن باب أنَّ أحداً ما لم يسمع في يوم من الأيّام أنَّ صوتاً أتى من السّماء في وضح النّهار؟

لكنّ الإجابة عن السّؤال سالف الذّكر تأتي فيما إذا نظرنا إلى الوحي السّماويّ على أنَّه صوت كصوت الإنسان ذو ذبذبات تشبه ذبذبات أصوات النّاس. على حين أنَّ خالق هذا الكون المادّي لم يكشف للإنسان عن ماهيّة ذاته المقدّسة، واكتفى بالقول أنّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. بل إنَّ كلام اللّه تعالى مع بني نوع الإنسان يدخل أصلاً في باب ما نُسمّيه تمثُّلات وتجلّيات تحدث من وراء حجاب. فقد تحدُثُ هذه في المنام، وقد تحدُثُ في اليقظة التّامّة. وإنَّ ما ندّعيه ما هو إلاّ حقيقة قد حدّثت بها تجارب المقرّبين من اللّه عزَّ وجلَّ. إلا أنْ يحمل ملاك هذا التّجلّي الإلهيّ إلى هذا الإنسان وحياً لفظيّاً كما حدث عند إنزال هذا القرآن العظيم.

وهنا كان من واجبي أنْ ألفت نظر القارئ الكريم إلى حقيقة ثابتة ومنطقيّة معقولة، وهي أنَّ ادّعاء أحدٍ من النّاس تلقّيه وحياً مقدّساً يدخل فيما نسمّيه (ادّعاء إيجابيٌّ) إلا أنْ يقوم إنسان آخر ينكر ذلك وينقض هذا الادّعاء المشار إليه. فالإنكار يظلّ يتّصف بالسّلبيّة ما لم تثبت مصداقيّته. وبإمكاننا القول بأنَّ هذا الإنكار يدخل في باب ما نُسمّيه (موقف سلبي) لا يبلغ في مرتبته مرتبة الموقف الإيجابي الذي هو عليه من ادّعى تلقّيه وحياً سماوياً مقدّساً. فليفرض القارئ الكريم أنْ يدّعي امرؤ أنَّ من خواص هذه القطعة المعدنيّة التي هي بين يديه أنَّها تشتمل على قوّة المغناطيس؛ أي على تلك القوّة التي لا تُرى بالعين، ولا تُلمس باليد، فإنَّ ادّعاءه هذا هو (ادّعاءٌ إيجابيٌّ) ولا ينبغي رفض ادّعائه إلاّ بدليل. فإنْ نفى امرؤ هذا الادّعاء هكذا وبدون تقديم أيّ دليلٍ يؤكّد مصداقيّة ما نفاه فإنَّ إنكاره المجرّد هذا مرفوض لكونه (ادّعاء سلبيّ). وإنَّ هذا الادّعاء السّلبيّ لا يتقدّم على ذاك الادّعاء الإيجابيّ إلاّ إذا اقترن النّفي السّلبيّ بدليلٍ مقنع ومعقول وبمختلف الموازين.

فمن هذا المنطلق نقول إنَّه قد ظهر في فترات من الزّمان والمكان رجال ونساء ادّعى كلّ واحدٍ منهم تلقيه وحياً سماويّاً صادراً عن خالق هذا الكون، وبطرق كلام اللّه مع عباده المنصوص عليه في الآية **51** من سورة الشّورى التي أوردناها من قَبْلُ. وكما أنَّ ضوء الشّمس يأتي من السّماء ولا يتولّد من العين أو من غيرها، فإنَّ هؤلاء الرّجال والنّساء أعلنوا صراحةً بأنَّ كلام اللّه تعالى الذي تلقّوه قد صدر عن السّماء، وليس من الأرض. وأنَّ هذا الوحي المقدّس يسمو كلّيةً عمّا يتّصف به كلام الإنسان من قدرات، وأنَّ

هذا الوحي يتّصف بالكمال والقداسة ولا حدود لما يتضمّنه هذا الوحي من علمٍ وحكمة وأمورٍ تتعلّق بالغيب. وعليه فإنَّ ادّعاء هؤلاء الرّجال والنّساء الادّعاء المشار إليه يُعتبر في حقيقته (ادّعاءَ إيجابيّاً) بالميزان الذي أوردناه ووفقاً للمنطلق الذي سبق أنْ بيّنّاه آنفاً فمَنْ أنكر تلقّي أولئك الرّجال والنّساء الوحي السّماويّ يكون إنكاره متّصفاً بصفة السّلبيّة ما لم يؤيّد إنكاره بدليل مقنعٍ وصحيح. ثمّ إنَّ هؤلاء الذين ادّعوا تلقّيهم وحياً سماويّاً قد قدّموا من الأدلّة الكافية التي أثبتت مصداقيّة ما ادّعوه. فهم أتوا بعلومٍ لا سبيل إلى الوصول إليها في أزمنة ادّعاءاتهم إلاّ بما أتى به الوحي السّماويّ. وقد أعلنوا في حياتهم عن نبوءات كثيرة ثبتت صحّتها حين تحقّقت على حين أنَّ مضامين تلك النّبوءات كانت على مستوى يفوق طاقة الإنسان. وكانت تلك الأدلّة التي قدّموها كافيةً لتدفع فريقاً من طلاّب الحقيقة إلى الإيمان بما ادّعاه أولئك النّاس. وإنَّ هذه الحقيقة التي بيّنّاها من خلال ادعاء ملايين الملايين من النّاس تلقّيهم وحي اللّه القدّوس نكون قد أثبتنا من خلالها كون اللّه عزَّ وجلَّ موجود وحيّ وقيّوم، وأنّه يثبت وجوده وحياته وحيويّته عن طريق الوحي السّماوي. وإنَّ هذه النّتيجة تعني بألفاظ أخرى أنَّ بقاء واستمرار تلقّي الوحي السّماويّ يصحّ به التّدليل على استمراريّة حياة اللّه خالق هذا الكون ومبدعه. فإنْ زعم أحدٌ انقطاع نزول الوحي السّماويّ في يوم من الأيّام فإنّه يخالف ما توصّلنا إليه ويتنافى مع كون اللّه تعالى حيّ ويصطدم ذلك مع الرّابطة الجدليّة الموضوعيّة التي تربط الأرض بالسّماء. فكما أنَّ الأرض يستحيل بقاؤها تنبض فيها الحياة بدون مدد السّماء من ماء كذلك

فإنَّه يستحيل أنْ تظلّ مسيرة هذا الإنسان في تقـدّمٍ ورقـيٍّ بـدون تلقّـي بعـض أفراده وحياً سماوياً يوجّههم ويرشدهم ويصلح ويجدّد ما فسد من أحوالـهم بالرّغم من وجود تعاليم شريعةٍ كاملةٍ بين أيديهم.

هـذا وإنَّ هـذا المثال الـذي قدّمناه تحت عنوان (الاحتمال والوجـود) وإشاراته للموضوع الذي أردنا بيانه والنّتيجة التي خرجنـا بـها، كـلّ ذلك لا بدّ أنْ يكـون قـد أعـان القـارئ العزيـز علـى فـهم مـا أردتُ بيانـه مـن دلالات كلمتي (الاحتمال والوجود).

وباختصار أقول: إنّ كلّ مَنْ اعتقد بوجود اللّه الخالق لمجرّد قيامه بإقناع نفسه بالأدلّـة العقلية التي يثبت من خلالـها وجـود اللّـه خـالق هـذا الكـون ومبدعـه يكـون كمـن أوصـل عقيدتـه إلـى مرتبـة (الاحتمـال) ولا يكـون قـد أوصل عقيدته إلى مرتبـة (الوجـود) التـي تـهب هـذا الإنسـان اليقـين الكـامل بوجود اللّه الخالق المبدع للكون من حوله.

من هذا ندرك القيمة الحقيقيّة لقول اللـه تعـالى فـي الآيـات 62/ 63/ 64 من سورة يونـس والتـي قـال اللّـه تعـالى فيـها: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فالبشرى الواردة في هذه الآيات الكريمة هنا شملت الحياة الدّنيا والآخرة معـاً واللام في قوله تعالى (لهم) وردت بمعنى الاختصاص أو شبه التّمليك، فمـا هو سرّ اختصاص هؤلاء المؤمنين المتّقين بالبشرى المشار إليها في هـذه الآيـات الكريمة؟؟ بالإمكان أنْ نجيب عن هـذا السّؤال باختصـار فنقـول: إنَّ الوحـي

هو فـي حقيقته رفيق للعقـل علـى مسـتوى الزّمـن المسـتقبل ويسـاعده علـى كشف الغامض من الأمور. وأمّا الإجابة المفصّلة لتلـك الحقيقـة فـهي بحاجـة لشرحها في فصلٍ خاصّ بها.

الفصل الرّابع:

الوحي رفيق العقل ومساعده

وعندما أقول بأنَّ الوحي السّماويّ هو رفيق العقل ومساعده فلا أقول هذا جزافاً، وإنَّما استندت فيه إلى مستندٍ قرآنيٍّ أشار إلى ظاهرة طبيعيّة وحقيقة اشتمل عليها كلّ شيء في هذا الوجود. فما هي هذه الظّاهرة الطّبيعيّة المشار إليها في هذا المقام؟

هذه الظّاهرة تتجلّى في أنَّ اللّه الذي أبدع هذا الكون وقد أبدعه على صورةٍ أنَّ كلّ شيء فيه له رفيق ومساعد له يُكمل وجوده ووفق قانون احتياج عام. فالسّماء تُكمل وجود الأرض وتساعدها على البقاء، والأنثى تُكمل وجود الرّجل وتساعده على استمرار نسله وبقائه، والأشجار المثمرة، جعل من كلّ زوجين اثنين، واللّيل يقابله النّهار. وحتّى أنَّ حواس الإنسان تخضع لظاهرة الزّوجيّة المذكورة فالعين لا تعمل إلاّ أنْ يكمل وجودَها الضّوء كذلك فإنَّ الأذن يكمل وجودها الهواء، والأنف يكمل

وجوده الرّوائح بمختلف أنواعها، وحتّى عقل الإنسان الذي يعمل على مختلف المستويات الزّمنيّة فله رفيق قيّم جداً يساعده على العمل على مستوى الزّمن المستقبل وهو وحي السّماء. وإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد حثّ هذا الإنسان على تتبّع معالم هذه الظّاهرة الطّبيعيّة وليتفكّر في دلالاتها، وكيف أنّها تُشكّل علامة على وجود الخالق المبدع الفعّال لما يريد. فإلى هذه الحقيقة أشارت الآية الثّالثة من سورة الرّعد التي قال تعالى فيها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقد جاء العلم الحديث يؤيّد ويؤكّد هذه الحقيقة التي تكلّمنا عنها وتوفّر وجودها حتّى في هذه الذّرّة الماديّة وفي تركيبها أيضاً. وهي حقيقة يعلمها علماء الذّرّة والحياة. وقد اختصر اللّه تعالى بيان هذه الحقيقة وذلك في الآية 49 من سورة الذّاريات وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وهكذا يتبيّن أنَّ ما بين عقل الإنسان وما بين الوحي السّماويّ رابطة الزّوجيّة التي ذكرناها، فإنْ حذف امرؤ هذا عن هذا واعتقد بانقطاع الوحي السّماويّ تختفي من أمام عينيه جواهر هذه المعادلة الطّبيعيّة، بل ويتبدّل النّفع بالضّرر في أغلب الأحيان، ويعود هذا الشّخص بعيداً عن ربّه، ويُحرم من غذائه الرّوحاني ويعود يشبه حاله حال هؤلاء المعتقدين في أيّامنا هذه بانقطاع الوحي السّماوي الذين يظنّون بأنّهم يسيرون وفق مشيئة ربّهم عزَّ وجلَّ في سلوكهم وفي عباداتهم، لكنَّ خطواتهم هذه تأتي غير سديدة ولا منتجة. يحدث هذا كلّه بسبب جهلهم بحقيقة أنَّ آثار علوم الدّين لا

تظهر ثمارها ما دامت اللّحمة ما بينها وما بين اقترانها بتلقّي الوحي السّماويّ وتوجيهاته مقطوعة. هذا الوحي الذي يتلقّاه المؤمن التقيّ من وراء حجاب وعلى شكل تجلّيات وبشارات من جانب ربّه عزَّ وجلَّ، وتُشكِّل هذه البشارات وتلك التّجلّيات التي يتلقّاها من جانب ربّه عزَّ وجلَّ وثيقة محبّة اللّه تعالى لهذا المؤمن التقيّ وشهادة حسن سلوك ودليل عدم انتحاله صفةً ليست له. أمّا إذا ترافق عقل الإنسان مع بركات هذا الإلهام الإلهيّ الذي لا يحمل تشريعاً لكون القرآن الكريم هو تشريعه الكامل الذي لا يحتاج إلى تكميل. أقول إذا اجتمع العقل والإلهام الإلهيّ في دار أحد من المؤمنين الأتقياء يغنى هذا المؤمن عَمَّنْ سواه وتبتعد عنه نحوسته. ويكفي المرء الباحث أنْ يتذكّر أولئك المفكّرين والفلاسفة الذين أهملوا حقيقة هذه الزّوجيّة التي تجمع ما بين العقل ووما بين الوحي السّماويّ، وكيف أوقعهم إهمالهم هذا في حُفر الضّلالة والظّلام.

وعليه فإنَّ من المناسب جدّاً أنْ يُدرك الإنسان أنَّ العقل بالرّغم من عظمته فإنَّ لعمله حدود، وليس باستطاعته تجاوزها، وعلى حسب ما أثبتُّ ذلك علميّاً وقرآنيّاً من قَبْلُ. ولا يكتمل عطاء عقل الإنسان إلاّ إذا اقترن بوحي السّماء. وإنَّ وجود هذا القرآن المجيد وما اشتمل عليه من تعاليم وأحكام لا يُغني هذا المؤمن التقيّ إلاّ إذا سار على الصّراط المستقيم الذي يساعده على الانضمام إلى صفوف المؤمنين من أولئك الذين أنعم اللّه تعالى عليهم من قبله وصاروا من المقرّبين من اللّه جلّ شأنه. وإنَّ هذه الحقيقةٌ التي زوّدتُكَ بها يا عزيزي القارئ تُعَدُّ من أهمّ ما زوّدتُكَ به من زادٍ علميّ

وإيمانيّ. فتدبّر جيّداً هذه الحقيقة لارتباطها بحياتك الدّنيويّة والأخرويّة أيضاً وفي وقت واحد .

خاتمة هذا الكتاب

إنَّ القارئ الذي يشدّه عنوان هذا الكتاب لارتباطه بأغلى ما يملكه من هبةٍ منحه اللّه خالقه إيّاها، وهي هبة هذا العقل الذي ميّزه به عن سائر الكائنات الحيّة يتسرّع ليلقي نظرةً عابرةً على عناوين هذا البحث لينظر أيّة العناوين تهمّه شخصياً. فيراجع فهرس العناوين من هذا المنطلق وينساب في تتبّع ما ورد في الفهرس من عناوين لأهمّيتها في نظره جميعها، ولا يدري من أين يبدأ.

فأنصح هذا القارئ العزيز أنْ يطالع مقدّمة هذا الكتاب بادئ ذي بدء، ومن ثمّ يطالع ما اشتمل عليه هذا الكتاب من مضامين بنفس التّدرّج الذي وردت فيه كي يستفيد فائدةً حقيقيّة، فإنْ لم يعمل على نصيحتي هذه يستفيد، ولكنْ؛ إلى حدود. فلماذا نصحت هذا القارئ بهذه النّصيحة آنفة الذّكر؟ نصحتُهُ بهذه النّصيحة بسبب أنَّ ما اشتمل عليه هذا الكتاب من مضامين ليس هو من ترتيبي، بل من ترتيب اللّه الذي ألقى هذا كلّه في ذهني دفعةً واحدةً وبصورة إجماليّة، ومن ثمّ أيّدني في كلّ خطوة خطوتُهَا في تدوين ما علّمني ربّي إيّاه، ومن دون الرّجوع إلى مراجع في متناول أيدي كلّ إنسان. وكان ربّي يُوجّهني إلى المراجع العلميّة بشكل غريب ما سعيتُ إليه شخصياً.

وأحاول الآن إعطاء هذا القارئ فكرة ولو موجزةً عن خطّ سير مضمون بحث العقل الذي تضمّنه هذا الكتاب بمعونته سبحانه وتعالى وعليه أقول: إنَّ كلمة (عقل) هي كلمةٌ عربيّة، فكان من الأجدر مراجعة دلالاتها وفق ما كان يفهمها الأقدمون من بلغاء لغة الضّاد. وإلى جانب ذلك فقد كان من الواجب مراجعة الحقائق العلميّة التي تكشّفت على علماء هذا العصر بخصوص عقل الإنسان ومقارنتها مع التّعريف الذي وضعه الأقدمون من أمّتنا لكلمة (عقل). فهذه العمليّات جميعها تضمّنها الفصل الأوّل من الباب الأوّل من هذا الكتاب.

وكان من الواجب التّفريق ما بين حواس الجسد ودماغ الإنسان وعقله بشكل موضوعيّ، وبيان علاقة كلّ واحد من هذه الأطراف الثّلاثة بعضها مع بعضها الآخر. وهذه العمليّات تضمّنها الفصل الثّاني من الباب الأوّل من هذا الكتاب.

والشّائع أنَّ الإنسان يُولَد على الفطرة فأبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه، لكنَّ هذا المفهوم ملتبسٌ على أذهان النّاس، ولا يفهمونه بوضوح وبأسلوبٍ علميّ. وإنّ القارئ الذي يطالع الفصل الثّالث من الباب الأوّل من هذا الكتاب وبتأنٍّ وتروٍّ وإمعان يجد عنده وضوح رؤيةٍ في هذا المجال، ويستجدّ عليه ما لم يكن يخطر له ببال.

ولمّا كان المرء يتساءل في حديث نفسه عن الفرق ما بين معنى التّفكّر وما بين معنى التّعقّل، وعن دلالة كلمة (وعي) وصلة دلالتها بعقل هذا الإنسان. فإنَّ هذه التّساؤلات يجد القارئ أجوبتها الشّافية في الفصلَيْن الرّابع والخامس من الباب الأوّل من هذا الكتاب.

وبعد أنْ يحيط القارئ علماً بجميع ما ذكرناه يتوق للتّعرّف على كيفيّة استعمال عقله استعمالاً صحيحاً، ولتطوير كيانه النّفسي، وذلك بعد أنْ يستعيد ما قرأه في ذهنه، وبعد أنْ يتعرّف على المفهوم الحقيقيّ لجوهرة هذا العقل الذي توّج الخالق به هذا المخلوق الإنسان. وقد أفردتُ الفصل السّادس من الباب الأوّل من هذا الكتاب لتوضيح هذا الفارق الذي يتوق القارئ إلى معرفته، ولعلّني أكون قد أفلحتُ في تعريفه على ما أراد معرفته في هذا الفصل السّادس المشار إليه.

وهنا كان من الواجب أنْ أدلّ القارئ على ما تضمّنه القرآن العظيم من وصايا علميّة تساعده على الاحتفاظ بسلامة عقله. فخصّصتُ الفصل السّابع من الباب الأوّل من هذا الكتاب لتعداد وبيان أهمّ تلك المواعظ القرآنيّة في هذا المجال. وبهذا الفصل أكون قد أنهيتُ الباب الأوّل من بحث (العقل) وما إليه من توابع. وانتقلت منه إلى الباب الثّاني منه.

فلماذا أفردتُ هذا الباب الثّاني؟ أفردتُهُ مستقلاً عن الأوّل بسبب أنَّ ما بحثْتُهُ في هذا الباب يتعلّق بموضوع علاقة عقل الإنسان بما في عالمنا من قوانين طبيعيّة. ففي الفصل الأوّل من هذا الباب الثّاني تكلّمتُ عن وجود قانون الاحتياج العام الطّبيعي وهيمنة هذا القانون على كلّ شيء في هذا الوجود. إذ إنَّ كلّ شيء يخضع لهيمنة قانون الاحتياج العام الطّبيعيّ، ومن هذه الأشياء عقل هذا الإنسان.

وفي الفصل الثّاني من هذا الباب الثّاني وضّحتُ للقارئ كيف أنَّ الحواس الخمس التي تنقل المعلومات إلى دماغ الإنسان، ومنه إلى عقله تخضع هي بدورها إلى هيمنة قانون الاحتياج العام الطّبيعيّ ولذلك فإنَّ كلّ

حاسّة من تلك الحواس هي بحاجةٍ إلى عامل مساعدٍ يساعدها على أداء عملها .

وانتقلتُ إلى الفصل الثّالث من هذا الباب الثّاني فأثبتُّ فيه خضوع عقل الإنسان نفسه لقانون الاحتياج العام الطّبيعيّ واحتياجه إلى عوامل تساعده على أداء عمله على مستويات الزّمن الماضي والحاضر والمستقبل .

فلمّا فرغتُ من بيان ذلك كلّه أفردتُ باباً ثالثاً اشتمل على أربعة فصول . بحثتُ في الفصل الأوّل منه إطار عمل عقل الإنسان . كما بحثتُ في الفصل الثّاني منه وجود رابطة جدليّة تربط الأرض بالسّماء . وأمّا الفصل الثّالث فعَنْونتُهُ بعنوان (الاحتمال والوجود) وبيّنتُ فيه كيف أنَّ عقل الإنسان مهما كان صاحبه عبقريّاً فلا يقدر إثبات وجود اللّه تعالى إلاّ على مستوى (الاحتمال)، وليس على مستوى (الوجود) . وأمّا في الفصل الرّابع فقد أثبتُّ أنَّ لكلّ شيءٍ رفيق عمل، وأنَّ رفيق عمل عقل الإنسان الذي يساعده على إثبات وجود اللّه الخالق على مستوى (الوجود) هو وحي السّماء النّازل من عند خالق هذا الكون الذي لا إله إلا هو . وبعد ذلك أنهيتُ هذا الكتاب بهذه الخاتمة التي أطلعتُ القارئ العزيز من خلالها على المضامين والمراحل التي مرّ منها بحث العقل المذكور، والذي دار كلّ ما فيه حول مفهوم العقل، ونشأته، وعلاقته بحواس الجسم، وعوامله المساعدة . فأرجو من اللّه تعالى الذي أعانني على كتابة هذا المؤلّف خلال شهرين فقط أنْ ينفع به عباده، ويجعله لي صدقةً جارية لي بعد موتي، وليكون وسيلة جذب محبّة ربّي نحو شخصي الضّعيف ونحو كلّ مَنْ يستفيد منه، ويعمل على محتواه، وآخر دعوانا أنْ الحمد للّه ربّ العالمين .

مراجع الكتاب

(1) - Thomas H . Huxley - Selection From The Essays of T . H . Huxley ed . Alburey Castell (New York : Appleton - Century - Crofs,1948),P . 19 .

(2) - Charls Sherrington,Man on His Nature (Cambridge : Cambridge Unversity Press , 1975) ,p . 230 .

(3) - John Eccles,Facing Reality (Berlin : Springer - Verlag, 1970), p . 162 .

(4) - Penfield,The Mystery of the Mind (Pinceton : Princeton University Press, 1975) , p . 22 .

(5) - William Kaufmann,The Cosmic Frontiers of General Relativity (Boston : Little, Brown, 1977) , p . 76 .

(6) - Carl f . von weizsacker, The World View ofPhysics (Chicago : Unversity of Chicago Press, 1949), p . 203 .

(7) - Isaac Newton,Opticks (New York : Dover ,1952), p . 400 . Isaac Newton, Principia, trans . Florian Cajori (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1934) ,p . 399 .

(8) - Dennis w . Sciama, "The Origin of the Universe, " in The State of the Universe, ed . Geoffrey Bath (Oxford : Clarendom Press, 1980), p . 3 . Wheeler, " Genesis and Observership," p . 17 .

(9) - Joseph Silk, The Big Bang : The Creation and Evolution of the Universe (San Francisco : w . h . Freeman, 1980), p . 312 . Robert Jastrow, God and the Astronomers (New York : Norton , 1978), p . 14 .

(10) - Edmund Whittaker, quoted in Jastro pp . 111 - 12 . Edward milne, quoted in Jastrow, p . 112 .

(11) - Henry Margenau, The Miracle of Existe - nce (Woodbridge, Connecticut : Ox Bow press, 1984), pp . 29 - 30 .

المصادر والمراجع العربية

معجم مقاييس اللّغة

محيط المحيط

التّعريفات والكلّيات

العلم في منظوره الجديد

منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره

الإنسان ذلك المجهول

نشوء الإنسان وتطوّره

نظريّة جذور الأخلاق

الفهرس